الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- قسنطينة –

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

رقم التسجيل :.....

الرقم التسلسلي:.....

المدينة -الدولة في المغرب الأوسط الإسلامي

-بسكرة نموذجا-

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

تخصص: حضارة المغرب الأوسط في العصر الإسلامي –تاريخ وسيط–

إعداد الطالبة:

دعاء إدريسي

إشراف الدكتور:

علاوة عمارة

لجنة المناقشة

اللقب والاسم	الرتبة	الصفة	الجامعة
		رئيسا	
د.علاوة عمارة	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
		عضوا	
		عضوا	

السنة الجامعية 1431–1432هـ/2011–2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكـر وتقديـر

أتقدم بأبلغ عبارات الشكر والتقدير والامتنان إلى المشرف الدكتور علاوة عمارة، على ما قدم لي من نصائح، وأسهم في إخراج هذا البحث المتواضع على هذا الشكل العلمي، والذي لم يدخر جهدا في التوجيه والعناية والملاحظات الصائبة، ولعل هذا لن يوفيه حقه.

كما أتقدم بخالص الشكر، إلى السادة أعضاء اللجنة المناقشة على قراءتهم لهذا البحث وملاحظاتهم القيمة التي ستأخذ بعين العناية في الدراسات القادمة.

والشكر موصول إلى كل من قدم لي يد المساعدة وأخص بالذكر عمال مكتبة الأمير عبد القادر، والأيدي التي أخرجت هذا العمل في هذه الحلة.

وخالص الدعاء والشكر إلى كل الأساتذة، الزملاء والزميلات في كل المراحل الدراسية والشكر خاصة لمريامة، فهيمة، خالتي زهور، وغيرهن كثير...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

عرف التاريخ المتوسطي من الفترات القديمة تشكّل ظاهرة المدينة– الدولة (La cité-Etat) على غرار نماذج المدن الإغريقية في الفترة القديمة. كما عرف العالم المتوسطي في فتراته اللاحقة تبلور هذا النموذج وتطوره، خصوصا مع المدن الإيطالية التي استطاعت أن تفرض نفسها تجاريا وفكريا كما هو حال جنوة وبيزا والبندقية وأمالفي. إن نموذج المدينة–الدولة هي مرحلة نضج سلطة المدينة التي مثّلها مجلس الكومون في المدن الإيطالية لتصل المدينة بذلك إلى نوع من الهيكلة السياسية والإدارية المتمتعة باستقلال ذاتي في غالب الأحيان.

لم يكن نموذج المدينة–الدولة حكرا على الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وإنما عرف طريقه إلى الضفة الجنوبية أين استطاعت عدة مدن تنظيم نفسها بنفسها من خلال التأسيس لجهاز سياسي مرتبط بالمدينة وبمجالها القريب. إن دراسة بسكرة على سبيل المثال لا الحصر هو كفيل بمعرفة مدى قدرة المدينة المغربية على تنظيم نفسها بنفسها، فهامشية السلطة في العاصمة المركزية يؤدي حتما إلى التشرذم السياسي الذي يحث الأطراف على البحث عن الخصوصية في دواليب النظام والاقتصاد والاجتماع، ولأنّ "تجربة الحرية تحمل في طياتها تجربة الدولة"[1] ، فإنّه وبالارتكاز على مجموعة من الأسس، أهمّها نضج الفكر السياسي "لأنّ ظهور الدولة في أيّ مجتمع لا يرتبط فقط بالعناصر المادية (الحدود السياسية) بل يشترط أيضا وجود العنصر المعنوي والمتمثل على الخصوص في تبلور منطق الدولة"[2]، وإنْ تمّ تداولها بين عدّة أُسَرٍ أو مشيخات، إلا أنه في الأخير التوجه نحو توحيد المجال والسلطة وإن اختلفت الانتماءات القبلية في سبيل إيجاد إمارة أو دولة لها عاصمتها وشاراتها وركائزها وطابعها المميّز.

ر بسكرة وزيباتها من المدن التي استطاعت تجاوز طبيعتها وصعوباتها – كمدينة صحراوية ذات مناخ جاف صحراوي – معتمدة في ذلك على : موقعها المتميز الذي اختصّ بوقوعه على واحد من مسالك التجارة البرّية في العصر الوسيط؛ احتواؤها على شبكة مائية ضخمة وواسعة، وهو ما ساهم في نموّها وازدهارها ، ومِنْ ثمّ استقطاب العدد الكبير من السكان ستقرار بها ؛ والأهمّ : موروثها الروماني الذي ساهم بشكل كبير في تحويلها من مجرّد منطقة

[1]– عبد الله العروي : مفهوم الدولة ، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ط7 ، 2001 ، ص5 .

[2]– محمد شقير :تطوّر الدولة في المغرب ، الدار البيضاء : إفريقيا الشرق ، 2002 ، ص 131 .

جدباء إلى مدينة ذات طابع عسكريّ – سياسي– اقتصادي مهيكل ومقنّن.

ومِن هنا استطاعت المدينة أن تُكوّن خصوصيتها التي تغذّت بالبعد عن العواصم إذّاك، لتكون مدينة ذات إشعاع حضاري، ومساهمةً اقتصاديةً فعالة، ونموذجاً لتجلي طموحات النخب المحلية وارتقائها إلى السلطة، ومنه كان اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ :المدينة–الدولة في المغرب الأوسط الإسلامي –بسكرة نموذجاً– ، من أجل تحليل الأسباب والدوافع الكامنة وراء الكثير من الأحداث التي مهّدت وساهمت في ازدهار المدينة وتطورها خلال الحقبة الوسيطة، باحثةً في تاريخ المدينة ومجالها منذ الفتح حتى تشكل الكيان السياسي الذي ترأسه بنو مزني إلى حين العودة إلى نقطة البداية بسقوط الإمارة .

إنّ نمط المدينة–الدولة في التاريخ الإسلامي، سبق وأن أشار إليه إلياهوأشتور (ElyahuAshtour) بالنسبة لمدن الشام، ومايكل برات (Michael Brett) بالنسبة لدراسة حالة طرابلس الليبية. ومن هنا تأتي هذه الدراسة المتعلقة بمدينة بسكرة على أساس تقديم نموذج لكيفية تسيير مدينة جنوبية لجهاتها دون وجود نظام حكم مركزي يسيطر على كامل المغرب، وتطلعها إلى إثبات مركزيتها بالنسبة لمجالها، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة التي تطمح إلى الخروج بنتائج تساعدنا في فهم التكوينات القبلية في المجتمعات الوسيطة، ودورها في تأسيس الممالك والإمارات، وصنع الكيانات والنواتات السياسية وذلك من خلال الإجابة عن هذه التساؤلات التي وجدت أنه لابدّ من طرحها:

-ما مدى حضور الموروث الروماني في تشكل مدينة ذات حكم يقترب من نمط جمهوريات المدن الإيطالية واليونانية؟ وما مدى تدخله في إعطاء المدينة أهمّيتها في الفترة الإسلامية على كل الأصعدة خاصة العمرانية والاقتصادية ؟

– إلى أيّ مدى تفاعلت المدينة كوحدة سياسية منضوية في أرض الزاب مع الأحداث التي مرّت على الزاب وعاصمته طبنة كإقليم له أهميته من الناحية العسكرية والسياسية ؟

– كيف استطاعت المحافظة على خصوصيتها، مع تعاقب كل هذه الدول التي مرّت على حكمها إلى أن اتخذت سبيلها لتحقيق الإمارة ؟

– هل يمكن اعتبار ماضي المدينة الباحث عن الحرية منذ عهد تاكفاريناس وثورات القبائل

الجيوتولية المقيمة بها قد استكمل نضجه مع بني سندي وبني رمّان ؟

– ما هي القبائل التي استوطنتها، وتحكمت في سيرورة الأحداث بها ؟

– كيف تحكم موقع المدينة الطرفي في ماضيها السياسي، وفي الوقت ذاته، كيف ساهم كمسلك بري تجاري في تطوّر المدينة الاقتصادي والعلمي ؟

وانطلاقا من الإجابة عن هذه التساؤلات سوف أميط اللثام عن مدينة كانت مركزا مهما منذ القديم، واتخذها الرومان قاعدة عسكرية وموردا اقتصاديا لهم، وكانت مركزا للأسقفية المسيحية، والتي استخلصت كل عناصر الحضارة العربية الإسلامية، بدءً من استقرار العرب الفاتحين، ثمّ الهلاليين بها، الذين ارتقوا بالنموذج الهلالي إلى تأسيس الإمارات المستقلة. وسعيا مني للإلمام بالموضوع من جميع جوانبه والإجابة عن كل التساؤلات والإشكالات التي واجهتني، فقد قمت بقراءة المادة الخبرية انطلاقا من نصوص مصدرية ومعطيات أثرية ووظفتها في سياقها التاريخي العام.

من المفيد الإشارة إلى أنني خلال هذا البحث، ومحاولتي استيفاء أغلب جزئياته والتفاصيل المتعلقة بالمدينة، قد حاولت الاطلاع على جميع ما وقعت عليه من المصادر والمراجع التي بإمكانها أن تخدمني في هذه الدراسة سواء المشرقية أو المغربية، وإن كنت لم أجد ضالتي سوى في البعض منها، ولم أتمكن من اعتماد معظمها لبعدها عن التأريخ لهذه الحاضرة، ولمحاولتي توخي التعميم، لذلك فقد اعتمدت على ما صبّ في صميم الموضوع فقط .

أولاً: الكتابات الإخبارية: والتي تعتبر أساس ومعتمد هذه الدراسة. وأهمّ المصنّفات التي اعتمدت عليها :

ابن خلدون (808هـ/1405م) : يعتبر أهمّ من كتب عن تاريخ المنطقة، وذلك كونه معاصرا للأحداث الأخيرة المتعلقة بإمارة بني مزني وسقوط دولتهم ؛ والأهمّ من ذلك فقد عاش فيها ما يربو عن ست سنوات، لذلك فشهادته تعتبر حية، ولم تقتصر رواياته على التاريخ فقط، بل لديه إضافات جغرافية أيضا، هذا فضلا عن رواياته المستفيضة عن سكان المغرب وبني هلال ؛ لذلك فإنّ كتاب العبر[1] ومعلوماته المركزة تعتبر حجر الزاوية في هذه الدراسة .

[1]– ابن خلدون : العبر ، مراجعة : سهيل زكار ، بيروت : دار الفكر ، 2000م .

ابن عذاري المراكشي (**كان حيا عام** 1312/712م) : على الرغم من كونه لم يعاصر أحداث تاريخ المنطقة في الفترة الأولى ، إلا أنه أفاد هذه الدراسة بالشيء الكثير، وذلك لدقته في التفاصيل، وإنْ أغفل الكثير منها، وما ميّزه هو الدقة في التواريخ والأحداث الحولية التي حمّلها كتابه (**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**)[1]، سواء المتعلقة ببسكرة أو الأحداث العامة التي كانت المدينة مرتبطة بها في سياقها التاريخي-الجغرافي.

شهاب الدين النويْري (ت 730هـ/1331م): أسعفنا ج 24 من كتاب (**نهاية الأرب في فنون الأدب**)[2]بتواريخ قيام الدول وسقوطها وأحداثها سواء منها المتعلقة بالمنطقة تحديدا ، أو بتاريخ بلاد المغرب بصفة عامة، بعد أن نقل معلوماته من كتاب "الجمع والبيان في أخبار القيروان" لابن شداد الصنهاجي.

الرقيق القيرواني (ت 420هـ/1029م) : من أهمّ المصادر التي أفادتنا في الفترة التي غطاها مؤلف (**تاريخ إفريقية والمغرب**)[3] وهي الأحداث التي أعقبت فتح المغرب والوُلاة .وتكمن الاستفادة منه في الاقتباس فيما يخص تاريخ الأحداث المتعلقة بإفريقية والمغرب عامة .

ابن الأثير(ت 630هـ/1232م): أفادنا كتابه الموسوم بـ (**الكامل في التاريخ**)[4]كثير الإفادة وإن كان مصدرا مشرقيا ، إلا أنّه تعرّض بكثير من التفاصيل إلى أحداث الدول والقبائل والإمارات ؛ وقد كان اعتمادنا عليه خاصة فيما يتعلق بالتواريخ التي دقق المؤلف فيها.

ثانيا : الكتابات الوصفية: لم يكن من الممكن الاستغناء عن المادة الثرية التي حفلت بها هذه المصنفات ، ليس فحسب فيما يتعلق بالمادة الجغرافية، وإنما حتى اقتصاديا وتاريخيا وثقافيا. ومن أهم ما تم الاعتماد عليه :

ابن حوقل (ت 367هـ/977م) : والذي زار بلاد المغرب والأندلس في العصر الفاطمي،

---

[1]– ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، تحقيق : ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، بيروت : دار الثقافة ، ط2 ، 1980 .

[2]– النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : حسن نصّار ، مراجعة : عبد العزيز الأهواني ، القاهرة : المكتبة العربية ، 1983.

[3]– الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق : عبد الله العليّ الزيدان، وعز الدين عمرو موسى، بيروت :دار الغرب الإسلامي ، 1990 .

[4]– ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط4 .

يعطينا إشارات بالغة الأهمّية عن المنطقة خلال هذه الفترة واقتصادياتها . ولكنّ أهمّ شيء أمكننا استخلاصه من مصنف (**صورة الأرض**)[1]هو المسالك البرية والطرقات التي ربطت بسكرة بغيرها من الحواضر كجزء من الشبكة المسلكية المغربية .

البكري (ت487هـ/1094م) **وصاحب الاستبصار** (حيّ خلال القرن 6هـ): يعتبر المؤلفان (**المسالك والممالك**)[2] و(**الاستبصار في عجائب الأمصار**)[3]من أهمّ الكتب التي أفادت وتمّ الاعتماد عليها خلال مراحل البحث وجزئياته ؛ جمعتهما معا لأنهما تقريبا عاشا في نفس الحقبة؛ وثانيا لأن مادتيهما متقاربتان إلى حد بعيد لقد قدم لنا الكتابان وصفا دقيقا شاملا للحياة في الزاب البسكري في ذلك الوقت من كل النواحي والجوانب حتى الثقافية منها، والمتأمّل في هذا الوصف يستطيع بسهولة رسم الخريطة القبلية-الاقتصادية- طبيعية لمنطقة بسكرة ومدنها أثناء القرنين الخامس والسادس الهجريين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، بيروت : دار مكتبة الحياة .

[2]– البكري : المسالك والممالك ، تحقيق : جمال طلبة ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 2003 .

[3]– مجهول من القرن 6هـ : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد : دار الشئون الثقافية العامة .

الفصل الأول

بسكرة في مرحلة التحولات (ق 1-4هـ/7-10م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-العمق التاريخي لبسكرة وجهتها :

شكلت بلاد الزاب[1] منذ البدايات الأولى للفتح الإسلامي منطقة شريانية على أرض إفريقية من الناحيتين الجغرافية والبشرية، إذ موقعه الجغرافي وشساعة مساحته وتنوع تركيبته سكانية وماضيه الحافل جعله يلعب دورًا كبيرًا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب، وفي كل الأحوال فقد احتفظ بخصوصيته الضاربة في أعماق التاريخ كإقليم له أهميته البالغة، و من الجلي أن العرب قد ورثوا تشكيلة عمرانية، وشبكة مدينيّة هائلة يميزها التنظيم والإحكام مع تطور نسبي نظرا إلى ذلك العصر في التقنيات المتاحة المنظمة للمدن والمجالات العمرانية السكنية والزراعية.

يمكن تعريف تأسيس المدينة بأنه مجموعة العوامل الطبوغرافية المحلية التي تشكلها وتؤثر في تخطيطها ونموّها[2]. وبما أن بسكرة وزيبانها هي عبارة عن تشكيلة من المدن الرومانية التي شكلت حصون خط الليمس فإن المؤكد أن الدافع من تأسيسها كان عسكريًا بالدرجة الأولى[3].

بسكرة هي فيسيرا (Vescera)[4] المدينة التي اشتملت على أسقفيتين نوميديتين تابعين للكنيسة المسيحية الأم، واحدة دوناتية والثانية كاثوليكية، قد عثر أن رجال الاثنتين قد شاركوا في المؤتمر

---

[1] – اختفت مقاطعة نوميديا من التقسيم الإداري الأموي، فالإقليم تخلى كليًا عن اسم نوميديا الذي حلّ محلّه لفظ الزاب، هذه التسمية الأخيرة ذات المدلول اللغوي الغامض والتي تنسب على الأرجح إلى مدينة زابي جستنيانا Zabi Justiniana الواقعة إلى الغرب من مدينة طبنة، وهي تشير بصفة أساسية لنوميديا الجنوبية ؛ثم استخدمت لتعني كامل المقاطعة القديمة، وفي النهاية فقد أدى هذا إلى تغيير طبونومي عميق ، وكما تغيرت التسمية فقد تغيرت عاصمة الإقليم من قسنطينة إلى طبنة، وهو ما يكرس التوجه العام للسياسة الأموية المركز على المناطق الداخلية المشتهرة بالأراضي الزراعية الواسعة وتوفرها على ثروة حيوانية هامة. حول تفاصيل المنطقة : انظر : محمد البشير شنيتي :الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، ج1، ص 142 فما بعدها . هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي القرن الأوّل والثاني الهجري، بيروت : دار الطليعة، ط1، 2000م، ص 54. عمارة علاوة :الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب،مجلة الآداب و العلوم الإنسانية،10،قسنطينة،2009،ص 12.

[2] – ليوبولدو توِّرس بالباس : المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة : إليو دو ري دي لابنيا، مراجعة : محمد جمال، عبد الله إبراهيم العمير، الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2003م، ص 105. عبد الجبار ناجي : دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2001م، ص 32.

–لويس ممفورد : المدينة على مر العصور : أصلها تطورها ومستقبلها، إشراف ومراجعة : إبراهيم نصحي، مصر : مكتبة الأنجلو مصرية، 1964م، ج1، ص 14.

– نيكيتا اليسييف : التخطيط المادي للمدينة الإسلامية_(المدينة الإسلامية)،ترجمة:أحمد محمد تعلب، مقالات عن كلية الدراسات الشرقية ،جامعة كمبردج، اليونسكو، 1983م، ص 95-107.

[3] – محمد البشير شنيتي : المرجع السابق، ص 155 فما بعد.

[4] – Stéphane Gsell : Atlas archéologique de l’Algérie,Edition spéciale des cart au 200 000 du service geographique de l armée ,rèèd Osnabruck ,1972, F : 48.

المسيحي الكنسي بقرطاج سنة 411م[1]. أو من الممكن أن تكون قد أخذت تسميتها من بيسينام (Piscenam) الاسم الذي عرف به منبع حمام الصالحين، وهو الموقع الذي يبعد عن المدينة العربية بحوالي 06 كلم، وقد وجدت بالقرب من منبع هذا الحمام بقايا أثرية تتمثل في حجارة منحوتة وبعض الكسر الفخارية[2].

إن التغلغل الروماني بمنطقة الزاب في أقصى اتساع له لا يطرح مجالاً للشك، بما في ذلك منطقة بسكرة وواحاتها، لكن بعد نهاية الفترة الرومانية من الناحية العسكرية دخلت المنطقة في مرحلة غامضة شدت اهتمام المختصين في هذه الفترة، وبقيت ترجيحات المؤرخين الاستعماريين بين مؤكدٍ لتبعية المنطقة لإفريقية البيزنطية و عدمه. إن الإشكال يتعلق بورود معلومات تؤكد ليس فقط انتشار حاميات بيزنطية بالمناطق الشمالية للزاب وإنما في عمق بلاد الزاب، عندما تشير النصوص العربية إلى تحصينات بيزنطية بمنطقة تهودة سقط بقربها القائد عقبة بن نافع[3].

هذه المنطقة عُرفت باشتمالها على العديد من المدن "والقرى المتجاورة جمعًا جمعًا، ويعرف كل منها بالزاب"[4]، تمحورت حول المدينة الأم وعاصمة الإقليم بسكرة. الجدير بالتنويه أن من غير المعقول إجراء إحصاء دقيق لهذه المدن والقرى لأن منها ما اندثر ولم يعد له أثر مثل : حيّاس وملشون ...، كما أن أسماء المواقع في هذه المنطقة تأتي شاهدًا على التواصل الطبونومي لبلاد المغرب عبر الزمان والمكان ذلك أن العدد الكبير من هذه الأسماء مشتق من أصول قديمة وتم تعريبها[5].

من هذه المدن قلعة ثابوديوس (Thapodueos) والتي عربت باسم تهودة، وهي نفسها التي حملت بعد ذلك إسم (سيدي عقبة) مكان استشهاد الصحابي عقبةبن نافع سنة 62هـ/681م[6]، تبعد المدينة الإسلامية عن أطلال تهودة بحوالي 05 كلم، وقد أشير إليها في كتابات المؤرخ الإغريقي بلين

---

[1] – Le chanoine Jaubert : enceins évêches et ruines chrétiennes de la Numidie et de la sitifienne, société archéologique du département de Constantine, 3ème volume, de la 5ème séries, 1912, p : 100. Gselle, F : 48.

– محمد الصغير غانم : مقالات حول تراث منطقة بسكرة و التخوم الأوراسية،جمعية التاريخ و التراث الأثري لمنطقة الأوراس، باتنة :مطبعة قرفي، ص 23–24.

[2] – نفسه : ص 27.

[3] – عمارة علاوة : الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية القبلية، ص 13.

[4] – ابن خلدون : العبر، ج6، ص 585.

[5] – محمد حسن : الجغرافيا التاريخية لإفريقية،ليبيا :دار الكتاب الوطنية بنغازي ، ط1،2004 ، ص 10.

[6] – ابن خلدون :العبر ، ج4، ص 238.

الكبير، واعتبرها ضمن المدن التي استولى عليها القائد الروماني كورنيلوس بالبوس[1]. وتتمثل بقايا تهودة الأثرية في مخلفات الحمامات الرومانية والنصب التذكارية وأجزاء بعض النقوش اللاتينية والمباني[2]. تهودة مثلت نقطة سحب كسيلة لعقبة بن نافع إلى الجنوب حيث تمت المعركة الحاسمة ليست فقط بالنسبة لعقبة والشهداء معه، بل في تاريخ تقدم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، أُستشهد القائد والجيش الأموي المتبقى معه، وأقيمت المدينة الإسلامية التي اشتملت على جامع عقبة الذي نجهل تاريخ تأسيسه، غير أن المرجّح أن هذا تم في عهد الولاّة، وعلى مقبرة ظلت مزارًا عبر التاريخ، عرفت المدينة الإسلامية تطورًا حضاريًا كبيرًا، ونموًا إقتصاديًا، نجده مثبتًا عند البكري الذي يصف مجالها الحضري "حولها بساتين كثيرة وصنوف الثمار .. وحواليها أزيد من عشرين قرية"[3].

Badias أو بادس أيضا من المواقع الرومانية الهامة في الركن الجنوبي الشرقي من الأوراس، وازدادت أهمية هذا الموقع بوقوعه على الخط الرابط بين فيسيرا غربًا وماسكولا (خنشلة) في قلب الأوراس شمالاً، وقفصه (Capsa) بتونس شرقا وتبسّة شمال شرقي بادس. وحسب الآثار التي وجدت في المنطقة فإن بادس كانت تتكون من معسكرين :

1 – معسكر يحيط بالقلعة ومحصّن بسور قوى.

2 – أما المعسكر الثاني فهو عبارة عن مرتفع محاط بسور دائري، ويمكن أن يكون قد اتخذ لسكنى المدنيين[4]، ومن المرجح أن يكون هذان الحصنان هما الذين قصدهما البكري حين قال "ولمدينة بادس حصنان ولهما جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة"[5].

قصر الدوسن (Doucen)أيضاً من المواقع ذات الإرث الروماني، أين تقع أطلال البرج الروماني حوالي 01 كلم عن المدينة الحالية[6].

مخلفات الحضارة الرومانية ما زالت حاضرة إلى اليوم في معظم المدن البسكرية، ونحن هنا لسنا بصدد الإحصاء بقدر إعطاء معلومات مجملة عن الحقبة الممهدة لفترة موضوع هذه الدراسة، فمثلا :

---

[1] – Stifen Gsell, op-cit, Feuille n° 48.

[2] – محمد الصغير غانم : تراث منطقة بسكرة، ص 37.

[3] – البكري: المسالك والممالك، ج2، ص257.

[4] – غانم: المرجع السابق ،ص 38-39.

[5] –أبو عبيد البكري: المصدر السابق،ج2، ص 257. غانم : المرجع السابق، ص 39 .

[6] – Gsell : Atlas archéologique, F : 48

مدينة القنطرة (Calceus Herculis) والتي عثر فيها على بقايا معبد الإله هرقل والتي لا تزال بقايا جسرها الروماني المقام على الوادي أعلى قرية القنطرة[1]، لوطاية أيضا احتوت على عدة بقايا أثرية رومانية تمثل في مجموعها دلالة لتجمع سكاني هام، في وسط هذا الموقع الأثري وجدت بقايا معصرة للزيتون وأعمدة أيونية بالإضافة إلى نقيشتين أثريتين كتبتا باللاتينية وشاهد قبر[2].

التواجد الروماني أيضا ظل على مر التاريخ وإلى اليوم ممثلاً في الآثار المتبقية في مدن كثيرة ؛ إن لم نجزم أنه عبّر عن تواجده في كامل المنطقة: طولقة[3]، بنطيوس[4]، أورلال، مليلي[5]، أولاد جلال[6]، ليشانة[7]، الزعاطشة[8]، جمورة[9]، البرانيس[1]، قلعة التخوم[2].

---

[1] - Charles Tissot : la Provence romaine de l'Afrique, paris, 1984, Tome 2, p : 515-516.

[2] – ورد في النقيشتين المذكورتين الإشارة إلى وجود مسرح روماني ضمن هذا التجمع السكاني، رُسم فيما بين سنتي (177-180م) من قبل فرقة الخيالة السادسة، انظر مفصّلا : غانم : تراث منطقة بسكرة، ص 16-17.

[3] – عثر في شمال المدينة على بقايا برج حراسة بلغت أبعاد أضلاعه 30 X 22م بني بحجارة منحوتة، وبالقرب منه عثر على مجموعة من الكسر الفخارية. نفسه : ص29.

[4] – واحة عثر فيها على عدة قبور حجرية بالإضافة إلى بقايا سور حجري يمتد حول ضريح سيدي أحمد الحاج وبقايا من نقيشة لاتينية، وقد احتوت واحة أم الطوال بدورها على مركز روماني تشهد على ذلك بقايا أسس المنازل وقواعد الأعمدة والتيجان بالإضافة إلى أسس كنيسة مسيحية عثر عليها في الواحة المذكورة، أُنظر مفصّلا : غانم : نفسه، ص 33-34. - Cambuzat Paul – louis :l èvolution des cité du tell en Afriquia, Alger : office de publication universitaires, 1986, tome 2, p52.

[5] – تدخل كل من واحة أورلال ومليلي تحت اسم جميلي التي كانت تضم كل هذه التجمعات السكانية، بالإضافة إلى قلعة عسكرية كانت توجد على الضفة اليمنى لوادي جدي ،ومليلي مدينة مشتقة من اسم فرع من هوارة وهي مليلة، أعطت اسمها لمدينة بالمغرب الأقصى مليلة وأخرى هي مليلي الزاب، انظر : محمد حسن، الجغرافيا التاريخية، ص 12. غانم : المرجع السابق، ص32.

- Dallattre :Excursion dans le Zab occidental, société archéologique, 4ème volume de la 3ème série, 1888, p : 263.

[6] – تشتمل هذه الواحة على محطة أثرية تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، توجد بعين الحمارة، وهي عبارة عن بازيناس ذات دفن جماعي، نحن نجهل الإسم التاريخي لهذه الواحة، ولكنها تعبير عن تجذر الطوبونيميا القبلية الهلالية في المغرب. علاوة عمارة: الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية القبلية، ص 26 . غانم : المرجع السابق ، ص 37. - Gsell : op, cit : F : 48.

[7] – وجدت بواحة ليشانة بقايا أثرية تدل على أنه كان يوجد بها برج للحراسة بالإضافة إلى آبار للشرب والسقاية. وهي تعتبر إحدى القرى الثلاثة التابعة لطولقة. غانم : تراث منطقة بسكرة، ص 29. - Dalettre : op. cit : p 277.

[8] – عثر في واحة الزعاطشة على مقلع للحجارة استعمل لمدة طويلة خلال فترة الرومان. أُنظر : غانم : نفسه، ص 29. - Gsell : op, cit : F : 48.

[9] – توجد في جمورة بقايا قناة ماء رومانية، وبقايا تجمع سكاني يحتل مكانًا مرتفعًا وأسس منازل وحجارات معاصر زيت، راجع :محمد الصغير غانم : نفسه، ص 20. - Baradez : Fassatum Afriquae, paris, Art et métier graphique, 1949, p 278.

2-بسكرة: ارتباط بالمتغيرات القيروانية:

في إطار التوسع الإسلامي على حساب الإمبراطورتين البيزنطية والفارسية، كان فتح الأمويين للمغرب امتدادًا لخط سير الفتوحات، وكانت همة الخلافة الأموية -بعد توقف الفتوحات نتيجة الفتنة الكبرى- كبيرة في إدماج أرض إفريقية إلى حظيرة العالم الإسلامي[3]. ومن الأكيد أن جهود عقبة بن نافع في المرحلة الأولى قد تكللت بسلسلة من الحملات الناجحة، ومن الثابت أنّه لم يصل الواحات الداخلية المتصلة بالزاب، ولكنه اتخذ من المدن الداخلية الواقعة على خط الليمس وخط التجارة طريقا له[4]، وهذا ما يحدو بي إلى التأكيد على أن سكان المنطقة قد تسامعوا بأنباء الفتح وأحسّوا الخطر، خاصة وأن التركيبة القبلية تقريبا كانت واحدة. فبالنظر إلى الفتوحات والحملات العسكرية التي قام بها عقبة أثناء ولايته الأولى 50-55هـ/670-674م، فإنّه كان يبعث السرايا فتنهب وتُغيّر، ودخل كثير من البربر الإسلام، ولكنها لم تتعدَّ المناطق القريبة من القيروان[5]، ولم يتم التوغل في إفريقية والمغرب، كما أن فتح منطقة بسكرة أيضا لا يمكن أن يكون قد تمّ في فترة حكم أبي المهاجر دينار الذي سمِّيَ قائدًا لجيش إفريقية بدءًا من سنة 55هـ/671م، واستمر على ذلك إلى عودة عقبة ثانية 62هـ/681م، وسوف يكون في هذه الفترة القائد الذي لديه سياسة واضحة في فتح المناطق الداخلية بوصوله إلى مناطق الوسطى لبلاد المغرب[6].

---

[1] - جنوب القرية بقايا حصن روماني صغير لا زالت حتى وقت قريب أسسه ظاهرة للعيان وبالقرب منه وجد بقايا ضريح مبني بالحجارة يمكن أن يعود إلى فترة ما قبل التاريخ وقد عرف عند سكان الناحية "ببنات السبع رقود". غانم :نفسه، ص 19.

[2] - منطقة ذات أهمية كبيرة، موقعها شرياني في التجارة الجنوبية الرومانية، تقع في ملتقى الطرق، وهي مركز عسكري روماني تعرف الآن بالملاقة. انظر : غانم : نفسه، ص 17-18. - Baradez : op. cit., p : 218.

[3] - انظر : عبد الكريم غلاب : قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، ص 116-117.

[4] - انظر مفصّلا : ابن عذارى : البيان ،ج1،ص19 . ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والمغرب، تحقيق :عبد الله أنيس الطباع، بيروت :مكتبة المدرسة ، 1980 ، ج1 ، ص53 . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرفان،مصر:المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة و النشر،ج1،ص125. السلاوي : الاستقصا، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء : دار الكتاب، 1954م، ج1، ص 78. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ص 138.

[5] - ابن الأثير : الكامل ،ج3، ص 320. إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا، بيروت : دار النهضة العربية، 1980م، ص 33 فما بعد. حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط دولة الخلافة، القاهرة : دار الفكر، ط1، ص43.

[6] - راجع : المالكي : رياض النفوس، تحقيق : بشير بكوش، مراجعة : محمد العروسي المطوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981م ، ج1، ص 33. أحمد بن القاضي : جذوة الاقتباس، الرباط : دار المنصور للطباعة، 1973، ص 15.

لقد بدأ الوعي بما يحدث وبما يفعله العرب والمسلمون بين البربر كنتيجة حتمية لتوالي الحملات على معاقلهم، واستطاعت إصلاحات الكنيسة التي قام بها قسطنطين الرابع من إعادة الروم الأفارقة إلى حظيرة الدولة البيزنطية، وكان من نتائجها عودة الثقة بين الحاكم ومحكوميه. غير أن هذا الوعي لم يقتصر على الروم فقط بل شمل أيضا البربر وخاصة أوربة منهم[1]. ومن المرجِّح أن هذه القبائل بدأت في النشاط وبدأت تتحرك للمقاومة، وربما اجتمعت إلى أوربة واقتربت منها تاركة مواقعها الشرقية زمان الفتح، ونزلت قوّاتها شمال جبل أوراس[2]، ويؤيد هذا الرأي أن المقاومة البربرية ستظهر حينما يحاول العرب اختراق الأوراس في حملة عقبة الثانية.

ولا شك في وصول أخبار الفتح الإسلامي لكل سكان المغرب، وغني عن البيان أن قبائل الزاب التي لا ريب أن هذه الأخبار ما زالت عليهم متوالية، لم يبدوا أي تحرك واضح تجاه القادم الغريب، على الرغم من إحساسهم بخطره. هل يفسر هذا انحسارا للعمليات العسكرية في المجال البيزنطي الشمالي ؟ على كلٍّ فإن المقاومة ستظهر لاحقًا، وستكون بسكرة نواة مركزيةً يتم فيها أولى أكبر حركات المقاومة.

عندما سمي عقبة من جديد على رأس بلاد المغرب سنة 62هـ/681م[3] عاد بجيوشه إلى اجتياح المغربين الأوسط والأقصى، وبغضّ النظر عن التفاصيل فإن عقبة اندفع إلى البحر المحيط، مع إثبات روايات المؤرخين الذين يؤكدون اصطحابه لغريميه : أبو المهاجر وكسيلة الذي كان كأي زعيم قبيلة لا يتنازل عن زعامته ولا يقبل الاستهانة بكرامته، وكان مستعدًا أن يحالف كزعيم، ولكنه غير مستعد أن يهان سياسيًا أو شخصيًا[4]. يذكر صاحب الاستبصار[5] مرور عقبة خلال ذهابه في رحلته الطويلة الشاقة

السلاوي : الاستقصا، ج1، ص 80. هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي،ص18. محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1963م ،ج2 ، ص 30 .

[1] – حسين مؤنس : الفتح، ص 160. هشام جعيط : نفسه، ص 27.

[2] – يقول ابن خلدون "وكانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر كلها لعهد الفتح أوربة وهوَّارة وصنهاجة من البرانس، ونفوسة ومطغرة نفزاوة من البتر، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء لما كانوا أكثر عددًا وأشد وقوة، وكان أميرهم سكردید بن رومي، غير أنّه ولى عليهم بموته كسيلة بن لمزم، فكان أميراً على البرانس كلها". ابن خلدون : العبر، ج6، ص 153-154. خليفة بن خياط : كتاب التاريخ، رواية: بقيّ بن خالد، تحقيق : سهيل زكار، بيروت : دار الفكر، 1993م، ص 193. أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج1، ص 160. النويري : نهاية الأرب،ج24،ص30.
السلاوي :المرجع السابق، ج1، ص 30. حسين مؤنس : المرجع السابق، ص 162. هشام جعيط : المرجع السابق، ص 27.

[3] – النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 26. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 23.
– جورج مارسي : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي، ترجمة : محمود عبد الصمد هيكل، الإسكندرية : مطبعة الانتصار، ص 36.

[4] – عبد الكريم غلاب : قراءة جديدة في تاريخ المغرب، ص 120.

[5] – مجهول : كتاب الاستبصار ،ص 175 .

بمنطقة بسكرة وتهودة وبادس، في حين نجد المصادر الأخرى تثبت له حصاره لمنطقة باغاية، على أثرها أذنه التي كانت مقرا للملك في الزاب "وحولها ثلاثمئة قرية"[1] وعندها احتشدت قوات المقاومة، غير أنه إثر هزيمة البربر في باغاية ذهب عز الروم عن الزاب وذلُّوا آخر الدهر[2].

هل يمكن أن تكون بسكرة وقراها ضمن القرى العامرة الثلاثمائة، وقرب المسافة بين أذنة وقرى بسكرة تُعدُّ بالأميال فقط ؟.

يقول صاحب الاستبصار "خطر – عقبة – على مدينة تهودة ومدينة بادس فرأى فيهما قوة كبيرة من النصارى والبربر، وكانتا في ذلك الوقت من أعظم مدن المغرب "[3]، ولم تكن المدينتان قد عرفتا قبل هذا قائدًا فاتحًا، وان كانتا قد احتضنتا من البربر والروم الفارِّين المتحصنين من حصار وقتال المسلمين لهم العدد الكبير. ومما لاشك فيه أنهما كانتا معقلاً حصينا للنصارى والروم ومن تحالف معهم من البربر :

أولا: لإيثار هؤلاء الهرب إلى المناطق الداخلية الأكثر أمنًا وبُعدًا عن العرب.

ثانيا : لأن المنطقة تتمتع بامتلاك عدة حصون رومانية معدَّة في الأصل لهذا الغرض ،وربما هذا ما جعل البكري وصاحب الاستبصار ينعتانها بأنها من أعظم مدائن المغرب[4]. المهم أن عقبة واصل طريقه شاقًا بذلك المغرب الأوسط، وبغضّ النظر عن الرواية القائلة بوصوله إلى المحيط ؛ فإنّه قفل راجعًا بعد أن أخضع عددًا من الجماعات المحلية والمدن[5].

متى فرّ كسيلة من أسره في جيش عقبة حتى يتمكن من لقائه في تهودة ؟ لاشك أن نصيحة

أبي المهاجر لعقبة أن يتوثق من الرجل لم تأت من الفراغ، فقد جُرح في الأعماق، وعندما وجد نفسه على أرض قبيلته قام بالاتصالات الضرورية مع قومه ومع البيزنطيين، ربما لأنّه أصبح غير قادر على

---

[1] – ويسمِّها النويري أربة، وابن خلدون أذنة، انظر : النويري : المصدر السابق، ج24، ص 27.
ابن خلدون : كتاب العبر، ج4، ص 237.

[2] – الدباغ : معالم الإيمان ، تصحيح : إبراهيم شبوح، مصر : مطبعة السنة المحمدية، ط2، 1968م، ج1، ص 49.
الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، ص 43.

[3] – الاستبصار: المصدر السابق، ص 174.

[4] – مجهول:الاستبصار، ص174. البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 256.

[5] – النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 27.

تحمل هذا التحالف الذي تحوّل إلى تبعيَّة مُذلَّة[1]. من الواضح أن عقبة في طريق عودته سلك الطريق الواقع جنوب الأطلس الصحراوي، أين كان النسيج الحضري ضعيفًا جدًا، لذلك فإنّه أسرع دون أن يمرَّ –حسب المصادر– بأية مدينة فلما وصل طبنة أذن لسائر جنده في اللحاق بالقيروان وبقي هو في خف من جنوده وهنا ظهر دور كسيلة[2]. فإن هو تركه بعد هذا فلربما لحق بالقيروان بحيث يستطيع الاستنجاد فاستدرجه كسيلة مبعدًا إياه عن الطريق التي سلكها جنوده محاولاً جذبه إلى الجنوب الغربي من طبنة.

لقد انحرف الجيش فعلا نحو تهودة، وقصد عقبة في ذلك أن يمر عليها هي وبادس ويعرف ما يكفيهما من العدة والجيوش[3]، فلما انتهى إلى مدينة تهودة اعتمده كسيلة في جيشه المشكّل من البربر والروم، وقد علموا بافتراق أصحابه عند فزحفوا إليه[4]. من المؤكد أن الجيش قد توجه نحو تهودة، ولكن بمجرد الوصول إليها وجد عقبة أهلها متحصنين بها، ووجدوا الموت بانتظارهم هناك، وأثبت المجاهدون وقائدهم بسالة جديرة بالإعجاب إلى أن استشهدوا. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة: لماذا سرّح عقبة جنوده قبل وصوله ؟ ولماذا تهودة بالذات ؟ ألم تكن دوافع كسيلة عندما مال بالقائد وجنوده إلى تهودة هي عن معرفة بما تحتويه من مقومات تمنح الانتصار لمن يحسن استغلالها وربما –حسب ما نفسره– هي نفس المقومات التي قدّرها كل من قام بحركة خروج أو مقاومة فيما بعد في المنطقة على مدى التاريخ الوسيط.

تسكت المصادر عن أي ذكر للمنطقة بعد هزيمة تهودة فلا نجد في طياتها ما يلوِّح بإشارة مهما كانت طفيفة على حالة المنطقة وقت ذاك. غير أن الحسن الوزّان –ليون الإفريقي– عند تعرِّضه لبلاد الزاب يذكر فتح منطقة الدوسن، دون تحديد دقيق للقائد الذي فتح المنطقة، أو حتى سنة الفتح، حيث يصفها بأنّها مدينة أزلية من بناء الرومان في المنطقة التي تتاخم فيها مملكة بجاية صحراء نوميديا، وقد خربت لما دخل جنود المسلمين إلى إفريقية، لأنّه كان بداخلها كونت روماني مع عدد كبير من الشجعان، ولم يرض إطلاقًا بتسليم المدينة إلى القائد العربي بحيث أن الحصار دام عامًا إلى أن احتلت عنوة، وقتل جميع الرجال وأسر النساء والأطفال، وأضرمت النيران فاحترقت المنازل لأنّ الأسوار مبنية

[1] – الدباغ : معالم الإيمان، ج1، ص 53. ابن عذارى : البيان، ج1،ص 25. هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي، ص 24.

[2] – ابن خلدون : العبر، ج6، ص 193.

[3] – الدباغ : المصدر السابق، ج1، ص 49. البكري : المصدر السابق، ج2، ص 256.

[4] – ابن عذارى : المصدر السابق، ج1، ص29.

بحجر ضخم لم يمكن هدمها، لكنها تبدو مخربة في واجهتين[1].

ومع أنّه ليس لدينا أي تصور عن هذا الجيش الفاتح إلا أننا نرجح أن سياسة عقبة ومن بعده كانت بعيدة كل البعد عن هذا العنف، هذا إن صحَّت هذه الرواية المتأخرة أو أمكن قبولها.

على الرغم من نجاح كسيلة في تجميع البربر إلى صفّه والقضاء على الوجود الإسلامي في المنطقة بقيادته المعركة ضد المسلمين إلى الانتصار، إلاّ أنّه من غير المعقول التصور أنّه عند استقراره بالقيروان قد أحكم قبضته على إفريقية كاملة، أما قول ابن عذارى "أنّه استقر بالقيروان كأمير على كل إفريقية والمغرب"[2] فلا يمكن تمديد هذا المعنى إلاّ بأنّه أمَّن القبائل التي كانت تسكن المغرب بأن منحها السكينة إلى عدم وجود خطر يداهمها ما دامت موالية له، وهذا ما يمكن إسقاطه على المنطقة المدروسة. ليست لدينا إشارات واضحة أو صريحة عن علاقة منطقة بسكرة بمقاومة الكاهنة، لكن إذا صحَّت الرواية القائلة بأنّها أغرت برابرة تهودة على عقبة بن نافع فمن باب أولى وهي تعرف مدى أهمية هذه المنطقة أن تنالها بسياستها التخريبية.

عرف الوجود الإسلامي رسوخ قدم في إفريقية بوجود حسان بن النعمان الغساني، بعد أن كان آخر من أخمد ثورات الروم والبربر، يذكر ابن خلدون أنّه بعد ما انتصر على الكاهنة "أمَّن قومها ومن انضوى إليهم بجبل أوراس"[3]. واستقامت إفريقية كلها وأمن أهلها، وقطع الله مدة أهل الكفر وصارت داراً للإسلام[4]. أما موسى بن نصير الذي تولى سنة 86هـ/705م، فقد ابتدأ عهده بحملة إلى هوَّارة وزناتة، كانت بمثابة الدرس لبقية القبائل التي أصبحت تشعر بضعف أمام الجيوش الإسلامية، ولم يبق أمامها سوى حلين : طلب الصلح والأمان، أو الفرار، وفعلاً، فقد لجأت معظمها إلى الحل الأول فقدم وجوهها على موسى فصالحهم بشرط أن يتركوا معه رهائن من خيارهم[5].

مع عودة موسى بن نصير إلى المشرق سنة 96هـ/714م تنتهي فترة الفتوحات ويبدأ عهد الولاة

---

[1] – من الصعب جدًّا قبول هذه الرواية لأنّها متأخرة، ولأنّها تتناقض مع أخلاق الفاتحين لذا يجب التعامل معها بتحفظ. ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ص 41.

[2] – ابن عذارى :البيان، ج1،ص 31.

[3] – يقول ابن خلدون : "على شرط أن يعطوه اثني عشر ألفًا يضمهم إلى جيشه ليستكمل بهم الفتح فوافقوا وأسلموا على يديه".ابن خلدون: العبر، ج7، ص13 .أنظر: عبد العزيز الثعالبي : تاريخ شمال إفريقيا، جمع وتحقيق : أحمد بن ميلاد، محمد إدريس، تقديم ومراجعة : حمادي الساحلي، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1، 1978م، ص 78-79.

[4] – المالكي : رياض النفوس، ج1، ص 56. الدباغ : معالم الإيمان، ج1، ص 69.

[5] – محمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية بإفريقية، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م، ص 42.

الذي كانت أبرز سماته :

- الفتح الكامل لبلاد المغرب.
- ظهور الخوارج على مسرح المغرب العربي.
- ثورات البربر كنتيجة لسياسة الولاة.

وإذا كانت الفتوحات هي الانتقال الحاسم الذي حدا بالمنطقة إلى طريق الأسلمة، فإن فترة الولاة هي مرحلة بداية رسوخ الإسلام في بلاد المغرب[1]. وقد اقتضى استقلال المغرب بنفسه كولاية تقسيمها من الناحية الإدارية إلى كور وعمالات تعود في الأخير إلى العاصمة الأم –القيروان– وكانت مهمة حفظ الأمن أساس ومعتمد قائد المنطقة والطاغية على قوته ونشاطه، وإليه أيضا تعود مهمة مراقبة العمل الإداري والجبائي[2].

انقسمت إفريقية إلى ثلاثة أقاليم : القيروان – طرابلس – الزاب ؛ الذي كانت عاصمته طبنة، وكانت بسكرة – بحكم قرب المسافة – من بين المناطق التابعة لها[3]. فالمسافة حددها الجغرافيون بمرحلتين فقط[4]. وكانت المنطقة حسب اليعقوبي آخر ما وصل إليه ملك المسلمين في تلك الفترة[5]. وقد تميزت بسكرة وزيبانها بخاصيتين :

الأولى : أنها منطقة حدودية تتاخم الصحراء الكبرى، وبالتالي ستكون منطقة عسكرية محضة، لأنّها نقطة الفصل بين ما فُتح وما لم يفتح من الصحراء المغربية.

الثانية : وهي مكملة للأولى، أنّها أصلاً أقيمت على أنقاض حصون رومانية كانت مخصصة في الأساس لأهداف عسكرية محضة، فكتب التاريخ والدراسات الحديثة تؤكد أن بسكرة وتخومها من تهودة وبادس وبنطيوس وطولقة والقنطرة وغيرها عبارة عن تحصينات مثّلت في عهد الرومان آخر ما وصل إليه حكمهم مكوِّنة بذلك قطعة من خط الليمس[6].

---

[1] – هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي، ص 129. مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، بيروت : دار العصر الحديث، 1992م، ج1، ص 135. محمد عيسى الحريري: مقدمات البناء السياسي بالمغرب، الكويت : دار القلم، ط2، 1983م، ص48.

[2] – هشام جعيط : المرجع السابق، ص 183.ضيف الله محمد الأخضر :محاضرات في الحضارة العربية ، الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982م ، ص 115 .

[3] – حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته، ج1، ص 197-199-200.

[4] – ابن حوقل : صورة الأرض ، ص87.

[5] – اليعقوبي : البلدان، بيروت : دار الكتب العلمية، ط1، 2002م، ص 191.

[6] – تحدثت عن هذا مفصلاً في المدخل.

ليس في المصادر ما يخصُّ المنطقة بذكر خاصٍ أو بحدث معيِّن خلال الفترة الأولى من حكم الولاة، فقد سار الحكم فيها والأحداث مثل بقية إفريقية والمغرب. لكن الجدير بالتنويه أنّه إذا كان عصر الفتوح هو عصر الصراع بين العرب والبيزنطيين والبربر للسيطرة على المنطقة، فإن عصر الولاة هو عصر الصراع بين العناصر التي تكوّن منها المغرب بعد إتمام فتحه لتحديد مسار المغرب الإسلامي[1]. ومن الواضح أن سياسة الولاة في المغرب قد اتسمت بالاضطراب وعدم الثبات بين اللين وحسن السياسة حينا وبين القسوة والشدة والجور في غالب الأحيان. فكانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة فقدان المحكوم الثقة في حاكمه الذي وثق في كونه مخلِّصَه من جور الحكم البيزنطي، مقتنعًا أن الثورة هي السبيل الأمثل لحلِّ هذه الأزمة[2].

غير أن هناك عاملاً مهمًا جدًا ساهم في حدة وسرعة انتشار الثورة، ألا وهو عامل الخوارج الذين انبثُّوا في صفوف البربر مؤلبين على بني أميّة ومطالبين بالعدل والمساواة، متخذين من السيف وسيلة لتغيير الأوضاع[3]. كانت كل الظروف مهيأة لانطلاق الثورة التي بدأت شرارة اندلاعها في جبال

---

[1] – حسين مؤنس : المرجع السابق، ج1، ص 127.

[2] – تم تعيين محمد بن يزيد القرشي خلفًا لموسى بن نصير الذي استدعي إلى دمشق، ونفّذ كل ما وكِّل إليه من تتبع آل موسى بن نصير، فسار في البربر سيرة حسنة، خلفه إسماعيل بن أبي المهاجر في دعوة البربر بالإقناع، كما التزم تعليمات عمر بن عبد العزيز، ولكن الولاة الجدد عجزوا عن الائتلاف مع المسلمين الجدد من البربر بسبب التمييز باعتبارهم موالي ما جعل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج يتمادى في هذا المفهوم فجعلهم فيئا للمسلمين وخمسهم، ووسم على أيديهم كلمة "حرسي"، وبسبب فشل السياسة المالية بأن أعادوا ضريبة الجزية على من أسلم من أهل الذمة وأبقوا على ضريبة الخراج بدلاً من تعديلها إلى ضريبة العشر، وحرموا الموالي من العطاء الذي كان مقررًا لكل مسلم يلتحق بديوان الجند، إضافة إلى اشتطاطهم في جميع الأموال والسبايا والطرائف= =المغربيات والجلود العسلية، فضلاً عن النزاعات القبلية المثارة من حين إلى آخر، كل هذا وإن لم يكن محددًا بمنطقة معينة فإنّه يعني أن بسكرة كانت من بين المدن التي طالتها هذه السياسة. انظر : ابن خلدون : العبر، ج4، ص 240. الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب،ص 99. هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة : إحسان عباس وآخرون، بيروت : دار العلم للملايين، ط3، 1979م، ص 48. فيلالي : المظاهر الكبرى في عصر الولاة بالمغرب والأندلس. سوسة : دار المعارف،ص38-39 .

[3] – ما من شك في أن تجاوزات بني أمية جعلت في نفوس البربر الثائرة توقا إلى حكم إسلامي كامل ينطبق مع المبادئ التي تعلموها وعملوا بها بادئ الأمر، فقد استغل الخوارج ذلك فركزوا في دعوتهم على المبادئ التي تتجاوب مع آمالهم ومشاعرهم، ورفعوا تلك الشعارات التي تلهب حماسهم وتستقطب تأييدهم، وهي المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين، وأحقية كل مسلم في الوصول إلى السلطة، وأن منصب الخلافة ليس مقصورًا على قريش ولا على العرب، وإنما يتولاه أصلح المسلمين، كما أعلنوا الثورة على الظلم في جميع صوره وأشكاله. محمد محمد عبد القادر الخطيب : الحياة السياسية في المغرب الإسلامي وآثارها في نشأة الدويلات، القاهرة : ط1، 1989م، ص 74. يوسف أحمد حوالة : الحياة العلمية في إفريقية، مكة المكرمة : جامعة أم القرى، ط1، 2000م، ص 61. محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، تعريب: المنجي الصيادي ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، ص45. بحاز إبراهيم : الدولة الرستمية، الجزائر : تراثنا، 1993م، ص 60. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1985م، ص 32.

الريف في طنجة وما لبثت أن ضمَّت كل الفضاء المغربي بما في ذلك القيروان[1]. في هذه المرحلة بالذات كانت بسكرة التي تعتبر مدخلاً هامًا للسهل المؤدي إلى القيروان وشمال إفريقية، من المناطق التي أيَّدت بشدّة الأفكار الخارجية بشقيها الصفري والإباضي ؛ فالسخط وإرهاصات الثورة كانت مؤكدة بين السكان لعموم الأفكار الخارجية وعموم السخط الشعبي على الإدارة الأموية، وكذلك ما كان من الانتصار في معركة سبو من أثر في تأكيد نجاعة الأفكار الصفرية الثورية.

ولا مجال إلى الشك في أن الإباضية والصفرية قد دخلتا المنطقة في هذه الفترة، ونظرًا للظرفية الحرجة التي كان يعيشها السكان، وكذا عامل البعد عن القيروان، وحماسة المؤيدين الناشرين للمذهب كل هذا أدى في النهاية إلى تبني سكان بسكرة وقراها للمذهب الخارجي، لتستمر فيما بعد الإباضية لوحدها كمذهب لفئة كبيرة من سكان منطقة بسكرة.

من أجل السيطرة على إفريقية؛ كانت الوجهة التالية هي القيروان وما يؤدي إليها من مدن، وهذه المرّة تحت زعامة قائدين صفريين هما : عبد الواحد بن يزيد الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري[2]، فاتجه عكاشة بن أيوب الفزاري صوب مدينة قابس، وإثر هزيمته تراجع نحو الصحراء لإعادة تنظيم قوته، واستجماع جيشه مؤقتًا، وبما أن المنطقة كانت ممهدة ومهيأة لأفكاره فقد انسحب نحو مدينة تهودة، تحديدًا صوب منطقة "المكنسة" وذلك سنة 124هـ/741م، أين أعاد بالفعل تنظيم الصف، وتعبئة الجيش والانتظار أشهر[3].

ولكن لماذا اختار عكاشة بسكرة وتهودة تحديدًا كملجأ ؟ من المؤكد أنه وجد فيها نقاط ارتكاز تدعمه سواء من ناحية تأييد السكان له بعد أن اعتنقوا مذهبه واقتنعوا بأفكاره الثورية، أو ملاءمة المنطقة سياسيًا (الأمان) [4]، وهذا ما دعاه في الأخير إلى اللجوء إليها. وبعيدًا عن أي تأويل

---

[1] – كان أول من قاد الثورة هو ميسرة المطغري سنة 122هـ/739م، الذي حمل البربر على الخروج عن الطاعة واستولى على طنجة والمغرب الأقصى، وبايعه البربر بالخلافة، وازدادت الحركة ثورةً وانتشارًا حين تولى خالد بن حميد الزناتي قائدًا لها خلفا لميسرة الذي تم قتله، وانتهت بوقعه وادي سبو 123هـ/721م، وكانت الهزيمة ساحقة للأمويين حتى سميت معركة الأشراف لكثرة ما سقط فيها من كبراء العرب وأشرافهم. أُنظر مفصلاً : ابن خلدون : المصدر السابق، ج4، 241. الرقيق :المصدر السابق، ص 109-111. ابن عذارى: البيان، ج1، ص 52.

[2] –ابن عذاري:البيان ،ج1، ص 58.

[3] – محمد حسن : الجغرافيا التاريخية ، ص 40.

[4] – هذا إن دلّ على شيء فإنّه يؤكد ضعف سلطان الخلافة الأموية في بسكرة ونواحيها، وإن كانت هذه الفترة كما تؤكد المصادر فترة شعور سياسي عقب مقتل كلثوم بن عياض سنة 123هـ740م، وتسمية ووصول خلفه حنظلة بن صفوان واليًا على المغرب وذلك سنة 124هـ/741م، . انظر مفصلاً : النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 61-62. ابن عذارى : المصدر السابق، ج1، ص 58.

بخصوص تبنيِّ أغلب السكان للمذهب الخارجي ما دفعهم إلى إيواء زعيمه، فإنّه وانطلاقًا من هذا التاريخ فقد اصطبغت بسكرة ونواحيها بالخارجية الصفرية ثم الإباضية بعد ذلك، لنجد ذلك في النصوص الوصفية الجغرافية بعد عدة قرون[1].

زحف عكاشة الصفري في جمع عظيم من البربر، وكذا عبد الواحد بن يزيد الهواري نحو حنظلة بالقيروان، وكان مفترقهم الزاب حيث تم اللقاء وتنسيق خطة مشتركة بين جيشيهما ليكون منطلقًا باتجاهين مختلفين نحو نقطة مشتركة هي القيروان[2]. فهل كانت نقطة الإلتقاء هي تهودة كما سبق (كونها كانت منطقة تراجع وتجمع واستجماع قوى من قبل)، أم كانت بسكرة أو إحدى قراها ، لا نملك أي دليل على هذا سوى أن المنطقة التي تم منها الافتراق كانت من بين المناطق الهامة في الثورة الصفرية على الحكم الأموي بالمغرب.

انتهت المرحلة الأولى من الصراع بمعركتي القرن والأصنام، وكان الانتصار فيها للأمويين على يد حنظلة بن صفوان الكلبي مؤيدًا بالقوة العسكرية الآتية من المشرق والقوة المستوطنة في المغرب[3]. غير أن هذا الانتصار لم يدم طويلاً، صحيح أن المعركة الكبرى انتهت كانتفاضات صارخة، وتم صد الهجمات الصفرية عن القيروان العاصمة، لكن جيوب المقاومة الخارجية كانت لا تزال نشطة تدبر وتتحيّن الفرص، كما أن وضعية المغرب لا تتوقف عند علاقة السلطة بالقبائل الرافعة للواء المذهب الخارجي. ومهما يكن من أمر، فالملاحظ على الخريطة السياسية المغربية أن الخارجية طغت بشقيها الصفري – الإباضي على المغرب، وإن رُفضت في العاصمة وفي أغلب المدن والقرى، فإن من الأطراف ما تقبّل واستقبل الخوارج، فالإباضية هيئوا أنفسهم لفترة أكثر قوة وكوّنوا لأنفسهم تنظيمًا جيدًا وقاعدة متينة[4] بتكوين الدعاة في البصرة للتضلع في الفقه ولتهيئة ظروف ثورة شاملة لا مردَّ لها، فتمَّ القيام بنشاط دعوي سياسي واسع بين القبائل على أساس إعلان إمامة الظهور، وانتشرت أفكارهم في منطقة طرابلس – جبل نفوسة – قسطيلية – جربة – الزاب وأريغ[5]، وكانت بسكرة من بين المناطق التي أيَّدت بقوة هذا المذهب وساعدت على إيواء زعمائه، وما من شك أن الإباضية كان هدفهم إقامة دولة إباضية

---

[1] – البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 254. ابن حوقل : صورة الأرض، ص 93.

[2] – النويري : المصدر السابق، ج24، ص 62. ابن عذارى :المصدر السابق،ج1، ص 58.

[3] – وكان حنظلة قاتل كلاً على حدا، فقاتل عكاشة بالقرن فهزمه، ثم هزم عبد الواحد في الأصنام وكانت مقتلة عظيمة هزم فيها الخوارج. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 59.

[4] – هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي، ص 181.

[5] – انظر مفصلاً: السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير في العصر الإسلامي، الإسكندرية :مؤسسة شباب الجامعة،ص 339. موسى لقبال: المغرب الإسلامي، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط3، ص 164 .

عاصمتها القيروان[1].

في هذه المرحلة بالذات أصبح الزاب يثبت أنّه العمود الفقري للمقاومة البربرية الخارجية كما كان من قبل ومن عهد بعيد، إذ الزاب هو نوميديا ذات الحركية التاريخية التي لا تداني على أرض المغرب، أمّا الآن فقد اتجهت الجيوش العربية إلى الزاب ، ليكون مركز جذب القوات، وشيئًا فشيئًا مركز استيطانها وتواجدها، وبالتالي بؤرة الإضطرابات العسكرية، إذ أكدت هذه المنطقة على دورها كأرض حدودية وكثغر كبير، وأراضي حدودية عبر التاريخ كانت مؤهلة لتكوين الممالك لأنّها تجمع بين كثافة القوة ودور الحماية للبلاد، وقسط من الاستقلالية[2]، ومن هنا ستخرج إمارة إبراهيم بن الأغلب، ففي نفس السنة التي هزم فيها الإباضية وقتل زعيمها ابن الخطاب[3]، عين ابن الأشعث على رأس إفريقية الأغلب بن سالم بن عقال التميمي على رأس الزاب الدرع الواقي لإفريقية [4].

أثبت الزاب إلى هذا الحين أنّه صار بؤرة توتر دائم بالنسبة للمنطقة، وأنّه نقطة جذب للخوارج والخارجين، ما أدى بالخلافة إلى الاهتمام بها تحديدًا، وربما فيما بعد البعث على تمركز واستيطان الجنود والقوات العربية بطبنة[5]، وليس هذا سوى دلالة كبيرة على فهم وتقدير الخلافة لخطورة هذه المنطقة من المغرب. إذ بناء مدينة في قلب الزاب من قبل الوالي، وتوطين العنصر العربي بها ليس سوى زرع لدرع واقٍ من الجيش العباسي السني في وسط خارجي ثائر. غير أن الوالي حوصر بطبنة من قبل الإباضية المجتمعة عليه من كامل أطراف المغرب، ولم يكن سوى في خمسة عشر ألفًا وخمسمائة، وكان أمراء المغرب في ذلك الوقت ورؤساؤهم في جيوش عظيمة، واختار ابن حفص الحيلة عن الحرب، فافترقت عنه الجيوش بمالٍ وكسوة كثيرة دفعها إلى أحد القادة الثائرين[6].

المهم في الأمر أن عبد الرحمن بن رستم اعتصم بتهودا من بلاد بسكرة والتي لا تبعد كثيراً عن

---

[1] – دفع تطاول الصفرية على عرب القيروان، وما تعرضوا له من ظلم وقتل بالإباضية إلى التدخل غضباً لله ولدينه ممثلين في زناتة وهوّارة ومن اتبعهم من الإباضية بقيادة أبو الخطاب المعافري، مخلّصين كل ما مرّوا عليه في طريقهم من بلاد وصولاً إلى القيروان التي أضحت بعد عدة معارك تحت حكم الإباضية. أُنظر مفصلاً : ابن خلدون : العبر، ج4، ص 244-245. الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب، ص 141. ابن عذارى : المصدر السابق، ج1، ص 70.

[2] – هشام جعيط : المرجع السابق، ص 183-184.

[3] – أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، الجزائر : المكتبة الوطنية، 1979م، ص 46.

[4] – ابن الأبار : الحلة السيراء، تحقيق : حسين مؤنس، القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1963م، ج1، ص 68-69. هشام جعيط :تأسيس الغرب الإسلامي، ص 184 .

[5] – البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 228.

[6] – ابن خلدون : العبر، ج4، ص 246. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 76.

طبنة، واتخذها معقلاً تحصن به مع خمسة عشر ألف فارس، فأرسل إليه ابن حفص عسكرًا فهزمه، وقتل من أصحابه نحو ثلاثة آلاف[1]. ما اضطره إلى الفرار نهائيا نحو تيهرت ليقيم دولته هناك[2].

وفي هذه المرحلة أيضا أثبتت بسكرة أنّها ومرّة أخرى قادرة على احتضان الخوارج –وهذه المرة الإباضية– بما تحتويه من قاعدة شعبية إباضية مصممة علي نصرة زعمائها حين يلزم الأمر. ومن الجدير ذكره أننا لا نجد ذكرًا لبسكرة أصلاً كمدينة، بل إننا في النادر نجد تأريخًا لحدثٍ مارٍ عرضًا، وإننا لا نستطيع سوى التعميم أو الإسقاطات الخاصة بطبنة، ومن المهم ذكره أيضا أن الجند في هذه الفترة مثل دورًا هامًا في تفعيل الأحداث، فلم نعُد نسمع شيئًا عن ثورات الخوارج، إذ اكتفى كلٌ بالملك الذي انتزعه والأرض التي ملكها. كما أننا نجد أيضا تأريخًا لولاة الزاب، وإن لم تخصّهم المصادر باهتمام معيّن، أو تهتم بترتيبهم أو اقتفاء آثارهم، فإننا نجد ذكر العديد منهم في طيات الأحداث[3]، إذ كلٌ من حكم الزاب تولى أخيراً حكم القيروان أو كانت له المشاركة الفاعلة في الأحداث الخاصة بها كعاصمة للولاية. ومن المهم أن نذكر وصية هرون الرشيد لروح بن حاتم والتي لا تخلو من دلالات هامة، وقد أورد ابن الأبار نصّها " ... وعليك بالزاب فاملأه خيلا ورجلاً[4] "، وما هذه إلاّ دلالة على تقدير الخليفة العباسي لقيمة الزاب كمنطقة ارتكاز لمن يحكم السيطرة على إفريقية، وفهم الرشيد ما تمتلكه من تركيبه سكانية قادرة بشقيها –السني والإباضي– أن تمنح الدعم لمن في يده السلطة وله الغلبة.

لا توجد بأيدينا أية نصوص صريحة عن الوضع القائم بالزاب، وببسكرة ونواحيها تحديدًا في ذلك الوقت ؛ ثورات الجند مثلاً أو انتفاضات الخوارج، ولا حتى فيما يتعلق بالسكان أنفسهم، غير أن الترجيح هنا والحالة حرجة مضطربة في كل إفريقية أن تطال هذه الفوضى الزاب أيضا بجميع مُدنه، وإن لم تكن بالضرورة بنفس الحدّة. والنتيجة هنا أن هته المنطقة كانت على أهمية بالغة شأنها شأن تونس والقيروان وغيرها، ليس بالنسبة للوالي فحسب، بل على مستوى أعلى وأبعد فقد شغلت اهتمام الخلافة ذاتها، وارتفعت بصاحبها من نائب للوالي بالقيروان إلى والٍ يرجع إلى الخليفة ببغداد.

---

[1] –نفسه ، ج1، ص 76.

[2] – سليمان باشا الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية ،تحقيق :أحمد كروم و عمر بابا زين ومصطفى ادريسيو، الجزائر : دار البعث، 2002م، ص 51. ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق : محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م، ص 28. الطمار : تلمسان ،الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984م ،ص 20 .

[3] – فقد ولّى داوود بن يزيد بن حاتم أخاه المهلّب بن يزيد على الزاب، وولى روح بن حاتم بعده ابنه الفضل بن روح على الولاية ذاتها، والذي لم يتحوّل عنها إلاّ بوفاة أبيه، وولى أثناء ولايته العلاء بن سعيد على الزاب. انظر مفصلاً : ابن الأبار : الحلة السيراء، ص 72-76-77-87-95-104-358. النويري : النهاية، ج24، ص 90.

[4] – ابن الأثير : الكامل، ج5، ص 192. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 182.

عندما اعتلى إبراهيم بن الأغلب حكم إفريقية سنة 184هـ/800م[1]، معلنًا عن تأسيس ما عرف بالإمارة الأغلبية ؛ لم يكن ليتنازل عن الزاب التي طال مراسه بها، واستحكمت معرفته بأهلها وسكانها، وأحكم قبضته عليها على مدى سنين والتي تحوَّل عنها بعدما أتاه كتاب هرون الرشيد يوليه إفريقية[2]. والواقع أن مدينة بسكرة في هذه الآونة لم تكن محددة الذكر في مصادرنا، فكل التفاصيل إن وجدت تحدثت عن إقليم الزاب بما يشتمل عليه من مدن بما فيها بسكرة وتخومها. وحتى الزاب عرف في هذه الفترة هدوءًا خاصًا، ربما لحسن سياسة ولاّتها ولطول خبرة ومراس ابن الأغلب بأرضها وبشعبها، حتى أننا لا نعلم من ولاته عليها أي أحد، ولا من قضاته ولا حتى جبايته أو سياسته، وليس لدينا إلاّ قول ابن عذارى "فطاعت له –ابن الأغلب– قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه، واستقامت الأحوال"[3]، وحتى في قلب الثورات[4] لم نجد أي أثر لامتداد الثورة إلى بسكرة أو مشاركة أهل المنطقة فيها.

والواقع أن عهد الأغالبة كان مليئا بالثورات خاصة ثورات الجند التي ما انفكّت تندلع هنا وهناك، مع الفارق في الحدّة والتنظيم والأمكنة، والحقيقة أن الحكام الأوائل كانوا من المقدرة والحزم بحيث استطاعوا إخماد هذه الثورات، لكن الثورة الأعنف كانت ثورة منصور الطنبذي التي قامت في عهد زيادة الله الأول (201–223هـ/817–938م)، والتي ابتدأت من قصر الثائر في المحمدية لكنها انتهت وقد ملك الثوار من الجند أغلب إفريقية[5]، وبما أن طنبذة كانت تحكم الطريق الرئيسي المؤدي إلى إقليم الزاب[6] فما من سبيل إلى الشك أن الثورة قد وصلت إلى الإقليم، وأن الثوار قد وضعوا أيديهم على جميع المنطقة، وابن خلدون يؤكد أنّه لم يبق على طاعة زيادة الله من إفريقية إلاّ تونس والساحل

---

[1] – ابن الأبار : المصدر السابق، ج2، ص 135.

–المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : سعيد محمد اللحام، بيروت : دار الفكر، ط1، 2000م، ج4، ص 290.

[2] – يقول ابن الأبار: "وطلب أهل إفريقية من إبراهيم بن الأغلب أن يكتب إلى الرشيد في الولاية عليهم، فكتب إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر إلى إفريقية لإعانة الولاة بها، وعلى أن يحمل هو من إفريقية إلى الولاة أربعين ألفا، فأشار هرثمة بن أعين بولايته، فكتب يوليه عهد إفريقية، منتصف 184هـ/800 م. ابن الأبار: =الحلة السيراء: ج2، ص 135. ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ، تحقيق : لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، 1976م، ج1، ص 129.

[3] – ابن عذارى : البيان، ج1، ص 92.

[4] – قامت في عهده العديد من الثورات الفعلية مثل: ثورة خريش 186هـ/802م، اضطرابات طرابلس 189هـ/805م، ثورة عمران بن مجالد 194هـ/810م، وفتنة أهل طرابلس 196هـ/811–812م، أُنظر مفصلاً : الطالبي: الدولة الأغلبية، ص153 فما بعدها.

[5] – أنظر التفاصيل : ابن عذارى :المصدر السابق ، ج1، ص 99، وما بعدها. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص298.

[6] – حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته: ج1، ص 269.

وطرابلس ونفزاوة[1]. والحقيقة أن المشكلة التي تعترضنا هي سكوت المصادر عن التفاصيل عند ذكرها لبعض الأحداث، فهل يمكننا في هذه الحالة تعميم لفظ الزاب ليشمل بسكرة ونواحيها ؟ أم أنّه اقتصر على طبنة وما إليها، فبمجرد استلام سفيان بن سوادة القيادة بدأت الانتصارات الواحدة تلو الأخرى، وتمكن زيادة الله من استرجاع الزاب[2] سنة 210هـ/825-826م[3] ليتم له أخيراً استعادة كل أرض إفريقية. على أنّه –والتفاصيل منعدمة لدينا– من الواجب القول أن أهل بسكرة والزاب عمومًا إن صحّ إتباعهم لثورة منصور الطنبذي، فإن ذلك كان نتيجة لأسباب عدة كبتت على مرِّ سنوات، ليتم انفجار الوضع مع سريان الثورة في إفريقية، ومع وجود قائد كان أقدر على تهديد النظام.

منطقة بسكرة والزاب دخلت مجدداً دائرة السواد، ربما لاهتمام المؤرخين بما كان من اضطرابات وثورات في الجزء الشمالي من إفريقية وغيرها، أو لبعدها من مصدر الأحداث، فلا نجدها في معرض الأحداث إلاّ في زمن أبي الغرانيق محمد الثاني (250-261هـ/864-875م) الذي عرف من أهل بسكرة والزاب عموما الثورة والفتنة بسبب السخط وتوالي الأحقاد، فابن خلدون يصف أيامه بأنّها "حملت الحروب والفتن"[4]. أما النويري فيقول أنّه "كان في أيامه حروب منها اضطرابات ثغر الزاب[5]"، من غير توضيح لأسباب الهيجان الذي اضطربت له المنطقة، ولا لأي من أسبابه من قريب أو بعيد، ربما كانت ثورة للجند، لكن قيادات الجند لم تكن مستوطنة ببسكرة أوتهودة التي شملتها عملية "التطهير". المهم أن عبارة "ففتح فتوحات عظيمة"[6]. تدل على انشقاق كما تدل على خروج كلي عن الطاعة. غير أنّه يمكن قياس ما حدث في الزاب بما حدث في طرابلس سنة 245هـ/859م، لأنّه ناتج عن رفض الأهالي أول الأمر الوفاء بما عليهم من جباية لبيت المال، ومن المعلوم أن استخلاص الجباية يتطلب في الغالب مساعدة الجيش خاصة في وضع الزاب نظراً لصعوبة هياكلها الطبيعية والاجتماعية[7].

جيش الزاب الذي هيّأه طبعه لتحمُّل أزمات الغليان ؛ استولى عليه الاضطراب بشدة، فوجه إليه محمد الثاني أحد كبار قادته لإعادة الوضع إلى نصابه، ولم يذكر أي تاريخ في هذا الشأن، ولا علم لنا

---

[1] – ابن خلدون : العبر، ج4، ص 253.
[2] – نفسه، ج4، ص 253.
[3] – الطالبي: المصدر السابق، ص 222.
[4] – ابن خلدون : العبر، ج4، ص 257.
[5] – النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 126.
[6] – نفسه، ج24، ص 126.
[7] – الطالبي :الدولة الأغلبية، ص 294.

بالطريق التي سلكها بالضبط. المهم أن القائد أبا خفاجة التحق بتهودة عبر الوادي الأبيض الذي يشكل منفذًا طبيعيًا نحو الصحراء، وتمكن في الأخير من إتمام حملته التأديبية بعد أن نفذ إلى تهودة ثم التقدم نحو بسكرة، ومن هناك التحق بطبنة عاصمة الزاب، بعد أن أعطاه أهل تلك النواحي أزِمّة أمورهم[1]، يجبي ما يشاء من أموال ويستخلص ما يشاء من أملاك، وأكمل أبو خفاجة مهمته وكذا طريقة الذي انتهى به إلى غيرها من المدن، وما بذلته من رهائن وخراج وعشور وصدقات[2].

من المرجّح أن هذه هي أول مرّة يذكر فيها اسم بسكرة محددة بجغرافيتها المعروفة، وقبل هذا لم يرد اسمها في المصادر الحولية العربية، وسوف نجد حديثا آخر عن أهل الزاب، وإن لم يتحدد هذه المرة بالضبط تواجدهم، وذلك في عهد خلفه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد (261-275هـ/874-888م)، الذي ابتدأ حكمه بداية موفقه نال فيها رضى جميع الأطراف، غير أنّه تحوّل فجأة إلى سفاك دماء[3] ما أثار عليه حفيظة العامة ونفوسهم، وخاصة ما أثقل به كاهل المحكومين من الأهالي، والذي كان من أسبابه القحط العام والجفاف الذي أصاب إفريقية سنة 266هـ/879م، ما تسبب في غلاء مفرط بها، وازدادت الأزمة حدة وامتدادًا إلى سنة 268هـ/881م، حيث بلغت الأسعار مبلغًا مهولاً، فهلك الناس حتى أكل بعضهم بعضًا[4].

ظهر الاضطراب أول ظهوره بالزاب ثم زحف إلى شمال إفريقية وكان ذلك سنة 268هـ/881م،والظاهر من الرواية أن هذه الاضطرابات كانت بسبب اقتصادي، والأحداث تثبت عصيان وزداجة ومنعها للصدقات،وكذا هوَّارة التي "عاثت في البلاد وقطعت السبل "بسبب الفقر والمجاعة ، وكذا ما كان من خروج لوّاته عليه[5].فلا نستغرب هنا أن سكان الزاب الجنوبي بما فيه بسكرة وما جاورها قد ثاروا في وجه حكمه،وإن كان هذا لا يثبته أيٌّ من المصادر،إلاّ أن للجباية والإشتطاط في جمعها أثرهما في هيجان العامة خاصة أثناء سنوات القحط،وما يرجّح احتمال إيقاعه بأهل بلزمة بعد سنتين من هذه الحادثة.والظاهر أن الحادثتين منفصلتان فعلاً فطريقة القتل التي وقعت بأهل الزاب الذين قدم وجوههم على إبراهيم بن أحمد راجين مودّته قد قوبلوا بالترحيب وأحسن إليهم،ووصلهم وكساهم

---

[1] – النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 126. الطالبي: الدولة الأغلبية ، ص 285-287.

[2] – النويري : نفسه، ج24، ص 126.

[3] – ويرجع ابن خلدون ذلك إلى ماليخوليا أصابته آخر عمره. انظر : ابن خلدون : العبر، ج4، ص 260. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 119.

[4] – نفسه: ج1 ،ص 118.

[5] – الطالبي : المرجع السابق، ص 322.

وحملهم، ثم قتل أكثرهم حتى الأطفال وحملهم على العجلة إلى حفرة فألقاهم فيها[1]. ولا شك أن هذا الغدر قد أثار العامة فوق ما كانت عليه من غضب وحنق على سياسته المضطربة، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن هذه الحادثة قادت إلى وقيعة بلزمة التي حدثت فيما بعد. لكن الحادثتين قد قادتا فعلاً بإبراهيم بل بكامل دولته إلى "انقطاع دولة بني الأغلب". فلا يخفى على أحد ما كان لجند الزاب من حساسية في الدولة، لذا فقد اتجه الشعب المضطهد بنظره الى أبعد من ذلك،بعد أن وجد السبيل إلى القيام مع الشيعي.

كما عرفت السنوات الأخيرة من حكمه أيضا ثورات وفتنًا كثيرة في المنطقة، ففي سنة 286هـ/899م، عرفت بسكرة ثورة أخرى على ابن الأغلب، كان بطلها هذه المرة بنو بلطيط من سكانها. ونحن نجهل الأسباب الحقيقية وراء هذا الالتياث –حسب تعبير ابن عذارى– وما من شك أنّه ومرة أخرى متعلق بأسباب جبائية مالية. المهم أنّه أرسل إليهم في السنة نفسها جيشه ليطرق جموعهم، ويُكثر القتل فيهم جدًا، وبهذا أصلح إبراهيم مرة أخرى "ما كان التاث هناك"[2]. كما أتبع هذه الحملة جيشا كبيرا إلى الزاب[3]، ونجهل مرة أخرى أسباب هذه الحملة التي كانت محَطَّ اهتمام بالغ منه، فوجّه إليها ابنه الأمير، لتتوَّج مرة أخرى بالانتصار.

غير أنّه في هذه الأثناء حدث التحوُّل الخطير في بلاد المغرب، لـمّا استقام أمر أبي عبد الله الداعي بكتامة، ما حدا بالأمير الأغلبي إلى اختيار طريق الإصلاحات لإرضاء العامة واستمالة قلوبهم، بإسقاط القبالات والمظالم، وسار على هذا النهج من خلفه.

كان من الأسباب المساعدة على نجاح الدعوة الشيعية[4]، ونشوء الدولة الفاطمية هشاشة الحكم الأغلبي الذي مثله الحكّام الأخيرون، فلم تعد للمصداقية مكان في نفوس السكان بكل شرائحهم بما فيهم سكان المنطقة المدروسة ؛فمن الواضح أنّ لجورهم واعتسافهم في جمع الضرائب دون

[1] – يحدد ابن عذارى تاريخها بسنة 280هـ/893م، ويحدد تاريخ الفتك بأهل الزاب سنة 268هـ/881م، غير أن النويري يغضي عن ذكر الثانية ويحدد تاريخ الأولى بـ 268هـ/881م. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 119-123. النويري: النهاية، ج24، ص 131. الطالبي : الدولة الأغلبية، ص 323-324.

[2] – ابن عذارى : نفسه، ج1، ص 131.

[3] – نفسه، ج1،ص 131.

[4] – انظر عن الحكم الشيعي : علي حسني الخربوطلي : الإسلام والخلافة، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر، 1969م، ص 169. عبد الله مة: فلاسفة الشيعة حياتهم و آراؤهم، بيروت:منشورات دار مكتبة الحياة،ص 39 .

طائل،وسيرتهم بالرعية، وتحصنهم في مدن مغلقة ما غيّر الرعية عليهم[1]. بل إن المنطقة التي اختارها الداعي الشيعي لاحتضان الدعوة، وكان منها الانطلاق لم تكن لها صلة بالأغالبة سوى الدعاء لهم على المنابر[2]، وما من شك في أن هذا الانفصال، كان له الدور الفاعل في نجاح الدعوة[3]. ومن المعلوم أن بسكرة كانت منطقة حيادية طرفية، وإن كانت لها خصوصيتها، إلاّ أن بُعدها عن العاصمة رقادة وحصانتها الطبيعية، وبعد سكانها إيديولوجيا عن الحكم المركزي، كل هذا أدّى في نهاية المطاف إلى استقطاب حلم الدولة الجديدة المخلّصة للقوى الاجتماعية، بعد تفاني كبار القبائل في الدفاع عن الحركة الوليدة، ما أدّى في النهاية وفي فترة قياسية إلى مدِّ الداعي نفوذه والتوسع إلى أبعد ممّا يتصوّر، بعد أن امتلك من القوة الشعبية مالا يُستهان بقدرته على فتح كامل بلاد المغرب فيما بعد.

وفعلا فبعد امتلاكه لقوة عسكرية ضخمة بادر بالهجوم على بعض المدن القريبة من مركز إقامته، وعلى الرغم من تهديد الأغالبة[4]له ؛ فقد ابتدأ بالهجوم على مراكز الزاب القريبة منه. كان اهتمام الأغالبة بالزاب كبيراً وواضحًا، وخاصة طبنة وما والاها، وكان تركيز الأمير الأغلبي عليها شديدًا، وذلك كونها مفتاح دار ملكه ؛ لذا فقد أكثر من تركيز الجند في المنطقة، وكان اهتمامه بالناحيتين الإدارية والعسكرية كبيراً جدًا في طبنة عاصمة الزاب. فقد اختار لتسيير شؤونها أخص رجاله، ومنهم حاجبه أبو المقارع حسن بن أحمد بن نافذ، وأكفأ قادته في الميدان العسكري منهم خفاجة العبسي، وشبيب بن أبي شداد القمودي[5]، وانبنت خطته على أساس أن يقوم هؤلاء بتركيز الغارات على منطقة كتامة وتشديد الضغط على سكانها حتى تضعف مقاومتهم، وينهار اقتصادهم

---

[1] - انظر : محمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية، ص 172. حسين مؤنس : تاريخ المغرب، ج1، ص 449.

[2] - القاضي النعمان بن محمد : رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق : وداد القاضي، بيروت : دار الثقافة، ط1، 1980م، ص 64.

[3] - لقد أغرى الرجل بما يملك من دهاء رؤساء القبائل، وتمكن في فترة قياسية من إقناعهم باعتناق المذهب الشيعي، وعلى الرغم من المحاولات العديدة من طرف البعض للخروج عليه، والتخلص منه، إلاّ أنّه وباللجوء إلى الحيلة حينًا والعنف والحرب أحيانًا استطاع ضم عدد كبير من بطون القبائل إلى صفّة، ولم يتوجّه الداعي في البداية إلى المناطق الغربية من دار دعوته خوفا من فتح عدة جبهات في وقت واحد، إذ لا طاقة له بفتح المدن ودعوة القبائل إلى مذهبه وإخضاعها، ومحاربة بني الأغلب، وإزاحتهم عن طريقه، فضلاً عن أن زناتة في المغرب الأوسط قوة لا يستهان بها. أُنظر بالتفصيل : ابن خلدون : العبر: ج4، ص 43-45. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 136. القاضي النعمان : نفسه، ص 117. موسى لقبال : دو كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، ص 245 فما بعد. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ، ص 510. حسين مؤنس: تاريخ المغرب، ج1، ص 467. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1993م، ص 33.

[4] - القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 80.

[5] - نفسه: ص 160-161.

وحينئذ قد يتخلون عن الداعي[1].

كانت طبنة عاصمة الزاب من أكثر المدن شدًا لاهتمام الداعي ورجاله كونها مركزًا للإقليم، ومن كُبريات مُدنه وحواضره، وفيها حامية أغلبية قادرة على صد الهجمات وحتى تعطيل عملية السيطرة، والأهم أن بها واليًا أغلبيًا، وموقعها في منتصف الطريق يضفي ميزة طيبة لكل من يريد الإنطلاق نحو بلزمة أو باغاية أو تيجس أو المسيلة وبسكرة[2]. لذا فقد وجّه الداعي قوّته لفتح طبنة العاصمة وما وّليت عليه من مدن، وقد كان وجه إليها قبل ذلك عساكره، فلما رأى أهلها شدة عدّوهم تحصّنوا بأسوار مدينتهم[3]. وبما أن الحصار دام طويلاً، فقد اعتمد الداعي على إسقاط السور بدبابة ففتحت قسرًا مع مقاومة شديدة[4]، رغم المقاومات التي بقيت في أنحائها. وعلى الرغم من محاولة الأمير الأغلبي نجدتها إلاّ أن هذا باء بالفشل[5]. واستعمل الداعي عليها يحي بن سليمان واليًا وانصرف عنها إلى فتح بقية بلاد الزاب[6].

غير أننا نجد صعوبة في تحديد السنة التي فتحت فيها بسكرة وقراها، بما أننا لم نجد أية إشارات صريحة وواضحة عن فتحها في هذه الحملة، أو مدى شموليتها للمناطق الجنوبية لمدينة طبنة وما حولها، لأن المصادر تذكر بعدها مباشرة بلزمة ثم باغاية، فالواضح أنّه أتم فتح بسكرة وقراها أو على الأقل أرسل إليها بعضًا من الجيش خلال هذه الفترة ؛ نظرًا للقرب الشديد بين المنطقتين، أو على الأقل ترك هذه المهمة لواليه على طبنة، والذي كان من بين أولوياته فتح ما قُرب إليه من المدن، وما يقوله مؤنس خلال حديثه عن فتح طبنة "فأكمل أبو المقارع عبد الله الاستيلاء على إقليم الزاب، ثم أوغل في إفريقية يستولي على بلادها واحدة بعد واحدة"[7]. لدليل على هذا، إذ لا يرد ذكُر المنطقة بعد ذلك إلاّ وهي تابعة للخلافة الفاطمية.

---

[1] - موسى لقبال : دور كتامة ، ص 271.

[2]- نفسه، ص 281.

- عادلة علي الحمد : قيام الدولة الفاطمية، الإسكندرية : دار ومطابع المستقبل، 1980م، ص 157 وما بعدها.

[3] - الداعي القرشي : عيون الأخبار، تحقيق : محمد اليعلاوي، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1، 1988م، ص 118.
القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، ص 80.

[4] - نفسه، ص 80.

[5] - موسى لقبال: المرجع السابق، ص 281.

[6] - ثم تيفاش وتبسة وبلاد قسطيلية، وقفصه ونفطه، ثم عاد مباشرة إلى باغاية. الداعي القرشي : المصدر السابق، ص 123 وما بعدها. ابن خلدون : العبر، ج4، ص 45.

[7] - حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 468.

من البديهي القول أن جهود الداعي كانت كلها موجهة منذ البداية إلى تأسيس الدولة وتمهيد الطريق لحكم صاحب الأمر عبيد الله المهدي، الذي قدم من سلمية، وكانت الوجهة مكان الداعي، إلاّ أن خوف المهدي من انكشاف أمره في المغرب جعله يغيّر طريقة باتجاه سجلماسة[1]. ابن حوقل الذي مرّ بالمنطقة خلال هذه الفترة تقريبا يصف الطريق الرابط بين سجلماسة وطرابلس، وهو نفسه الطريق التجاري الرابط بين المشرق والسودان عن طريق الواحات الصحراوية المغربية[2]. ويؤكد البعض أن هذا كان طريق مرور عبيد الله المهدي، إذ يعتبر طريق مرور المعارضين السياسيين، ومن المؤكد أن الداعي سلكه أيضا أثناء توجهه إلى بلاد كتامة[3]، وسلكه أيضا حين ذهب لتحرير وليّه عبيد الله ؛ فالقاضي النعمان يذكر أنّه مرّ بطبنة وأنّه مرّ على تيهرت قبل دخوله سجلماسة[4]. وإن كان هذا الطريق يمر ببسكرة أصلاً إلاّ أنه لا يمكننا الجزم بدخوله إليها، وإن كانت تقع على هذا الطريق الرابط بين طبنة وتيهرت إلى سجلماسة، ومهما كان من أمر فإنّه تمكن من تخليص وليّه وتسليمه زمام الأمور، ثم قفلوا راجعين إلى رقادة مارّين بإيكجان، وفيها أقرّ المهدي يحي بن سليمان على حكم الزاب، وكان دخوله رقادة سنة 297هـ/909م[5].

وهكذا صارت المدينة وما تبعها من ضمن ما انضمّ إلى ملك الفاطميين من المغرب، ومن المؤكد أن سياسة القسوة التي اتبعها الأمراء الأخيرون من بني الأغلب خاصة إبراهيم بن أحمد كانت عاملاً على نجاح الداعي في نشره لدعوته ونفوذه السياسي في هذه البلاد. والجدير بالتنويه أن عبيد الله وضع على الزاب ولاة تمثلت مهامهم في ردع أي حركات خروج أو معارضة داخل المدن القريبة، وفي الوقت ذاته بعث الدعاة والبعوث والسرايا عن أجل حماية الدولة والحفاظ على سلامة ونظام واستتباب الأمن فيها.

بعد القضاء على كل الكيانات السياسية التي كانت قائمة بأرض المغرب، وسواء كان حلول

---

[1] - ابن الأثير : الكامل، ج6، ص 453-454.

[2] - ابن حوقل : صورة الأرض، ص 93.

[3] - مرمول :السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م، ص 64.

[4] - مما يؤكد مرور عبيد الله ببسكرة أنّه انتحل صفة تاجر،وهذا الطريق تجاري بالدرجة الأولى وأيضا كونه طريق صحراوي مجانب لأماكن تمركز القوة الأغلبية،وبالتالي تجنب أي خطر أغلبي محتمل،غير أن المهدي انكشف آخر الأمر في سجلماسة،وانتهى به المطاف في سجن بني مدرار، ومكث به إلى حين قصده أبو عبد الله في رمضان 296هـ/908م. انظر مفصّلاً : القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، ص 149 فما بعدها. محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين، بيروت : دار النفائس، ط1، ص 74 فما بعدها.

[5] - الداعي القرشي : عيون الأخبار، ص 262.

الفاطميين عن تقبل أم اضطرار، فمنذ ذلك التاريخ تمكنت الجماعة الإسماعيلية من السيطرة على بلاد المغرب. ولا يمكننا في هذا المقام الجزم بترحيب أهل المنطقة بالحكم الشيعي كما حصل مع الكتاميين، ولكن أوضاع البلاد بما فيها بسكرة في السنوات الأخيرة من الحكم الأغلبي جعلت الشعب يتمنّى مخلّصًا، وحدا الأمل بالرعية للطموح إلى أوضاع أهدأ و أرخى وأحسن في ظل الحاكم الجديد الذي مّناهم بالعدل والرخاء المفقود منذ عهود ، لكن آمال أهل المغرب تحطمت على صخرة الواقع الذي ابتدأ به عبيد الله المهدي أيامه ؛ فالجور السياسي والجبائي الاقتصادي، وضرب الناس والقبائل بعضهم ببعض، بما يخدم وفقط مصالح الجهاز الحاكم، ما جعله يقابل منذ الأيام الأولى من حكمه بالثورات والانتفاضات والرفض، وكان دستوره واضحًا منذ البداية في توقيع أمر بقراءاته على المنابر جاء فيه "فكلّ من قدحَ بزنده واحتطب في حبله محكوم عليه بالنصر، ومقضيٌّ له بالظفر، وكل من نكث عليه وخان أمانته ونقض عهده وخفر في ذمته فقد باء بغضب من الله في الخلاف عليه وإطلاق الفتنة من عقالها، وكل من أوقد عليه الحرب أحرقته بنارها، وكل من تمسّك بطاعته فقد استمسك بالعروة الوثقى"[1].

لقد كان عهد الفاطميين بالمغرب مليئا بالمكائد والمؤامرات، كما كان مشحونًا بالثورات الداخلية في مناطق مختلفة، والتي توحي دلالاتها على كره القائمين بالثورات للحكم الجائر ومدى نفورهم من الحكم الإسماعيلي ومقتهم له[2].

كانت أولى الثورات وأخطرها في منطقة كتامة وقد شملت كل الزاب، فقد أظهروا الخلاف على عبيد الله -كتامة- وقدّموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطي، واسمه كادو بن معارك، وجعلوه قبلة يصلُّون إليها، وزعموا أنّه المهدي المنتظر وكتبوا كتابًا فيه شريعة زعموا أنها أنزلت عليه[3].

لقد رفض أهل الزاب الحكم الشيعي بكل قوة، بل لم يكتفوا بالرفض الفعلي، إنما تعدّاه إلى الرفض الاعتقادي المذهبي، بأن أوجدوا لأنفسهم بديلاً عن هذه الدعوة الجديدة الوليدة، ولكن أليس في هذا البديل ذاته اعتراف ضمني باعتقادهم بالشيعة ؟ فهُم تأثروا فعلاً بعقيدة المهدي، فأوجدوه بينهم، وربما كان هذا فقط لاستقطاب القبائل إلى دعوتهم لخلق قوة بديلة يمكنها ضم ما أمكن من قوة

---

[1] - القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة، ص 252.

[2] - وبالرغم من تعدد هذه الثورات واختلاف أهدافها، فإنّه يمكن القول بأنها في مجموعها ثورات شعبية قامت كردّ فعل للوقوف في وجه الحكم الفاطمي الفردي، الذي استند على القوة وحدّ السيف بالدرجة الأولى، وفرض مذهب معيّن بواسطة الإكراه. وقد اختلف من عهد خليفة وآخر من حيث القوة والضعف، ومن حيث الوسائل التي استعملت لإخمادها، والقضاء عليها، ومن حيث نتائجها. مرمول : السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، ص 76 .

[3] - ابن عذارى : البيان ،ج 1 ،ص 166 .

شعبية قد تتمكن من صدّ الشيعة العبيدية.

ويبدو أن فشل الجهود الأولية لصدّ الحركة كان بسبب تفلُّت أهواء قادة كتامة وتعاطفهم مع الحركة، وفرار بعضهم إلى مراكزها وانقلابهم ضد أعوان الدولة[1]، وهو ما جعل المهدي ينتدب لمواجهة الحركة بنطاس بن حسن الملوسي على رأس جيش كبير وجماعة من رؤساء كتامة من هم على عهده، فاصطدم بالثائرين، لكنه انهزم أمامهم، مما دفع بعبيد الله لإرسال ابنه القائم إلى قتالهم فاستولى على كل المدن التي في طريقه، وانتهى به الأمر إلى القبض على الماوطنتي، وكان ذلك سنة 299هـ/911م[2].

عجز الفاطميين عن تكوين قاعدة شعبية قوية تستطيع تبنّي أفكارهم ودعم مشاريعهم هو الذي جعل الشعب يفكّر في التخلص منهم، وكان لزناتة حظ وافر في هذا ممثلةً في البداية بقائدها محمد بن خزر الزناتي، الذي تعتبر ثورته من بين أكثر ما شغل اهتمام الفاطميين لسنوات بل لعقود من الزمن، بحيث شملت المجال الغربي من المغرب مع بعض الزاب، وكانت تيهرت مسرحًا رئيسًا لهذه الأحداث[3]. وتمثل هذه الثورة عمق الصراع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس وأحلافهم من زناتة التي كان مسرحها الجزء الغربي من المغرب، كانت بوادر التصادم متقدمة منذ زمن أبي عبد الله الداعي، إذ قتل محمد بن خزر رسله إلى وليّه في سجلماسة، وهو يومئذ زعيم زناتة كلها، فقتل الوفد على آخره من قِبل العناصر الزناتية التي كانت خاضعة لإشراف أمير زناتة قرب بسكرة[4].

ويبدو أن سيطرة ابن خزر على الوضع السياسي في الزاب والمجالات الغربية إلى تيهرت ومناطق أخرى من المغرب الأوسط هي التي دفعت الفاطميين إلى مضاعفة مجهوداتهم للقضاء على القوة الزناتية التي لم تكن لتنهزم بسهولة، وكان ابن خزر في كل مرة يرى عدم القدرة على الحرب ينحاش إلى الصحراء أو إلى الرمال في مجالات الزاب وما والاه غربًا (جنوب تيهرت وشلف). وهنا لا يمكننا تعميم

---

[1] – اختار عبيد الله أحسن قادته للقضاء على هذه الثورة فحاربها بهم ، ولكن انضمام بعض القادة إلى الحركة أمثال : صولات بن جندة الذي فرّ بنحو مائتي جندي،ما ضعف المقاومة، كما هرب في وقت لاحق من قوات أبي القاسم جنود كثر وانضموا إلى المارطي، انظر : لقبال : دور كتامة، ص 44.

[2] - بعد أن أكمل أبو القاسم المهمة رجع إلى رقادة، وفي معيته المهدي الصغير وبعض أنصاره أسرى، فطوّف بهم في القيروان على البغال، ثم قتلوا بمدينة رقادة. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 166. موسى لقبال : المرجع السابق، ص 442. طقوش : تاريخ الفاطميين، ص 90.

[3] - انظر مفصّلا : فاطمة بالهواري : معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط، مجلة عصور، السنة 02، العدد02، 2003م، ص 114-115.

[4] - نفسه:ص 111 .

الحكم بأنّه دخل بسكرة في كل مرة، غير أن أخبار دخوله طبنة سنة 314هـ/926م ثابتة[1]، وابن عذاري يذكر أن تغلب على الزاب وملكه جملةً[2]. وهذا يعني أن مجالات بسكرة صارت تحت سيطرته، ومن الواضح أن كره أهل المنطقة للحكم الشيعي كان من العوامل المساعدة عن انتشار هذا الانفلات، مما أدى بالمهدي إلى إرسال مسعود بن غالب الرسولي في خمسمائة فارس فهزمه، وأوقع بأصحابه[3]. هنا نتساءل : هل أتباعه هم الذين هربوا إلى بسكرة ؟ أم أن بها مؤيدين ومناصرين لهذه الحركة، وهذا هو الأرجح، فإذا كان كذلك فمن غير المستبعد أن يعود إليها مرارًا، فالمصادر تذكر أنّه وقومه زحفوا على بسكرة ففتحوها، وقتلوا زيدان الخصي[4]، والظاهر من الرواية أن هذا كان في زمن إسماعيل المنصور. المصادر الإباضية تؤكد وجود أنصار لحركة أبي خزر الزناتي بالزاب وفي بسكرة تحديدًا، مناصرين لأبي خزر عند استنفاره لهم في كل مرة يحتاج فيها إلى المدد[5] .

على أن الثورة الأشرس والأكثر حدّة على نظام الفاطميين كانت ثورة أبي يزيد النكاري- صاحب الحمار-[6]. الذي خافه الفاطميون وتجهزوا لثورته حتى قبل ظهورها[7]. والغريب في الأمر أنّه استغل لصالحه كل الاتجاهات التي تكوّن منها المجتمع المغربي إذ ذاك من الإباضية والوهبية ومن السنة، إذ بدأ

---

[1] - زحف ابن خزر على تيهرت وحاربها سنة 314هـ/926م، وأخرج عبيد الله في أثره موسى بن محمد الكتامي في جماعة من القواد، فلما صاروا بطبنة دخل محمد بن خزر الصحراء، ابن عذارى : البيان ، ج1، ص 191.

[2] - نفسه ،ج1، ص 194.

[3] - الداعي القرشي: عيون الأخبار، ص 70-71.

[4] - ابن خلدون : العبر، ج7 ، ص 36.

[5] - الدرجيني أبو العباس أحمد :كتاب طبقات مشائخ المغرب، تحقيق : إبراهيم الطلاّي، قسنطينة : مطبعة البعث، 1985م، ج2، ص 128.

- أحمد بن سعيد الشماخي :كتاب السير، تحقيق : أحمد بن سعود السيابي، سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة، ط2، 1992م، ج1، ص 246.

[6] - إنها الثورة التي كادت تقضي نهائيا على الدولة الفاطمية، حيث انطلقت من جبال الأوراس سنة 324هـ/935م، أي في السنة التي مات فيها المهدي، وتمكّن هذا العجوز من الاستيلاء على مجموع إفريقية، وقد مرّ الصراع بين أبي يزيد والفاطميين بثلاث مراحل : - الأولى : مرحلة الإنتصارات : وابتدأت منذ هجومه على باغاية سنة 332هـ/944م إلى حصاره للمهدية. وتدرَّج فيها أبو زيد من الأوراس إلى تونس ورقادة والقيروان، وافتتح سوسة إلى أن وصل إلى المهدية وكانت الغلبة لأبي يزيد وجيشه . - المرحلة الثانية : وهي مرحلة التوازن : وتبدأ من سنة 333هـ/945م، ولم تسجّل فيها الغلبة لأي طرف إذ كانت الحرب سجالاً، وابتدأت من دخوله المهدية ووصوله المصلّى إلى هزيمته في سوسة وفراره إلى باغاية، وشهدت هذه المرحلة موت المنصور وخلافة ابنه القائم. - المرحلة الثالثة : وفيها تم تراجع الثائرين يقودهم أبو زيد إلى أوراس وبسكرة ثم إلى مسيلة حيث تنقل بين جبال كتامة أين قبض عليه في محرَّم 336هـ/945م،وانتهى الأمر بمقتله والقضاء على حركته.عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،ط2000، ص 227-228.محمد بن عميرة: دور زناتة، ص201 فما بعد.

[7] - يذكر أن المهدي عندما بنى المهدية صعد إلى سورها ورمى من فوقه بسهم إلى ناحية الغرب وقال : إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار يعني أبا يزيد، ولا يخفى علينا ما في هذه الرواية من أسطورة. ابن خلدون: العبر، ج4، ص 49.

حياته محتسبًا، يؤلب العامة ضدّ المخطئ، وقد أعلن منذ البداية أن خروجه كان غاضبًا لله، ودفاعًا حرمات الإسلام والمسلمين، فاتبعته السنة نكاية في الشيعة[1]. المهم في هذه الثورة هو اتفاق أهلها ضد الحكم الشيعي، إذ كان الهدف -رغم اختلاف المذاهب والاتجاهات- الإطاحة بالعدو المشترك. ومنذ ذلك التاريخ بدأت الخارطة السياسية المذهبية المغربية تعرف تغيُّرًا،إذ وجد أصحاب المذاهب من يقودهم ويوجّه سخطهم نحو ثورة كانت ستطيح بالنظام الفاطمي، ومهما يكن من أمر هذه الثورة فالثابت أن بسكرة ونواحيها كانت ضمن النقاط المهمة في خارطة ابن كيداد : كونها تحوي عددًا كبيراً من الإباضية الذين آمنوا بمبادئه واتّبعوه بقوة، ما جعلهم يمدونه بما يحتاج إليه من مؤونة في ساعة العسرة، كما أثبت ذلك صاحب أخبار ملوك بني عبيد عند حديثه عن حصار أبي يزيد في كيانة "فصار أبو يزيد محصورًا، غير أن الطعام كان عنده رخيصًا، إذ كانت الرفاق تأتي به من سدراته ونطيوس، وهي من مدن بسكرة"[2]، وكذا إمداده بما يحتاج إليه من إمدادات بشرية سواء في تكوين جيشه الذي قاتل به الفاطميين، أو ما احتاج إليه فيما بعد، كما حدث عند حصاره للمهدية "واجتمع إليه خلق عظيم من إفريقية والبربر ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب"[3]. وبما أن بسكرة مدينة صحراوية تقع في الجزء الجنوبي من محور الثورة، فقد شكلت نقطة تراجع في حالة الهزيمة فرّ إليها أكثر من مرّة أثناء ملاحقاته[4]. يذكر منصور الكاتب أن القائم خرج إلى بسكرة في أواخر عهده، ومن المرجّح أنها كانت سنة 358هـ/ 968 م، بعد ضرب الدنانير على يد جوذر[5]، من غير ذكر لسبب هذه السفرة، إذا ما كانت زيارة تفقدية لطارئ حدث في بسكرة.

إذا كانت هذه الثورات تدل على شيء، فإن ذلك الشيء هو أن على الدولة العبيدية أن تختار ؛ إمّا أن تعود مغربية إفريقية، فتنظم نفسها كدولة قطرية مستقلة محاولةً تأليف قلوب الرعية بالعدل

---

[1] - إذا أفتى فقهاء المالكية أن قتال العبديين أفضل من جهاد أهل الكفر، وأجمعوا الانضمام لأبي يزيد لأن الشيعة في نظرهم كفرة بينما الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام، واتبعه الخوارج الإباضية والوهبية وبايعهُ رؤساؤها شريطة أنهم إذا ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى.وكان وجه الحركة في البداية سنيا يظهر الترحم على أبي بكر وعمر ويحث على قراءة مذهب مالك. انظر مفصّلاً : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص 537. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، ص 238. موسى لقبال : دوركنامة، ص 427.

[2] - ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق : جلول أحمد بدوي، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 41.

[3] - ابن خلدون : المصدر السابق، ج4، ص 54.

[4] - انظر مفصّلا : ابن الأثير : الكامل، ج6، ص 310. ابن حماد:نفسه ، ص 38. ابن الأبار : الحلة السيراء، ج2، ص 338.

[5] - العزيزي الجوذري : سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق : محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، مصر : دار الفكر العربي، ص 117.

والتعمير، وإمّا أن تكون فاطميةً إسماعيلية فحينئذ يجب جني ثمار إفريقية دفعة واحدة لتمويل الدعوة وتجهيز الجيش ومغادرة القطر في أول فرصة سانحة، وهذا ما استقر عليه في الأخير رأي المعز رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية، وربما ليقينه أن حظوظ نجاح الاختيار الأول ضئيلة إن لم تكن منعدمة[1].

ومن المسلّم به انضواء أهل إفريقية بما فيها بسكرة تحت راية الدولة الفاطمية، على الأقل من الناحية السياسية، إذ بقيت رغم توجهات السكان تابعة لبلاط المهدية يعيّن من يشاء من ولاّتها ويخلع على بن حمدون ؛ والي الزاب. وإن انعدمت في المصادر أية إشارات عن ذكر عمال المنطقة، أو مدى تبعيّتها لطبنة أو المسيلة أو الكشف عن أسماء هؤلاء العمال، نحن نجهل إن كانوا من سكان المنطقة أو مشيختها التي توكل إليها مهمة الحفاظ على استقرار العمالات، أو من عمال خارجين يتم استقدامهم إلى المنطقة. غير أن الجدير بالذكر أن من القواعد الساسية التي مضى عليها الفاطميون في المغرب وحتى في مصر والشام بعد ذلك، ألاّ يتركوا والّيا من ولاتهم أو حليفا من حلفائهم يطمئن في مكانه لأمد طويل، فقد كانوا حريصين على ألاّ يستمر في السلطان وليٌّ ولا عاهل مهما كان إخلاصه لهم مخافة أن يشتد ساعده[2]. وعلى الرغم من تأكيد ابن خلدون أن بني رمّان من أهل بسكرة حكموها في عهد صنهاجة ملوك القلعة، بعد الأغالبة والشيعة[3]، إلاّ أنّه من المرجّح أن من حكم بسكرة هو ممن كانت له التجربة وطول المراس والعشرة في البلاد والمعرفة التامة بسكانها.

والتساؤل الذي يطرح نفسه في الأخير : هل اندمج أهل بسكرة في الحكم الفاطمي وساوا في تياره ؟ وهل تبنى أهله المذهب الشيعي وارتبطوا بمبادئه ؟ وهل يمكن تعميم الحكم أن المذهب الفاطمي لم يتعدّ الطبقة الحاكمة والبلاط ؛ أما المجتمع فقد ظل مالكيًا متشددًا شديد التمسك بمالكيته.

من المؤكد ومذهب الدولة شيعي أن يتبعه الولاة والقضاة وأصحاب الشأن والرأي في بسكرة، يحدثنا البكري عن وجود قرية كاملة إباضية[4]، ربما يرجع وجودهم إلى فترة القضاء على تيهرت، أي تكوّنها من جماعات من الفارين الإباضيين بعد سقوط دولتهم، ولكننا بالمقابل لا نجد أي ذكر لتجمعات فاطمية شيعية، والحال هنا يؤكد وجود مالكيين وأحناف وإباضية. فالنتيجة إذن والحقيقة المكتوبة غائبة تمامًا هو أحد الأمرين : أن إتباع أهل بسكرة ونواحيها للحكم الفاطمي كان ظاهريًا بمعنى عدم خروج على الحاكم ؛ أي دخول المنطقة تحت راية الدولة سياسيًا، لكنها وبصفة نهائية لم

---

[1] - العروي : مجمل تاريخ المغرب، ص 228.

[2] - حسن مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1، ص 393.

[3] - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 585.

[4] - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 254-255.

تدخل إيديولوجيًا أو دينيًا في مذهب الدولة الرسمي، وهذا هو الأرجح، أو أنّها دخلت حكمهم ومذهبهم بكل التفاصيل، وهذا الأمر مستبعد.

3- بسكرة : مصدر للتمور ومعبر للطرق التجارية.

إن وجود منطقة بسكرة وزيبانها على خطوط الليمس جعلها تكتسي أهمية بالغة من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية أثناء الفترة البيزنطية المتأخرة، ومن الواضح أن الرومان، وإن كان التعرض لتلك الحقبة لا يعنينا في هذه الدراسة المحددة بفترة زمنية ما بعد حكمهم أي الفترة الإسلامية، ولكنهم وبوضعهم بسكرة وزيبانها منطقة عسكرية وإقامتهم لخط الليمس _ وإن كان هدفه في الأساس اقتصاديا_ إلاّ أنّه من الواجب دراسة الفترة الأخيرة من نفوذهم في المنطقة، وذلك كونهم القاعدة التي وجدها المسلمون في بسكرة ونواحيها، وبذلك فإن تأسيس أية مؤسسة اقتصادية أو زراعية أو سقوية جاءت وفق ما وجده المسلمون في هذه المناطق ؛ خاصة أن بسكرة كانت غنية بمواردها المائية سواء الباطنية أو السطحية.

وبما أن الرومان كانوا يرون في المنطقة موردًا اقتصاديا ضخمًا، فبالتأكيد أنهم أتقنوا التحكم في اقتصادياتها بصفة تتماشى مع أهدافهم.ومما لاشك فيه أن العرب قد أضافوا على ما وجدوه، لكنهم في الواقع استندوا إلى القاعدة الاقتصادية المبرمجة التي كانت تتميز بها منطقة بسكرة وواحاتها. والواقع أن السكان الأصليين للمنطقة لم يتخلّوا عمّا عملته أيديهم، بل طوّروا فيه بفعل الحضارة الإسلامية.

لم يستطع الرومان التوغل في المنطقة الصحراوية الواقعة خلف خطوط الليمس الجنوبية التي تربط بين بادس شرقا والأغواط غربًا، ونتيجة لذلك فإن المنطقة المشار إليها كانت مسرح صراع دائم بين القبائل المحلية وفرق الجيش الروماني التي كانت تسهر على حراسة القلاع والحصون. وليس خافٍ ما للثورات من أثر بالغ على اقتصاد أية منطقة خاصة إذا كانت من الناحية الطبيعية تعتمد على الزراعات السقوية نتيجة للظروف المناخية، وتفتقر إلى الخصوبة في التربة، وكذا المحدودية في تنوع المحاصيل . أمّا في فترات السلم فقد كانت المنطقة مزدهرة اقتصاديا، ذلك لأنّها كانت تمثل رصيف التقاء تجاري بين سكان الصحراء الذين كان يتوفر لديهم ريش النعام وتبر الذهب والعاج، وبين المناطق التلية التي كانت خاضعة للاستعمار الروماني،وكانت تصدّر إلى الجنوب البضائع المستوردة من بلاد الإغريق والشرق القديم عن طريق

سواحل البحر الأبيض المتوسط[1] .

والمتتبع للآثار الرومانية والبيزنطية في المنطقة يتأكد أنّها كانت شريانًا لا يستغنى عنه في ربط الحركة بين التل والمناطق الصحراوية التي لم يستطع الرومان أن ينفذوا إليها [2]. بغض النظر عن وضعية أرضها في الإسلام هل كانت عنوية أم صالح عليها أهلها[3]، إلاّ أننا خلال القرنين الأولين من هذا التاريخ نجهل أية معلومات ولو تلميحية عن حالة بسكرة الاقتصادية ، ولكن وحسب الظاهر فإنها وبعد خضوعها للحكم الإسلامي بقيت محافظة على نظامها السابق خاصة فيما يتعلق بالزراعة تقنياتها و كيفية استغلال المياه، جابه السكان نزوات الطبيعة وخصوصًا في المناطق الجافة حيث قلة منسوب الأمطار، وذلك أنهم لم يقفوا مستسلمين لكل الظواهر بل حاولوا ترويضها، فقاموا بخزن المياه وتصريفها وتقسيمها. غير أن المنعطفات السياسية مثلت في الغالب تحديدًا في الطرق المعتمدة ، وقدمت في الكثير من الأحيان إضافات ذات شأن، دون أن يعني ذلك إتلافًا لإرث قديم أثبتت التجربة فائدته. فقد ترك أهل المنطقة ومن حلّ بأرضهم شواهد على إنجازاتهم كما ترك العرب بعدهم مآثر تدل على مدى حذقهم لأساليب الري[4] .

لقد طبّق أهالي المنطقة ثلاث طرق للسقاية في محصولاتهم الزراعية،تتمثل أولاها في الاعتماد على مياه الأمطار المحلية وذلك في فصلي الشتاء والربيع، كما كانت هذه الطريقة غير منظمة وغالبًا ما تخضع للصدفة، ونتائجها غير محققة، بحيث أن محصولها يتوقف على كمية الأمطار المتساقطة، كما أنّها تخضع لنوعية التربة، ومزروعاتها غالبًا ما تكون فصلية. أمّا الطريقة الثانية الممارسة في المنطقة فكانت تعتمد على استغلال المياه الجوفية المحلية سواء تلك التي كانت تُدرُّ بها العيون، وتستغل دون عناء ولا يتطلب الحصول عليها سوى تنظيم لمجاري المكشوفة والمتمثلة في توصيل السواقي، أو أنّه كان يتوصل إلى المياه المشار إليها عن طريق حفر الآبار والتعرض إلى عروق وشرايين المياه الجوفية المتسربة داخل

---

[1] - انظر مفصّلا : محمد الصغير غانم، تراث منطقة بسكرة، ص 7-8-9.
- Albertini : l'Afrique romaine, 1937, p 12.
- Reri ziat : Etude sur l'oasis de Biskra, Paris : librairie ettiteur, 1875, p 02.
- Cristian courtois : les vandales et l'Afrique, paris, art et métier Graphique, 1955, p 81 et suite.

[2] - انظر : Salama : les vois romaine de l'Afrique du nord, Alger, Imprimerie officielle, 1951, p 22 .

[3] - انظر مفصّلا: انظر مفصلا: جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ،ص: 5-25 .

[4] - محمد حسن : الجغرافيا التاريخية، ص 252.

الأرض والناتجة عن كميات الأمطار والثلوج التي تتساقط على المرتفعات الجبلية الشمالية، ثم تغوص في باطن الأرض لتتخذ طريقها نحو المناطق الأقل انحدارا من تلك التي نزلت عليها. وتتلخص الطريقة الثالثة التي اتبعها أهل المنطقة في تنظيم السقاية في استغلال مياه الوديان التي ينطلق معظمها من الكتلة الأوراسية، وقد تمثل استغلالهم لهذه الوديان في شق السواقي والقنوات لحمل مياه الوديان إلى السهول والواحات القريبة منها[2] .

وقد أقام الرومان السدود على حواف الأنهار، ولاشك أن العرب استمروا في هذه التقنية التي أخذوها عن سكان المنطقة والذين من غير شك استمروا في استعمالها هم أنفسهم، وقد كان منطلقها العوائق الطبيعية الموجودة على طرفي مجاري الأنهار ثم تقويتها واتخاذها بمثابة سدود طبيعية تتجمع فيها المياه من أجل الاستفادة منها، وكذلك استغلت الدهاليز الطبيعية والحفر الكبيرة لجمع المياه واتخاذها بمثابة خزانات مياه، وقد توفرت مثل هذه السراديب الطبيعية في منطقة سبع مقاطع على وادي القنطرة بالقرب من منبع الغزلان، ويمكن أن يكون أحسن السدود الطبيعية التي عثر على بقاياه في المنطقة هو ذلك الذي وجد على نهر البرانيس جنوب القرية الحالية التي تحمل الاسم نفسه والذي استغلت فيه منعطفات النهر التي تشبه حرف (S) اللاتينية، وقد استفادت من هذا السد في السقاية كامل المنطقة الشمالية من ذراع شيشة. ويلاحظ أن قنوات الري كانت مزودة بالجسور وأرضيتها مبلطة بالجير، وفي بعض الأحيان تكون مغطاة تحت الأرض مثلما هو الشأن في تلك التي عثر عليها في بادس على وادي العرب، وكذا قنوات باينان على الوادي الأبيض والتي كانت محفورة داخل الصخور[2].

ويضاف إلى ذلك ما وجدت بقاياه على الضفة اليمنى لوادي جمورة بالقرب من الطريق الحالي الرابط بين هذه الأخيرة وبسكرة، وقد تمثلت في هذا المجرى الأخير الطريقتان السابقتان أي المجرى المكشوف والقناة المحفورة داخل الصخر، ولا يزال الجدار الذي يعزز المجرى المكشوف ظاهراً للعيان حتى وقتنا الحالي على حافة النهر. وقد وجدت آثار عدة قنوات لنقل المياه إلى مناطق بعيدة، وقد توفر ذلك في منطقتين : الأولى : تقع شمال جبال الملح بالقرب من قرية لوطاية ؛ حيث وجدت آثار بقايا ثلاث قنوات ري مصنوعة من الفخار توصل المياه إلى مزارع قصر سيدي الحاج شمال شرقي منبع الغزلان، وقد أقيمت القناة الثانية على إحدى الأنهار الصغيرة المنطلقة من جبل متليلي شمال غربي قرية القنطرة لتسقي بساتين القرية والمناطق القريبة منها. أما النموذج الثالث فيتمثل في ساقية بنت الخزر التي أقيمت على

[2] - غانم : تراث منطقة بسكرة ، ص 61-62-63.

[2] - غانم :تراث منطقة بسكرة ، ص 70.

وادي جدي لتستفيد منها في السقاية واحة ليوة ومليلي وغيرهما من الواحات القريبة[1].

شهد العصر الوسيط تطور التقنيات المائية وطرق الري وأساليبه وما تبعه من تشريعات دقيقة ظهرت بالأندلس والمغرب، وبالضرورة كان لها نصيب في المنطقة المعينة بالدراسة، ولكن لم يمنع من نشوب نزاعات طويلة حول الماء بين أهل البادية والمدينة أو حتى بين القرى، وداخل المجال القروي بين المجموعات المتنافسة، والجلي أن النزاع داخل المناطق الصحراوية الواحية كان أكثر منه في المناطق الاخرى وذلك نتيجة لشح مصادر المياه وقلة الأمطار. ونتيجة لذلك فقد حرصت المجتمعات على تنظيم استعمال الماء وقسمته، وكانت تعتمد مرة على المكتوب[2]، وأخرى على العرف المتداول[3].في هذه الناحية ليست لدينا أية معلومات تخص المنطقة، سواء من الناحية التشريعية لتنظيم المياه أو من الناحية الواقعية التطبيقية، في هذه الفترة من الفتح إلى خروج الفاطميين. ولكن من المعروف أن نظام الري بالواحات يحتاج إلى أعمال كُبرى لبناء السواقي والقواديس وصيانتها، وتهيئة المقاسم والمصارف ومراقبة التوزيع، ولذا تخصص لها يد عاملة هامة من الرقيق والخماسة حتى تكون العملية غير مكلفة. ولئن كان هذا النظام يمكن أن يسير وفق منظومة متوارثة ومتجددة، فإن هذه السلطة ليست بالضرورة في توافق مع الرئيس والنفوذ الممركز داخل المجتمعات المائية، إذ كثيراً ما يرجع تأسيس النظم المائية وصيانتها وتوزيعها إلى عمل المجموعات الزراعية ذاتها التي تتميز بالتوازن والاستقرار والحرية في تنظيم المجال الزراعي وإدارة شؤونها ؛ غير ان القسط الأوفر من السلطة يرجع إلى أقلية من الشيوخ المتنفذين والمالكين للقسط الأوفر من الماء، الذي يعتبر النفوذ الحقيقي داخل الواحة، ولذا كانت ملكيته الهشة مهددة بالاغتصاب باستمرار من قبل المجموعات المتنافسة وهو الرهان الأساسي للتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. فإذا كانت القبائل البدوية تتنازع حول الكلأ والمرعى، والمجموعات الريفية حول ملكية الأرض، فإن الماء هو العنصر الفاعل في الصراع داخل الواحات، لذا فإنّه يتم التوزيع بواسطة المقسم الذي يقسّم الساقية

---

[1] - نفسه، ص 72.

[2] - قسم الماوردي المياه المستخرجة إلى ثلاثة أقسام : مياه آبار وعيون وأنهار، فصنف العيون إلى ثلاثة إن كانت العين طبيعية ولم يقع احتفارها يمكن لمن "احيا "ارضا بمائها "ان يأخذ قدر كفايته. ومن استنبطها فهي ملك له، كما يملك حرمها الذي قدر بخمسمائة ذراع، ويجوز له بيعها. إذ استنبطها الرجل في ملكه، فهو أحق بمائها لشرب أرضه. أما فيما يخص الأودية فقد فرّق بين ماء العشر (حيث الأراضي العشرية) وماء الخراج، واعتبر أن المياه الموجودة في العيون والآبار والأودية غير الممتلكة مشاعة لكل المسلمين مع إعطاء الأولوية للأقرب من عين الماء والموجود في العلو، وبالتالي تمتع الممتلك للماء بحق الانتفاع والتصرف بيعًا وتحبيسًا، على أن ملكيته لم تكن مطلقة، إذ يحق للأجوار التصرف بما زاد عن حاجة صاحب الماء بحكم ضرورة التآزر، الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق : سمير مصطفى رباب، بيروت : المكتبة العصرية، 2001م، ص 201.

[3] - محمد حسن:المدينة و البادية بافريقية في العهد الحفصي،تونس ،جامعة تونس الأولى ،1999 ،ج 1، ص 384.

الأساسية إلى عدد من الجداول ذات صبيب متعادل، وتوزع مياه الجداول إلى خطوط متساوية تغطي مساحة عدة أجنة وبساتين تصل إليها بواسطة المصارف، غير أن قلة المياه في فصل الجفاف وحاجة المزارعين إلى هذه البضاعة الثمينة يفسران استغلاله بالتداول حسب طريقة معهودة تسمى النوبة أو الدولة[1].

بما أن منطقة بسكرة تقع على الحدود مع الصحراء الكبرى فقد ميّزها المناخ شبه الصحراوي والصحراوي، الذي تناسبه مجموعة من الزراعات الخاصة التي تتناسب مع كمية المياه وقلة التساقط ونوعية التربة. وبما أن الرومان قد وضعوا في هذه المنطقة سياسات وتقنيات هيدرولوجية سقوية، وأحكموا عملية التحكم في المياه، فقد كمل بعدهم المسلمون هذا الجانب خاصة بعد رسوخهم في أرض الأندلس ونقلهم لحضارتها، فقننوا القوانين من أجل الحفاظ على هذا المورد. لذا فالواضح أن الزراعة في زيبان بسكرة كانت مزدهرة لحد كبير، جعلت من الجغرافيين يصفونها بأبلغ الأوصاف. لقد عرفت مجالات بسكرة وزيباتها منذ القدم بزراعة النخيل، بحيث تُعتبر تمور بسكرة من أجود التمور في المغرب عامّة، حتى عرفت بها، حيث يقول المروزي :

ثم أتى بسكرة النخيل قد اغتدى بزيه الجميل

وتنتج منه الأنواع الكثيرة منها : الكسباني والصيحا والليلاري، وهو تمر أبيض أملس[2]، وغيرها من أنواع التمور الأخرى التي كانت دون شك تمثل موردًا اقتصاديا كبيراً بالنسبة لمالكي غابات النخيل، تتم به المقايضة بالسلع الأخرى. كما كان يشكل تجارة رائجة مع الداخل عبر المحاور الرابطة بينها وبين المدن التلية. كما يلاحظ أن التمور أصبحت بضاعة تصدّر إلى خارج بلاد المغرب في اتجاه المدن الأوروبية والأندلس، وكذا نحو الجنوب (الصحراء الكبرى)[3].

كما عرفت المنطقة زراعة الحبوب من القمح والشعير والحنطة، والتي تتربع زراعتها على مساحات شاسعة من أرض المنطقة لأنّها المادة الغذائية الرئيسية، والتي يتم تخزينها داخل المطامير لمدة طويلة[4]. إضافة إلى زراعة الزيتون وإنتاج زيته، ويُعد الزيتون موردًا اقتصاديا غراسيًا وتجاريًا، إذ وجود بقايا

---

[1] _ صفي الدين البغدادي : مراصد الإطلاع، تحقيق : علي محمد البجاوي، لبنان : دار الجيل، ط1، 1992م، مجلد 1، ص 197.محمد حسن:المدينة والبادية،ج1،ص 402-404.

[2] - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 230.

[3] - محمد حسن : المدينة و البادية ، ج1، ص 446.

[4] - جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 40.

معاصر الزيت في المنطقة يدل على أن اقتصادها كان يعتمد بالدرجة الأولى على زراعة أشجار الزيتون، والتي تكاد تكون منعدمة في وقتنا الحالي[1].

ما يلفت الانتباه في ميدان الزراعة في الفترة الرومانية، ومن غير شك في الفترة الإسلامية التي غابت عنا حقائقها تمامًا - خاصة إذا تعلق الأمر بالفترة الأولى- وإنما نعتمد هنا على الترجيحات فقط لغياب المكتوب، وبناءً على البقايا المادية هو سيطرة الزراعة الموسمية التي تعتمد على الحبوب مثل : القمح والشعير، وقد غلبت زراعة هذا الأخير في منطقة التخوم الأوراسية وأطراف الصحراء، وذلك لأن حصاده كان يتم قبل بداية فصل الجفاف في المنطقة، والذي غالبًا ما يبدأ بنهاية شهر أفريل وبداية ماي. وتجدر الإشارة إلى أن زراعة الشعير لا تحتاج في بعض الأحيان إلى السقاية إلاّ مدة شهرين في الموسم كما أنّه لا يحتاج إلى تربة خصبة.

أما إذا توفر المطر فإن هذين المحصولين لا يحتجان إلاّ إلى مرّتين، وذلك حسب السنوات المطيرة شريطة أن يزرعهما في الوقت المناسب. وبالعكس من ذلك تحتاج زراعة الحمضيات في منطقة بسكرة وزيبانها إلى حوالي ما بين 5000 و500م^3 للهكتار الواحد سنويًا، ولا توفر لها الأمطار إلاّ ثلثا الكمية وتكمل الثلث الباقي السقاية.

ومن جهتها تحتاج سقاية النخيل إلى حوالي ما بين 180-260م^3 من الماء إلى القدم الواحد، مما يعطي ما بين 18000-26000م^3 للهكتار مقسمة إلى مرتين في الشهر، أو كل أربعين يوم على الأكثر خاصة في فترة الحرارة.

وعلى هذا الأساس فإن النخلة تحتاج إلى ما بين اثنتي عشرة و خمس عشرة مرة سقاية أكثر من الحبوب الأمر الذي يجعلنا نسقي حوالي ما بين 18-25 هكتارًا من الحبوب مقابل هكتار واحد من النخيل. كذلك تحتاج سقاية الزيتون إلى كمية ماء متوسطة، بحيث لا تزيد الكمية التي يحتاجها الهكتار الواحد من أشجار الزيتون عن ما بين 2000-2500م^3، مما يمثل لنا ضعف ما يحتاجه الهكتار الواحد من الحبوب[2]. ومن الجدير التنويه به أن كل هذا كان يتم بالدرجة الأولى بالقرب من الوديان والأنهار، وأين تتواجد مصادر المياه.

بما أن المنطقة المعينة بهذه الدراسة، وهي بسكرة وزيبانها تتكون من عدة تجمعات حضرية، سواء كانت مدن أو قرى، فمن المؤكد أن هذه النواتات السكنية احتوت على العديد من الوحدات الزراعية

[1] - محمد الصغير غانم : تراث منطقة بسكرة، ص 40.

[2] - غانم:تراث منطقة بسكرة ،ص 65-66-67.

والغابات، وهذا نتيجة للمتطلبات الطبيعية للسكان المحليين. من الواضح أنّه وخلال الفترة الأولى بعد الفتح، وأثناء التدفق العربي على المنطقة قد استقر العرب بجانب أهلها المحليين، وبالتالي فقد حصل نوع من تبادل الخبرات في المجال الزراعي. في الواقع يعتبر اتساع المجال المخصص للمزروعات مؤشرًا على أهمية الناحية المحيطة بالمدينة، لمدى حيوية سكان الحضر، وقدرتهم على حماية المجال الزراعي، ولئن كان من الصعب قيس مدى اتساع هذا المجال فإننا نعتقد أن قائمة الأصناف الزراعية والمشاتل ازدادت تنوعًا وثراءً، بتأثير تقنيات زراعية وافدة على البلاد من شمال المتوسط مما أدى إلى تطور نظام البستنة بإفريقية، وفي العادة تتموضع هذه السواني والبساتين حول المدن، ومن الممكن أن تكون داخلها، حيث توفّر لها المياه اللازمة للسقي، ولم تقتصر السواني على المدن الكبرى إنما ظهرت حيثما توفر المياه ومهارة المزارع المستقر والأمن الاجتماعي، وبالتأكيد كانت حاضرة بطريقة مستمرة في واحات الزاب حيث استعملت الفلاحة المتدرجة في مستويات : النخيل فالبساتين فالبقول والزراعات الصناعية[1].

إن التطور العمراني، وتزايد السكان في المدن وما يتبع ذلك من اشتغال بالمجالات الاقتصادية الأخرى قد أوجد مستهلكين جددًا، ولم يعد الفلاحون ينتجون للاستهلاك المحلي مثلما هو الشأن في المجتمعات القبلية، بل أصبحوا يتوسعون في الإنتاج لسد حاجيات المدن، ومن المهم التنويه إليه أن انفتاح باب التصدير قد أسهم في الازدهار الاقتصادي للمدينة ونواحيها. ومن بديهة القول أن الرومان هم الذين ساهموا بدايةً في تمهيد الطرق والمسالك البرية الواحية وتعبيدها، حيث تم ربط المنطقة ببقية المدن والحواضر، لأنّه في الأساس كان يهدف إلى خدمة وتنمية اقتصاديات المنطقة سواء الطرق التجارية أو المنشآت المائية أو تطوير تقنيات الزراعة. كانت أهم هذه الطرق والذي بقي معتمدًا بعد دخول الإسلام كمسلك بري آمن ومعبّد ومن ناحية أخرى كثير المدن والمستراحات هو طريق الليمس الذي امتد ابتداءً من قلعة أدماجون (نقرين) ثم بادس وتهودة مرورًا ببسكرة، ويواصل طريقه نحو الغرب ممثلاً في مدن وادي جدي المتكونه من مليلي والدوسن وسودوري، ثمّ مجدّل وعين الريش والظهرة وممتد بعد ذلك حتى قلعة ديميدي بمسعد، وينعطف بعد ذلك شمالاً نحو آفلو وثنية الحد ثم تيارت وكذا فرندة[2].

من الجلي أنّه لا يمكن حصر فروع الطريق البري في المغرب، ولا تحديد كل المسالك التي تربط بسكرة وزيبانها بما يليها من مدن؛ فهي تقع على الطريق الرابط بين تاهرت والقيروان عبر مدينة ورقلة، فكان المسافر يخرج من تاهرت إلى ورقلة ومنها إلى بسكرة وصولاً إلى القيروان وكان هذا الطريق مستعملاً وإن أهمل من قبل الرحالة، إذ هو الطريق الذي سلكه الإمام يعقوب الرستمي عند مغادرته تاهرت فارًا

[1] - راجع : محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 73.

1- غانم : تراث منطقة بسكرة، ص 88-89.

أمام أبي عبد الله الشيعي، وكان هذا الطريق حافلاً بالمتاعب والمصاعب إلاّ أنّه طريق سريع لقلة التوقف وقلة العراقيل، كما أنّه بعيد عن إمارات المغرب ودوله التي تفرض على القوافل ضرائب مختلفة، كما أن عليه قبائل حريصة على كسب ثقة القوافل لأنها همزة وصل بينها وبين العالم الخارجي، هذا بالإضافة إلى الجفاف وقلة التساقط الذي يسود المنطقة، الأمر الذي يتيح القيام برحلات تجارية على مدار السنة[1].

ويوجد طريق آخر من المسيلة إلى القيروان عن طريق بسكرة، يأخذ من المسيلة إلى مقرة، ومنها إلى طبنة ومن طبنة إلى بسكرة وهي مرحلتان، ومن بسكرة إلى تهودا مرحلة، ومنها إلى بادس مرحلة، ومن بادس إلى تاموديت مرحلة، ومن تاموديت إلى مدّالة مرحلتين، ومن مدّالة إلى نفطة مرحلة، ومن نفطة إلى قسطيلية مرحلة، ومنها إلى قفصة[2].

ومن الجدير بالتذكير لأن المغرب في أوائل العصر الوسيط كان يستورد من السودان أعظم جزء من الذهب الخام الذي يصل إليه من ثلاث طرقات صحراوية الطريق الغربي (عبر سجلماسة) والطريق الأوسط وهو الأهم (عبر ورجلان) والطريق الشرقي (عبر الجريد وطرابلس مرورًا مغمداس)، وكان الخوارج في ورجلان يتحوّلون إلى بلاد السودان لبيع تمور سجلماسة والزاب ويخرجون منها التبر ويضربونه باسم بلدهم، وكانت ورقلة مرتبطة بالمغرب الأوسط عن طريق المسيلة، وهذا الطريق يمر على بسكرة، وقد تمكن الفاطميون في أوائل القرن الرابع من السيطرة على هذا الطريق[3].

كما كانت من بين محطات الطريق الرابط بين الجريد وبلاد السودان عن طريق وادي سوف ذكره البكري من تهودا إلى بادس ثم قيطون بياضة (ولعلها زريبة الوادي) ومنها نصل إلى وادي سوف وورجلان فبلاد السودان[4]، ويعتبر قيطون بياضة مفترق الطرق إلى بلاد السودان وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها، وفيه تجتمع القوافل ومنه تخرج إلى بقية البلدان[5].

من الواضح أن أحكام التجارة والبيوع كانت خاضعة لتشريعات الفقهاء سواء في المدينة الأم

---

[1] - جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص 207.

[2] - ابن حوقل : صورة الأرض، ص 87.

[3] - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 291.

[4] - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 257. محمد حسن المدينة والبادية، ج1، ص 290.

[5] - مجهول : الاستبصار، ص 175.

القيروان[1] أو لقاضي الجماعة في طبنة أو بسكرة. و قدكانت بسكرة من أهم المناطق الممولة للمغرب بالملح وكان الخلفاء الفاطميون يحتكرونه[2].

إن المتتبع لتاريخ المدينة وما يتبعها يكتشف منذ البداية أنه من الصعب كشف أي شيء يتعلق بالسياسات المالية في الفترة الأموية في بسكرة وزابها. ولكي لا نغوص في دائرة التعميمات كثيراً، فإنّه من الواضح أن المنطقة خضعت للسياسة المالية الاموية مثلها مثل كل المدن المغربية الإفريقية فقد استند الولاة إلى الضرائب الشرعية وغير الشرعية، وأطلقوا أيدي عمالهم يجبون أموال العامة سواء بحق أو بغير حق شرعي. ومن الواضح أن أراضي المراعي والصحاري الواسعة في الجنوب كانت تخضع لضريبة العشر تؤديه إلى الإدارة المركزية ؛ غير أن ابن حوقل يورد إشارة عظيمة الأهمية عن خراج ولاية إفريقية والمغرب فيذكر : الخراج والعشر والصدقات والمراعي والحوالي والمراصد وعشور التجارة الصادرة والواردة، وربما جاز أن نقول أن المراعي والمراصد وعشور التجارة لم تعرف في عصر الولاة؛ فهي جبايات مستحدثة ظهرت في العصر العباسي، عندما تحولت الإدارة المالية لدولة الخلافة إلى جهاز استنزاف أموال الناس بأي طريق، لذلك فجباية المال على أرض الكلأ وهي المراعي جباية غير شرعية والمراصد أيضا غير شرعية، وغير ذلك من أمثلة كثير[3].

- الدولة الفاطمية التي عرفت بكثرة جباياتها وإرهاقها للسكان بابتزاز أموالهم بغير طائل[4]، لم نجد أي خبر عن سياستها يختص بمنطقة بسكرة، لكن من غير المعقول أن تخرج هذه المنطقة من أرض المغرب عن هذا الإطار وإن أهمله المؤرخون، وغير خاف أيضا ما للثورات الكثيرة التي شنتها الدولة ضد أعدائها من بالغ الأثر وسوءه تجاه الأرض والسكان والغطاء النباتي والإنتاج الزراعي[5]

لا سبيل إلى الإنكار أن العامة كانت أكثر الشرائح التي تحملت وزر الاضطرابات، والفتن، وأول ضحايا الحروب، إذ أن مزارع الفلاحين وحقولهم شكلت الهدف الأول في هجومات الجيوش، التي استأسدت في تخريبها وانتساف زروعها وإحراق أشجارها ضمن خطة عامة استهدفت استنزاف طاقاتهم

---

[1] - انظر أحكام البيوع مفصلة عند : يحي بن عمر : النظر والأحكام في جميع أحوال السوق، برواية أبو جعفر أحمد القصوي القيرواني، تونس : الشركة التونسية للتوزيع، ص : 31 وما بعدها.

[2] -"وكان عبيد الله المهدي و بنوه يستعملونه في أطعمتهم".الحميري:الروض المعطار،تحقيق: إحسان عباس ،بيروت :مكتبة لبنان، ط 2 ،1984، ص 113.

[3] - حسين مؤنس :تاريخ المغرب و حضارته، ج 1 ، ص 229

[4] - القاضي النعمان :دعائم الإسلام ، تحقيق :آصف بن على أصغر فيضي ،القاهرة :دار المعارف ،ج1 ،ص 257 .

[5] - كانت هذه حالة الدولة الفاطمية في أي مكان حكمت فيه ،أُنظر :محمد أحمد زيود:حالة بلاد الشام الاقتصادية ،بيروت : دار الطليعة ،ط1 ،1998، ص202 .

الاقتصادية -هذا في حالة خروجهم ضد المسطّر لهم- وخاصة إذا لم تكن تلك المزارع محصنة[4]، ولكن الفاطميين حرصوا على إنعاش الاقتصاد، لأنهم في أمسّ الحاجة إلى ذهب السودان وعبيده ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم السياسية البعيدة، ربما لأجل هذا الغرض عمل الفاطميون على نشر بعض الطمأنينة[5]، وربما عدم المساس باقتصاد المنطقة، التي ومن الملاحظ أنها كانت بحكم طرفيتها منطقة مجانبة للصراعات في العموم.

والملاحظ لدى دارس السياسة المالية الفاطمية أنّها أتقن إحكامًا وأكثر دقّةً، وبالتالي أشد وطأة على السكان وهو نظام وضع لتحقيق هدف واضح في سياستها وهو جمع المال لتحقيق إخضاع العالم الإسلامي. ولذلك فقد اهتم الفاطميون بالسياسة الجبائية اهتماما كبيراً إلى جانب سياسة مصادرة الأموال بشتى الذرائع، والنظام الفاطمي معروف بإرهاقه للسكان وخاصة سكان الريف وقد كان اشتداد وطأته عليهم سلاحا فاعلاً عرف كيف يستعمله أبو يزيد في انتفاضته ضد الحكم الفاطمي، معتمدًا على الخصوص على سكان المناطق الريفية التي من بينها المنطقة المعنية بالدراسة[3]

4– التشكل الاجتماعي والثقافي.

تميزت منطقة بسكرة بالتنوع في التركيبة البشرية، فقد استقرت بها مجموعات سكانية متنوعة. ومن أكبر القبائل انتشارًا فيها قبيلة زناتة البترية، التي كانت لها الغلبة على المنطقة -كما هو الأمر في سائر المغرب الأوسط-[4] في جبل أوراس والزاب، فقد كانت أعظم القبائل وأكثرها جموعًا وبطونًا[5].

ومن أهم فروعها التي استوطنت المنطقة :

1 - بنو يفرن : الذين كانوا منتشرين بإفريقية وجبل أوراس[6]

2 - مغراوة : وكانت من أكبر بطون زناتة، ومنهم بنو سنجاس، وكانت مواطنهم قبلة المغرب

---

[4] - إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، بيروت : دار الطليعة، ط1، 1998م، ص202.

[5] -جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية،ص 195.

[3] - الحبيب الجنحاني : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت : دار الطليعة، ط1، 1980م، ص 45 ، 62.

[4] - يقول ابن خلدون "حتى أن عامة القرى الجريدية بالصحراء منهم -أي زناتة ... والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنّه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة". ابن خلدون : العبر، ج7، ص 03.

[5] - نفسه،:ج7، ص 12.

[6] - نفسه: ج7، ص 03.

الأوسط بجبل راشد وبعمل الزاب وبعمل شلف[1]. ومنهم بنو ريغة، حيث نزل الكثير منهم ما بين قصور الزاب وورقلة[2].

3 - أو غمرت : كانوا أوفر القبائل عددًا، ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة من المنشتل إلى الدوسن[3].

4 - جراوة : التي منها الكاهنة، ومواطنها جبل أوراس[4]، ولاشك أن بعضًا من جراوة كانت تسكن المنطقة[5] ولذا ساعدت الكاهنة.

كان بنو عبد الوادي مستوطنين بالصحراء، ينتجعون مراعيها من سلجلماسة إلى أرض الزاب[6] هم أيضا كانوا من بين القبائل التي شكلت الخارطة القبلية في المنطقة.كما سكنت المنطقة قبيلة سدراتة[7].

ولا يمكن إغفال صنهاجة، إذ يفترض أن تكون من بين القبائل التي سكنت المنطقة، فابن خلدون يؤكد أنهم من أوفر قبائل البربر، وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد وما قبله، ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم كثير من الناس أنّهم ثلث أهل المغرب[8].أما فيما يخص الحواضر، فإنها كانت متنوعة السكان فتهودة وبادس كان أغلب سكانها من بقايا الرومان والبيزنطيين الذين راسلوا كسيلة للفتك بعقبة[9].

لقد بقي اللاتين البيزنطيون مندمجون في التركيبة الاجتماعية المغربية فعلى الرغم من أن الانتصار

---

[1] - نفسه: ج7، ص 63.

[2] - نفسه: ج7، ص 64.

[3] - نفسه: ج7، ص 68. والمنشتل : أرض جبلية بمنطقة أولاد نايل، وتمتد ما بين الزاب وجبل عمور، أما الدوسن فهي مدينة بالزاب الغربي، راجع : محمد بن عميرة : دور زناتة، ص 20.

[4] - ابن خلدون : المصدر السابق، ج7، ص 12.

[5] - هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي، ص 157.

[6] - يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق : عبد الحميد حاجيات، الجزائر : المكتبة الوطنية، 1980م،ج1، ص 186.

[7] – ابن عبد الحليم :كتاب الأنساب، تحقيق: محمد يعلى،مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، ص 38.

[8] - ابن خلدون : العبر ،ج6، ص 201.

[9] - نفسه: ج6، ص 193.

العربي أدى إلى الخروج التدريجي للأرستقراطية البيزنطية من كبار الملاك وموظفي الدولة والعسكريين في اتجاه جزر المتوسط الغربي، والغرب المسيحي بصفة عامة، بقي -مع ذلك- الكثير منهم كذميين تحت حماية الدولة الإسلامية، وخاضعين لجبايتها. فالعرب كانوا يطلقون تسمية "روم" على البيزنطيين الذين بقوا في عين المكان أو المنحدرون منهم، وقد أدمج البعض منهم في الإدارة، وتعاطى بعضهم الآخر نشاط التجارة أو الفلاحة، وكان هذا بصفة خاصة في بلاد الزاب[1].

أما الأفارقة : فقد اعتبروا رومانًا، ونحن نقصد بذلك الأفارقة ذوي الأصل البربري أساسًا الذين تمت رومنتهم وتمسيحهم، فهم الذين تم اقتلاعهم منذ زمن بعيد من جذورهم القبلية ليدمجوا في الحضارة الرومانية بشكليها الحضري والريفي. سوف يشير الجغرافيون العرب إلى وجودهم في الجنوب بين منطقة طرابلس وقابس وفي الجريد، وفي بلاد الزاب[2]، وسكنت منطقة تهودة قبيلة تحمل اسمها فتهودة اسم قبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم[3].

في هذه المنطقة -وحسب اعتقادي- لم يوجد قبل حسان وبعد أبي المهاجر وعقبة عربي

واحد مستقر، ذلك أن مرحلة الفتح وما مرّت به من مدّ وجزر في أعداد الجند الداخلة مع القادة العرب لم تعرف استقرارا، على الرغم عن عناية المؤلفين الأوائل بتعدادها[4].

فمع عقبة والشهداء معه ؛ قُضي على أي وجود عربي في الزاب، ومع حسان رحل إلى المشرق أربعون ألف مقاتل[5]، لكن الحضور العربي عرف تدفقا وتغلغلاً في النسيج الاجتماعي المغربي من سواحله إلى أطرافه مع نهايات القرن الأول الهجري، حيث جلب موسى بن نصير معه أعدادًا لا يستهان بها من الجيش العربي الأموي.

يعتبر كل عربي مستقر على أرض مفتوحة جنديًا،وما أن جُلّ العرب قدموا دون نيّة

---

[1] - هشام جعيط :المرجع السابق ، ص 155.

[2] - هشام جعيط :تأسيس الغرب الإسلامي، ص 156.

[3] - تهودة هي اسم الحصن المعروف عند الرومان بـ *Thapodios* فهل من المعقول أن تكون قبيلة؟ انظر مفصّلاً : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 75.

[4] - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق : علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس : الدار التونسية للنشر،ط2، 1985م، ج3، ص 69.

[5] - المالكي : رياض النفوس، ج1، ص 84.

العودة؛فقد أسّسوا بيوتًا في وطنهم الجديد الذي تبنّاهم[1].ويصطلح على هؤلاء القوم بالعرب البلديُّون وهم:الذين شاركوا في الفتح ثم استقروا في البلاد المفتوحة وأصبحوا من أهلها،وخلفهم أولادهم وأحفادهم وتكاثروا مع الزمن،ولحقت بهم بعد الفتح مباشرة جماعات من أهل قبائلهم واستقرّت.هذه الجماعات من العرب كان الكثير منهم مدوّنون في ديوان العطاء والجند وكانت جذورهم قد ضربت الأرض وملكوا الضياع والأرضين[2].

أصول عرب المغرب تكاد تكون يمينة خالصة[3]،ولاشك من وجود الكثير من القيسية.كما عرف العرب الشاميون تدفقا في المغرب؛ففي سنة 122هـ/739م،وإثر هزيمة العرب في وقعة الأشراف،نادى هشام بن عبد الملك إلى تعبئة جيش "أوله عندهم وآخره عندي"على حد تعبيره،وأقسم ألاّ يترك حصنًا بربريًا إلاّ جعل إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي[4]،وتراوح عدد الجنود من ثلاثين ألفا إلى سبعين ألفا منهم سبعة وعشرون ألفا من أجناد دمشق وحمص والأردن وفلسطين،وثلاثة آلاف من جند قنسرين،وثلاثة آلاف من جند مصر،بخلاف من انضم إليهم من جند برقة وطرابلس من العرب والموالي والأتباع والمتطوعة[5]. وفي سنة 124 أمدّ هشام ابن عبد الملك حنظلة بن صفوان الكلبي بثلاثين ألفا من المقاتلة[6]. لم يكن هذا وحده المد العربي إلى أرض المغرب، كما لم يتوقف عند هذا الحد ، و بغض النظر عن هذه الأعداد فنحن هنا لسنا بصدد الإحصاء بقدر إعطاء أمثلة عن التدفق العربي إلى بلاد المغرب. غير أن الأستاذ هشام جعيط يؤكد أنّه لا يمكن أن يتجاوز عدد المستقرين العرب نهائيًا في افريقية الخمسين ألف شخص. كان أغلبية العرب القادمين في العهد الأموي من أصل مصري وسوري، غير أن الولاة العباسيين واصلوا استصحاب الشاميين والمصريين جلبوا معها خاصة العراقيين، وعربًا من خرسان، وخرسانيين بحصر المعنى[7]،و كانت منطقة الزاب وبسكرة ونواحيها من بين أهم المناطق التي عرفت حضورًا عربيًا واسعًا وكبير الانتشار. إذ لم تقتصر سكناها -أفرادًا وجماعات- على عاصمة عقبة القيروان، ولا على المناطق الشرقية أو الشمالية الساحلية، بل تجاوز انتشارهم ثم استقرارهم الحدود

---

[1] - هشام جعيط : المرجع السابق، ص 69.

[2] - حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 139.

[3] - مصطفى أبو الضيف أحمد : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ص 38.

[4] - ابن عذارى : البيان، ج1، ص 45. الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، ص 140.

[5] - مصطفى أبو الضيف أحمد عمر : القبائل العربية، ص 40.

[6] - حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 154.

[7] - هشام جعيط : التأسيس، ص 152.

المتخيّلة بأن استوطنوا الثغور والمدن، وكان تمركزهم خاصة في المناطق العسكرية أو التجارية، فكيف بمنطقة جمعت الخاصيتين معًا ؟.

أبو عبيد البكري في مسالكه يذكر في كلامه عن طولقة أنها "ثلاث مدن إحداها يسكنها المولدون والثانية يسكنها اليمن والثالثة يسكنها قيس"[1]. غير أن مؤنس يؤكد أن انقسام هذا البلد الصغير إلى تلك الأقسام الثلاثة يرجع إلى عصر الولاة، لأن الكلام على القيسية واليمنية بدأ في التلاشي بقيام الدولة العباسية ولم يعد له وجود فعلي مع أواخر القرن الثاني الهجري[2].

إذا صحّ هذا التحليل فيمكن تعميم هذا الكلام على العديد من المدن التابعة لبسكرة؛ فمدينة بنطيوس ؛ وهي ثلاثة مدن يقرب بعضها بعضًا، وفي كل مدينة منها جامع، اثنان لأهل السنة والثالثة لقوم من الخوارج، إحداها يسكنها قوم من الفرس يعرفون ببني جريج، والثانية يسكنها المولدون والثالثة يسكنها البربر[3].

كما أن المدينة التي يسكنها القوم الفرس (بنو جريج) لا يمكن إلاّ أن يكون قدومهم منذ

عصر الولاّة ؛ أي في عهد الدولة العباسية أين كانت تبعث الجند الخراسانية إلى النواحي، ومن غير المستبعد أن يكونوا هم الخوارج حيث فرُّوا بأسرهم من كيد وتتبع الخلافة العباسية. ومن غير المستبعد أيضًا أن يكون لها رئيس كما هو الحال مع بعض المدن المغربية، بحيث تدخل بيوتات عربية منطقة ما وتنزل بها وتترأس الناحية وتقوم بحكمها، ومن ثم يجتمع إليها كل من إليها أو من والاها[4]. وربما تتوارث الرياسة بين أفرادها.

أمّا المولّدون فقد عُرفوا بأنهم جنس مختلط نصفهم لاتين ونصفهم بربر. « أما مدينة بسكرة فسكانها المولدون، وحولها من القبائل سدراته، وبنو مغراوة وأهل بيت بني خزر وبنو يزمرتي »[5]، ولاشك أن هذا التنوع الاجتماعي بكل فئاته كان موجودًا منذ البداية أو على الأقل منذ نهاية الولاة، وحتى وجود الفاطميين، مع حدوث أكبر لبعض التغييرات بترحال أو استيطان، ولكن الخارطة البشرية في المنطقة المدروسة في الحقبة المعينة بالدراسة كانت على الأقل كما بيّنتُ، مع زيادة في التنظيم بمرور

[1] - أبو عبيد البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 254.
[2] - مؤنس : المرجع السابق ، ج1، ص 24.
[3] - البكري :المسالك و الممالك ، ج2، ص 254.
[4] - مؤنس : تاريخ المغرب، ج1، ص 242.
[5] - البكري : المصدر السابق، ج2، ص 230.

الوقت، هذا التنظيم والتقسيم البشري في هته المدن الصغيرة -مقارنة بغيرها- وهذا التقسيم الاثني - المذهبي لا يدلنا إلاّ على وجود قاضٍ أو حاكم يفصل في الأمور، أو يعود الأمر إلى مشيخة قوية الجانب فصلت فيه. كما يدلنا أيضا على أن هذا حصل نتيجة -ربما- تصادم ؛ لسنا ندري أكان مذهبيا أو عرقيا، أو خلاقًا على أحد الموارد الطبيعية مثل الماء أو الأرض أو الغلة ؛ فوقع التقسيم في المدن وفي العقار وفي المياه حتى. وفكا للخلاف وإقامةً للتوازن، بني كل مسجده، واكتفى كلٌ بملكه، كما أن الفصل بين اليمينية والقيسية كان فكا للنزاع وتجنبًا لأي صراع قد يحدث.

المتأمل في الخريطة القبلية السكانية لبسكرة وزابها يلاحظ في الوقت ذاته مع تلك الفسيفساء القبلية تنوعًا وتناغمًا إيديولوجيًا واثنيًا. غير خافٍ على احد أن دخول العربية تزامن مع دخول الإسلام تعلمًا وتفقهًا ودراسة، كما اصطبغت المدن المغربية بالتيارات العلمية متأثرةً بالمشرق الإسلامي في كل تفاصيلها العلمية - العقدية الفقهية. وغير خافٍ على أحد أن هذه التقسيمات بكل تفاصيلها قد تغلغلت في النسيج المغربي والبسكري على وجه الخصوص محدثةً نوعًا من الانقسام من أجل تشكيل نواتات أو وحدات وتجمعات سكانية يربطها إمّا العامل الديني (العقدي - الفقهي) أو العامل القبلي (فرس - بربر - عرب) وهو ما أسلفنا الحديث عنه.

كان أول المذاهب ظهورًا المذهب الخارجي[1]، الذي بدأت إرهاصاته مبكرًا، إلاّ أن ظهوره

العلني لم يكن إلاّ مع القرن الثاني للهجرة واتخذوا من جبل نفوسة مقرًا لهم، وانتشروا بعده في أطراف إفريقية والمغرب، ساعدهم على ذلك -كما أسلفنا- جور العمال والولاة، والسياسة الأموية في بلادهم، استغل الخوارج هذه النقطة لينشروا مبادئهم بشقيها الصفرى والإباضي التي ما لبثت أن تشيع وتشبث بها بعض البربر، منهم بعض القبائل المستوطنة منطقة بسكرة فعند قيام الثورة الصفرية سنة 122هـ/739م تم لجوء عكاشة بن أيوب الفزاري إلى تهودة لإعادة تنظيم جيوشه وكان ذلك سنة 124هـ/ 741م، وكذا ما عرفته سنة 155هـ/ 771م من فرار عبد الرحمن بن رستم إليها أيضا وتحصنه بها[2]، وكانت مرجعيتهم جبل نفوسة، يقول ابن حوقل "والجبل - جبل نفوسة - بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيام لهم، وقد أقام من خلفهم على منهاج سلفهم به، وبما قاربه من مدن وهي نفزاوة ولاوجة وبادس وبسكرة يعتقدون آراءهم ويمشون على سنتهن وللسلطان على أهل هذه المدن

[1] - عبد العزيز المحذوب: الصراع المذهبي بإفريقية، الدار التونسية للنشر، 1975م، ص 105.

[2] - تحدثت عن هذا بالتفصيل في المبحث السياسي.

حكم وأمره فيهم نافذ"[1]، ويزيد البكري إحدى مدن بنطيوس " والثالثة لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية إباضية"[2].

يقول البكري عند حديثه عن مدينة تهودا " .. وأهل تهودا على مذهب أهل العراق "[3]، ومن غير ما شك أنّه المذهب الحنفي، وأوضح ما يتميز به أن شعار أصحابه "أنّا نستعد للبلاء قبل وقوعه" فهم لذلك يركنون إلى التقدير والافتراض قبل حدوث المسألة في عالم الواقع. وهذا خلاف المالكية الذين إذا سُئلوا عن مسألة قالوا "دعها حتى تقع".

عرف المغرب المذهب الشيعي الإسماعيلي مع قدوم صاحبي البذر : الحلواني وأبو سفيان، ثم تطور انتشاره مع قدوم الداعي أو عبد الله الصنعاني[2]، ولعل حب المغاربة لرسول الله -ص- وأهل بيته جعل البعض يتقبل بل يقيم الدولة الشيعية على أكتافه، تمكن عبيد الله المهدي على يد أبي عبد الله الداعي من تكوين جيش قادر على تأسيس دولة، ففتح أرض المغرب، وتم فتح بسكرة ضمن الزاب ، غير أن الجديد في هؤلاء القوم أنّهم صدموا أهل المغرب المالكيين السنيين مباشرة بعد تولي عبيد الله ؛ إذ لم تعُد المشكلة هذه المرة في جور الحاكم أو عدله[3] بل تجاوزته إلى حرب دينية عقدية نفسية، إذ أول ما أخذ عليهم هو تقديس أئمتهم ورفعهم إلى درجة الألوهية[4]. وصدرت منهم البدع الكثيرة وغيروا شعائر

---

[1] - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 93.

[2] – لا يهمنا من فرق الخوارج سوى الإباضية والصفرية. أمّا الصفرية فهم أتباع زياد بن الأصفر، ومما يعرفون به أنهم يكفرون القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار، وقالوا التقية جائزة في القول دون العمل. أما الإباضية فهو أتباع عبد الله بن إباض، ومما يقولون به أن مخاليفهم من أهل القبلة كفار غير مشركين ومناكحتهم جائزة، وغنيمة أموالهم عند الحرب حلال وما سواه حرام، وحرام قتلهم وسبيهم في السرّ غيلة. ومما أفتى به المالكية بشأنهم : أنهم لا تجوز شهادتهم مطلقًا، تعليمهم القرآن دون الكتابة جائز، كما أفتوا بضرب الإباضية وسجنهم إذا لم يرجعوا إلى السنة، وبفسخ زواجهم من المالكيات، وبهدم مسجدهم إذ بنوه بالقرب من مسجد أهل السنة اعتبارا لمقتضى الجماعة. انظر مفصلاً : الشهرستاني : الملل والنحل، تعديل وتحقيق : صدقي جمال العطار، بيروت: دار الفكر، ط2، 2002م، ص 110.

[3] - البكري : المسالك والممالك، ج1، ص 255.

2 – المذهب :169 و ما بعد .

3- انظر : الشهرستاني : الملل والنحل، ص 153. أمير عبد العزيز : الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين، بيروت : دار ابن حزم، ط1، 2003م، ص 826.

4- وكان إمام الصلاة له برقادة ثم بالمهدية بعد ذلك أحمد البلوي النحاس يقول "لست ممن يعبد من لا يُرى". ويتوجه إلى عبيد الله بقوله "ارق إلى السماء كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق" ويقول لأهل القيروان : "إنّه يعلم سركم ونجواكم". انظر : ابن عذارى: البيان، ج1، ص 160 .

الدين الإسلامي إلى غير ما عرفه المغاربة أحنافًا ومالكية، وغيّروا القسم[5]. وتحدد أركان الدين عندهم في سبعة،أي بزيادة الولاية التي تقابل الإمامة عند أهل السنة، ومستحقوها هم علي والأئمة من ذريته، والجهاد وهو الركن السابع، والطهارة مع إغفال الشهادتين، والفقه الإسماعيلي يقول بنكاح المتعة، لكن أشياء كثيرة أحدثها الفاطميون أو ألغوها، ومن ذلك : _منعوا التراويح في رمضان،_ بعض خلفائهم كعبيد الله أمروا بسبب الصحابة غير علي وبعض شيعته من الصحابة، _فرضوا توريث الإناث على غرار الذكور_ زادوا وأنقصوا في بعض عبارات الآذان،_ في الخطب الدينية أمروا بالصلاة على علي وفاطمة والحسن والحسين بعد الصلاة على رسول الله ص-[2].

_المذهب المالكي :ينسب المذهب المالكي إلى مؤسسه مالك بن أنس إمام المدينة المنورة، واشتهر بأنه أمّة في الحديث، عدّ من أجل ذلك إمام أهل الحديث ويتلخص مذهبه في الاعتماد على النصوص -من كتاب السنة- واستخدام الرأي لاستنباط الأحكام الشرعية منها ؛ وبعبارة أدق يمتاز بالتزام القرآن والحديث، والابتعاد عن التأويل والاقتصاد وفي القياس ما أمكن[3]، وكان انتقال المذهب نتيجة للتنقل والرحلة بين المشرق والمغرب من أجل طلب العلم من أصوله في المشرق، فقد أقبل الطلبة المغاربة على الجواز دارسين للعلوم الشرعية من منبعها، وأقبل على مجالس مالك هؤلاء الطلبة فوجدوا فيها طلبتهم : فهو يدرس في مدينة رسول الله -ص- فهو في عرفهم أقرب إلى روح الإسلام ممن يدرسون بالكوفة أو البصرة أو الشام، وهو يلتزم الكتاب والسنة، ولا يُفتي إلاّ بحذر شديد وبعد بحث طويل في آيات الكتاب وصحيح الحديث، ولا تكاد تخطر مسألة إلاّ وجد لها أصل من الكتاب أو السنّة يقيس عليه فإذا لم يجد توقف عن الإفتاء والحكم[4].

يقول البكري "وبسكرة علم كثير وأهلها على مذهب أهل المدينة"[5]، ومن غير المعروف تحديدًا متى دخل المذهب المالكي إلى مدينة بسكرة والمدن المحيطة بها التابعة لها، وهل كانت من أوائل المدن

5- لم تكن صيغة اليمين عندهم بما عهده المسلمون بالحلف بالله تعالى أو أحد أسماءه الحسنى،بل جعلوها "وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة" وهي كفر صريح، ابن عذارى : نفسه،، ج1، ص 160. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، 1997م، ص : 52.

[2] - حركات :مدخل إلى تاريخ العلوم،الدار البيضاء:دار الرشاد،ط1 ،2000،ج2، ص 306. لقبال:دور كتامة، ص 413.

- صبحي الصالح : النظم الإسلامية، بيروت : دار العلم للملايين، ط1، 1965م، ص 95 فما بعدها.

[3] - عبد العزيز المحذوب : الصراع المذهبي، ص 39.

- نجم الدين الهنتاتي : المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، تونس : منشورات تبر الزمان، 2004م، ص 73 فما بعدها.

[4] - عبد العزيز المحذوب : نفسه، ص 39-40.

[5] - البكري : المسالك والممالك، ص 229. ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج1، ص 502.

احتضانًا له، لكن المؤكد أن الأهالي اعتنقوا المذهب منذ بداية ظهوره عندهم وعُنوا به دراسة وتدريسًا ودعاية ودعوة وتفقيها وقضاءً، مرجعهم في ذلك كبار علماء المذهب في إفريقية[1] أو في المدينة المنورة أو في مصر أو الأندلس، والدليل على اهتمام أهل بسكرة بالمذهب ما قاله البكري أنّها دار علم، فمن هنا نعرف أن أهلها عرفوا التأليف والتدارس لكتاب الموطأ وفقه مالك ومسائله، ونبغ منها العديد من العلماء والفقهاء ذوي التضلع في المذهب المالكي، وهذا لا يعني بأية حال عدم وجودهم على الساحة.

تعلق جل المغاربة -والحديث ليس بالحصر وإنما للإجمال بما فيهم مغاربة المنطقة المدروسة - بمذهب مالك لا يلتفتون عنه إلى سواه، وإن كان هناك من الخوارج بشقيهم - الصفري والإباضي - والأحناف والشيعة والمعتزلة الكثير التي تمذهبت بهذه المذاهب حتى عرفت بها، لكن الغالبية تمسكت بالمالكية لما فيها من تمسك بأحكام الشريعة ولحبهم للرسول وسنته وحديثه،فقد أدرك المالكية أن مذهبهم هو عاصم أهل المغرب من الفتن والبدع والأهواء فاستمسكوا به، وحاربوا كل من جاء بسواه في مذهب أو عقيدة أو فتوى أو حكم، فسمّوا الأحناف بالمشرقيين واعتبروهم مخالفين، غير أن الصراع هنا كان أساسه:

1 - أن منطلق الخلاف يكمن في إحساس مالكية المغرب بأن مذهبهم هو حصن الإسلام، وكل ما سواه بدع وخرافات وانفتاح قد يؤدي في الأخير إلى الانفلات[2].

2 - أن الأحناف لم يكونوا كلهم في المستوى المطلوب، إذ حاد أكثرهم إن لم نقل جلهم عن الطريق السليم، فقد أغوتهم سلطة الأغالبة، وحكموا بما يرضي الحكام والمسئولين تحت غطاء الرأي والاجتهاد. ما دعا المالكية إلى اعتبارهم غير أكفاء لتحمل المسؤولية.وأحسب أن المالكية لم يكونوا ليقفوا من ظهور المذهب الحنفي وأصحابه موقف المعارضة والعداء لو لم ينهج ممثلوه البارزون منهجا مخالفًا لشعور أهل البلاد ، بتحالفهم مع أعدائهم أرباب السلطان وإظهارهم البدع وتحررهم من بعض القيود الدينية والقيم السنية، ولهذا يمكن القول أن معاداة المالكية لم تكن موجهة ضد المذهب الحنفي وإنما هي تستهدف العراقيين[3]. كما حاربوا المعتزلة والقائلين بخلق القرآن وامتحن في ذلك من العلماء

---

[1] - كان أول من أدخل المذهب المالكي كاملاً إلى إفريقية هو علي بن زياد الذي سمع عن مالك ونقل موطئه. ومن أعلام المذهب المالكي بها عبد الله بن فروخ ، البهلول بن راشد، عبد الله بن غانم، وأسد بن الفرات، ونضج المذهب المالكي على يد الإمام سحنون وابنه محمد.أنظر مفصّلا:المحذوب، المرجع السابق ،ص37 فما بعدها.

[2] - وكان هذا هدف سحنون حين صحح الأسدية ، كتاب أسد بن الفرات، وأرجعها إلى مالكيتها الصحيحة لكي ينفي عن أهل المغرب الاجتهاد والرأي والتأويل.

[3] - المحذوب : الصراع المذهبي، ص 178.

والعامة الكثير، وحورب الإرجاء، أما الخوارج فقد اعتبروا جهادهم قربة إلى الله، فحاربوا الصفرية بلا هوادة حتى تم القضاء عليهم، وتم نفي الإباضية إلى تيهرت وحصرها في جبل نفوسة، وإن لم تكن بينهما مشادات كبيرة مثل ما حدث مع الصفرية وغيرهم، إذا اكتفوا بدولتهم ومشاكلهم الداخلية.

أما الخلاف بين المالكية والشيعة فإنه صراع بعيد ضارب في الأعماق إذ لا يقتصر الخلاف بينهما على الجانب التشريعي الفقهي بل تجاوز الصراع إلى أصول العقيدة أيضا. فالتشريع الشيعي يخالف الفقه السني عمومًا والفقه المالكي خصوصًا مخالفة تكاد تكون مطلقة، وعلى ذلك فقد أجبر المالكية جبرًا على أن يتنحّوا عن مذهبهم المقدس وألاّ يعملوا إلاّ بمقتضى المذهب الشيعي على ما في ذلك من اعتداء على شعورهم الديني وإماتة للسنة الإسلامية الواضحة[1]. ما جعل المالكيين ينفرون بل يفرون ويحاربون كل ما يَمتُّ للشيعة بصلة، وشجعهم أنهم يرونهم في كل ذلك نصرة لسنة رسول الله وصحابته الذين أمروا بلعنهم على المنابر، وغيروا من أوقات الصلاة والصيام والآذان، وغيّروا الميراث والطلاق، والأدهى أنهم أجبروا الناس على إتباع هذا الزيغ والضلال، وسلطوا أشد أنواع التنكيل والعذاب على مخاليفهم من المتمسكين بمذهبهم. ومما أفتى به المالكية أنهم يرون أن الخروج وقطع دولة بني عبيد فرض وأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام، ويرثون ويرثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنّهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين، فلا يتوارثون معهم ولا ينسبون إليهم، وقالوا:قتالهم أفضل من قتال المشركين، وأجمع أهل القيروان من المالكية على أنّهم ملاعين أشد كفرًا ونفاقا من النصارى بل من المشركين[2].

والجدير بالذكر أنّه على الرغم عن كل الصراعات التي كانت قائمة في المغرب إذ ذلك إلاّ أنّه ليس لدينا أي حديث عن هذا الصراع في الأطراف وفي بسكرة ونواحيها تحديدا، وهل كانت المدينة من المراكز التي تبنّت الدعوة، أم لا كما لا نجد في المصادر أي حديث عن المناظرات بين علمائها وعلماء الشيعة، وإن كان الأكيد هو انضواؤها تحت راية الدولة الفاطمية اسميًا. سادت المغرب بكل تفاصيله الجغرافية اختلافات مذهبية؛ ومناظرات ومشادّات أحيانًا، أدت إلى القتل والتعذيب والتمثيل، غير أنّها أثرت الجو الأدبي والعلمي في المنطقة وزادت السنة المالكية إشعاعًا ونورًا وتمكينا في أرض المغرب وهذا ما يظهر جليًا بدءًا من القرن الخامس.

إن العالمين الوحيدين الذين تكلمت عليهما المصادر، المنتميان إلى منطقة بسكرة هما : أبو عبد

[1] - كانت هذه الفتوى أبو الفضل المسي : انظر : المحذوب، الصراع المذهبي، ص 173.

[2] - نفسه :185 .

الملك الملشوني وابنه إسحاق الذين ينتميان إلى ملشون إحدى قرى بسكرة قال أبو العرب عمّن حدثه أنّه رأى ابن الملشوني عند سحنون "أحسبه يسمع عنه" وكان الرجلين عالمان في المذهب المالكي، وكانا ممن يحمل عنهما العلم، ذائعي الصيت والشهرة، لهما باع طويل في فقه المذهب، والدليل أن أمراء بني الأغلب كانوا يرسلون إلى إسحاق فيكون عندهم في رمضان. ليست لدينا أية معلومات عن تاريخ الولادة أو الوفاة المتعلقة بهذا العالم ونجله غير أن المؤكد أنهما عاشا في العصر الأغلبي[1].

[1] - أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ،ص 191.

الفصل الثاني

الإرهاصات الأولى لميلاد المدينة - الدولة (ق 5-6هـ/11-12م)

1- بسكرة بين بني رمان وبني سندي

- من بني رمان إلى بني سندي
- بسكرة في قلب الحركات المناوئة للموحدين.

2- التأكيد على الأهمية الاقتصادية للمنطقة

3- أرياف إباضية في مواجهة حواضر سنية

- اجتماعياً.
- ثقافياً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 –بسكرة من بني رمان إلى بني سندي :

– من بني رمان إلى بني سندي

إن الدولة الفاطمية التي لم تدم ببلاد المغرب سوى خمسًا وستين سنة أرست قواعد دولة بربرية مستقلة بذاتها، فتوج هذا تطورًا استغرق أكثر من أربعة قرون. عندما ودَّع بلكين المعز[1] قبل استقراره بالقاهرة، كانت الأمور تسير تدريجيا إلى الاستقلال والافتراق رغم كل الاحتياطات والضمانات[2]. **وقبل** هذا بقليل، وبترخيص من المعز ؛ إنطلق بلكين بن زيري في حملة انتقامية، شنها على زناتة ومزّاتة وهوّارة ونفزة وغيرهم من البربر انتقاما لمقتل أبيه زيري بن مناد[3]، فبادر بتطهير ضواحي طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة إلى أن وصل إلى تاهرت[4]. غير أن المحيِّر في الأمر أن زيري مات قرب **تاهرت، فلماذا** شملت الحملة التأديبية المناطق الشرقية ؟ فهل يعني هذا تخويف القبائل الزناتية المقيمة في هذه المناطق **-والمعلوم** أن زناتة كانت من أوفر القبائل في المنطقة المعنية بالدراسة- **أم ليقين بلكين بمشاركتهم أو على الأقل مباركتهم لحرب زيري ومقتله**[5].

---

1 - لما اعتزم المعز المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب، فاستدعى جعفر بن علي بن حمدون فأجابه: تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالسًا في القصر، وأنا أدبّر، ولا تسألني عن شيء من الأموال **لأن ما أجبيه يكون بإزاء ما أنفقه، وإذا أردتُ شيئًا** فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبُعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي. فغضب المعز، وقال : يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي شريكًا في أمري. واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك. واستدعى يوسف بن زيري وقال له : تأهب لخلافة المغرب، فأكبر ابن زيري العرض

وقال : يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من أهل البيت ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا عبد صنهاجي بربري ؟ قتلتني يا مولانا **بلا سيف ولا رمح. فلم يزل** به حتى أجاب. فلما انصرف قال عم أبيه أبو طالب أحمد بن المهدي : يا مولانا وثق في هذا القول من يوسف أن يفي بما ذكره ؟ فقال المعز : يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر، واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءً من آخر ما يصل إليه أمر يوسف، فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر، ولكن هذا أحسن وأجود عند ذوي العقول، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره. المقريزي : الخطط المقريزية، لبنان : دار إحياء العلوم، ج2، ص 158.الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 77. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص 55.

2 - عبد الله العروي : المجمل، ص 230.

3 - بعد خروج جعفر بن علي على الحكم الفاطمي والتحاقه ببني أمية مقيما بين زناتة، وانتقامًا لسيده خرج زيري بن مناد لحربه، لكن في إحدى المعارك كَبَابِهِ فرسه فسقط ومات سنة 361هـ/971م، وأخذ رأسه إلى قرطبة. ابن خلدون : العبر ، ج4، ص 205.

4 – مجهول : مفاخر البربر، تحقيق : محمد يعلى،مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، 1996م، ص 135. إدريس : المرجع السابق، ج1، ص 69.

5 - يقول صاحب مفاخر البربر "ثم انثنى على بواديها وصحاريها فقتل من زناتة وهوّارة وجميع أصناف البربر وهو يقول "لا أمان عندي لبربري ركب فرسًا أو نتج خيلاً أبدًا حيث ما سلك من البلاد" مجهول: المصدر السابق، ص 135.

وعلى إثر هذه المعركة التي بلغت أقصى المغرب[1] **وأدّبت سكان المغرب الأوسط، وطمأنت** الخليفة على المغرب وأهله، كتب المعز لبلقين ملك أبيه زيري وأضاف له أعمال المسيلة وجميع الزاب، وما **كان تحت يد جعفر بن علي**[2].

وقبل انصرافه كحاكم على كل المغرب،اختار عمالاً للمدن الراجعة إليه بالنظر، وهي تاهرت وأشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية وغيرها[3]، ونحن نجهل من تولّى هذه المناطق، وبالخصوص المنطقة المعنية بالدراسة. غير أن الملاحظ أنهم كانوا من رجالاته المخلصين. ومن المهم ذكره أنّه وابتداءً من هذه المرحلة تدخل المنطقة حيز التهميش من قِبل المؤرخين **كما حصل مع أغلب مدن المغرب، فلا نجدهم** يوردون أية إشارة عن منطقة بسكرة والزاب ؛ ربما لاهتمامهم بالصراع بين بني زيري وبني أمية وأحلافهم. غير أن المصادر أسعفتنا بذكر والي طبنة منذ سنة 379هـ/989م، **وهو سعيد بن خزرون بن فلفل** الزناتي[4]، **أحد كبار الناقمين على صنهاجة** سالفًا، والذي شق عصا الطاعة على بني أمية وانضم إلى **المنصور الزيري**[5] الذي زوّج ابنته من وزُّو بن سعيد[6]، واستمر في حكم طبنة سنين، وانجرّ عن هذا انضمام كثير من زناتة إلى الحكم الزيري، ومما لا شك فيه موالاة زناتة القاطنة في المناطق التابعة لحكمه **أيضا للمنصور** وذلك لإتباع سعيد له. وفي سنة 382هـ/992م ارتحل سعيد بن خزرون إلى المنصورية عاصمة، ومات بها، وفي السنة نفسها وصل إلى المنصور فلفل بن سعيد بن خزرون بعد موت أبيه، فردَّه إلى طبنة أميرا عليها[7].

يذكر إدريس أن بلقين قبل أن ينصرف إلى المنصورية أميراً على المغرب، عيّن ولاته على الكثير من الأقاليم، والتي من بينها بسكرة التي عيّن عليها رجلاً من خاصته[8]. **فإذا صحّ هذا عندنا فإن بسكرة** تكون قد استقلت عن طبنة والمسيلة نهائيًا ورجع أمرها مباشرة إلى الأمير في المنصورية، وأيضا من غير المستبعد أن يعود أمرها إلى بني خزرون في طبنة، فمن الممكن أن تتبع زناتة بسكرة أميرها الزناتي، وإليه

---

1 - انظر مفصلاً : النويري :نهاية الأرب، ج 24، ص 165. ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 205.

2 - النويري : نفسه، ج 24، ص 165.

3 - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 70.

4 - ابن عذاري: البيان، ج1، ص 244. إدريس: المرجع السابق ،ج1، ص 90

5 - ابن الخطيب : تاريخ المغرب في العصر الوسيط، القسم الثالث من أعمال الأعلام، تحقيق : أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتب العلمية ، ص 67.

6 - ابن عذارى: المصدر السابق، ص 244.

7 - نفسه، ج1، ص 246.

8 - إدريس : المرجع السابق، ج1، ص 70.

تعود لحل ما أشكل عندها.

كُثر الخارجون على المنصور بن بلقين الزيري، فقد كانت الحرب بينه وبين الزناتيين والأمويين معًا على أشدها، وكان مسرحها المغرب الأقصى والأوسط غير أن الحرب امتدت واتسعت بدخول **عمه أبو البهار بن زيري** سنة 379هـ/989م[1]، فقد تطور الخلاف إلى الحرب التي رجحت كفّتها لصالح أبي البهار الذي استولى على قسم من المغرب الأوسط يمتد من الزاب والونشريس إلى وهران[2]. ولفظ الزاب هنا ورد مجرّدًا من أي تحديد جغرافي بإمكانه إسعافنا وتأكيد إمكانية دخول **بسكرة فيه، لكن من** الواضح أن سكانها انضموا إلى خلاف أبي البهار سواء طوعًا أو كراهية، لأن لفظ الزاب في هذه الفترة بدأ يتحدد في هذه المنطقة المعنية بالدراسة أي بسكرة وزيبانها (نواحيها). المهم في الأمر أن الخطبة أصبحت تلقى في جميع مساجد تلك البلاد الممتدة الأطراف باسم الخليفة هشام المؤيّد ؛ الخليفة الأموي في الأندلس، لكن بعد الخلاف الذي دبَّ بين أبي البهار والخليفة في الأندلس وعدول أبي البهار إلى حظيرة المنصور سنة 382هـ/992م استولت الخلافة الأموية عن طريق زيري بن عطية المغراوي[3] **على تلمسان وكل** المناطق التي كانت خاضعة للزيري الثائر، وأصبحت سلطة زيري بن عطية تمتد من المغرب الأقصى إلى الزاب[4].

ولسنا ندري متى تم استرجاع الزاب من أيدي المغراويين، المهم أنّه بعد سنوات قليلة توفي المنصور، **واعتلى ابنه أبو مناد باديس إمارة إفريقية والمغرب وذلك سنة** 386هـ/996م، **وعلى الرغم من حداثة** سنِّه إلاّ أنّه اتخذ عدة إجراءات من بينها عقد ولاية أشير لعمِّه حماد بن أبي الفتوح، فخرج عاملا **عليها**[5]. ويبدو أن حمادًا احتفظ أيضا بالمسيلة والزاب، وأصبح يحكم باسم باديس بلاد المغرب الأوسط التي كان يتولى هو نفسه أمورها إلى حد ذلك التاريخ، وسوف نرى أن حمادًا لن يتأخر عن التوسيع من نطاق سلطته وتكوين جيش فعلي وجمع ثروة طائلة، وسينتهي به الأمر إلى الثورة وإنشاء الدولة القوية

---

1 - انظر مفصّلاً : ابن خلدون:العبر،ج6، ص 208. ابن الأثير : الكامل: ج7، ص 441. مجهول : مفاخر البربر، ص 156. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 244.

2 - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 115. محمد بن عميرة : درو زناتة، ص 262.

3 - ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 155. مجهول : المصدر السابق ، ص 174. فيلالي : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، الجزائر : دار هومة، 2007، ص 279.

4 - إدريس : المرجع السابق،ج1، ص 118. محمد بن عميرة : المرجع السابق، ص 263

5 - النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 185.

التي سوف تحمل اسمه في المغرب الأوسط[1].

اتسمت السنوات الأولى من تولي باديس الإمارة بالحروب التي كانت كلها مصوّبة نحو هدف واحد هو ردع الثائرين الزناتيين المغراويين[2]، وكذا القضاء على أعمام أبيه[3]. كما كان من المحتّم القضاء على ثورة بني سعيد بن خزرون [4]. والواضح لدينا أن الجهة الجنوبية من إفريقية -بسكرة ونواحيها- كانت هادئة لعدم ورود أي حديث عن تدخلها في هذا الصراع، أو وجود أي اضطراب بالمنطقة، على الرغم من انشغال الإمارة وكذا انشغال حماد وعمّال أشير ،وربما يعود هذا إلى إحكام السيطرة عليها من قبل ولاة المنطقة، غير أن جهود حمّاد المبذولة بكل القوة والعنف الذين حارب مما زناتة من أجل إجلائها إلى المغرب الأقصى كانت في النهاية كتوجٍّه نحو هدف واحد هو إرساء أسس الدولة التي يطمح حماد إلى إقامتها.

تكللت انتصارات حماد في الجهة الغربية من المغرب الأوسط ببناء قلعته التي عرفت باسمه وببنيه من بعده، وذلك سنة 390هـ/999م، والتي شيدّها مركزًا يلَمُّ جيوشه، ويمكنه اعتمادها قاعدة عسكرية ثابتة في المغرب الأوسط، منها تنطلق حملاته، ويمكنه تثبيت ملكه من خلالها وتحقيق طموحه الاستقلالي باتخاذها عاصمة إقليمية لدولة لم تتحقق بعد، وبعد طول مدٍ وجزر في الحرب بينه وبين ابن أخيه أبي باديس ثم ابنه المعز من بعده، وعلى إثر الهزيمة التي منيَ بها جيش حماد[5]، فقد تمّ الاتفاق بين الطرفين على ولاية حماد على المسيلة وطبنة وأشير والقلعة إلى تيهرت وبلاد الزاب، وكل ما يفتح له من

---

1 - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 121.

2 - انظر هذه القضية مفصّلة :محمد بن عميرة : دور زناتة،ص 270 فما بعدها.

3 - ليس من شك أن صغر سن باديس الذي كان لا يتجاوز الثانية عشرة سنة عند وفاة المنصور،كان من العوامل التي كان من شأنها أن تغري بعض أعمامه الذين تمرسوا على الحرب والسياسة بمحاولة الاستيلاء على الحكم،إلاّ أن هذه الثورة باءت بالفشل الذريع وانتهت بمقتل أو تغريب جميع الخارجين من بني زيري بن مناد. انظر مفصلاً : ابن الأثير : الكامل، ج8، ص 7. ابن خلدون : العبر، ج6، ص 209.

4 - منهم : فلفل بن سعيد وخزرون بن سعيد، وبرو بن سعيد الذين خالفوا على باديس واستولوا على طرابلس. راجع هذا مفصّلاً : إدريس : المرجع السابق، ج1، ص 135 فما بعد.

5 - في أوائل سنة 408هـ/1017م،زحف حماد على باغاية بعد أن استولى على أشير والمسيلة، ومباشرة بعد أن وصلت الأخبار إلى المعز سار على رأس جيشه حتى انتهى إلى باغاية وفك عنها الحصار ودخل الجيشان في معركة انتهت بهزيمة حماد، وزحف المعز على بعض المدن التي استولى عليها حماد واسترجعها، عندئذ طلب حماد الصلح، فتم له ذلك. انظر: إسماعيل العربي : دولة بني حماد، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص 116.

المغرب[1]. وبذلك أصبح استقلال المغرب الأوسط حقيقة واقعة، وسيتوارث أبناء حماد هذه البلاد أكثر من قرن من الزمن.

ومما يجدر بنا ذكره أن حمادًا لما شق عصا الطاعة في وجه باديس سنة 405هـ/1014م؛ إتخذ إجراءً جريئًا جدًا من شأنه أن يُغيّر توجُّه المغرب الأوسط، وبلا شك منطقة الزاب السنيّة، وذلك أنّه أعلن خلع طاعة العبيديين وتحويلها إلى العباسيين، وأمر بقتل الشيعة وأظهر المذهب السني إلى النور بعد أن حورب لأكثر من قرن ونصف من الزمن[2].

، هذه المرحلة عرفت بسكرة نوعًا من الوعي بالذات ما أدّى بها إلى محاولة النهوض والمبادرة إلى الاستقلال، في طريقها نحو التخلص من التبعية. في إطارها العام عرفت هذه المرحلة تغيرا كبيرا على المستوى الجيوسياسي في بلاد المغرب ككل، وذلك إثر تمكن حماد بن بلكين من تشكيل نظام حكم مركزي متخذًا من القلعة التي بناها سنة 398هـ/1007م، عاصمة له، ونتج عن هذا الميلادُ السياسي والجغرافي لبلاد المغرب الأوسط، بعدما كانت هامشية ومقسمة بين إفريقية والمغرب الأقصى[3]. هذا ما يعني أن مركز الحكم قد زاد في القرب بما يحويه من معاني المراقبة والسيطرة وإحكام القبضة على المنطقة بالمقارنة مع بُعد المسافة بين الزاب وإفريقية. ما يثير التعليق انطلاقًا من هنا : لماذا يحاول سكان الزاب الاستقلال وقد قُرب إليهم الحاكم ؟ أفلم تكن محاولات الاستقلال أجدى والمركز في إفريقية أنأى وأبعد وآمن ساعة الانتقام ؟

بداية من القرن الخامس انتقلت المدينة إلى الحكم الحمادي الذي اتخذ من القلعة عاصمة له، وكان من نتائج هذا التحول انتقال الزعامة أيضا إلى مشيختها التي كانت بيد بني رمان الذين تم تعيينهم عن قبل الإدارة الحمادية[4]، والواجب ذكره في هذا المقام أن هذه هي المرة الأولى التي يدوّن فيها اسم من يتولى منطقة بسكرة ونواحيها. ومما لاشك فيه أن هؤلاء شكلوا قيادة جماعية شوريّة من قبل أسرة ذات عصبية قوية. فحسب النظرية الخلدونية فإن "الرئاسة لا تكون إلاّ بالغلب، والغلب لا يكون

1 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 210. ابن الأثير : الكامل:ج8، ص 86-90. النويري: نهاية الأرب، ج24، ص206.

2 - يقول ابن خلدون "فأبى حماد وخالف دعوة باديس، وقتل الرافضة وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين، ونبذ طاعة العبيديين جملة. ابن خلدون : نفسه، ج6، ص 228.

3 - علاوة عمارة : دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، ص 100.
الشيخ سليمان داود بن يوسف : حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، الجزائر : مطبعة أبو داوود ، 1993م، ص 80-81.

4 - يقول ابن خلدون :"وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعة لعهد صنهاجة ملوك القلعة من بني رمّان من أهلها بما كثروا مساكنها، ملكوا عامة ضياعها". ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6، ص 585.

إلاّ بالعصبية، فلابد في الرئاسة على القوم من عصبية غالبة لهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحسّت بغلب عصبية الرئيس لهم أقرُّوا بالإذعان والإتباع"[1].

ما يؤيد هذا تأكيد ابن خلدون نفسه أنهم كثّروا المساكن، وملكوا عامة الضياع، ودون شك فإن النص يدلنا أن بني رمان من الكثرة بحيث استبحر عمرانهم واتّسع، وكثرت بيوتاتهم وانتشرت. وبالنظر إلى غنى الأسرة فقد ملكوا الأراضي والضياع والغابات والأجنة وبالتأكيد السيطرة على الحزام الغراسي الزراعي المحيط بالمدينة.

انطلاقا مما سبق، فمن الواضح أن هذا القبيل الأرستقراطي -إن صحّ التعبير- **الذي فُضّل على** أهل المنطقة بغِناه وكثرته، والذي تملّك إقطاعات كبيرة من الضِّياع والغابات والسواني ؛ يعتبر أصيل المنطقة البسكرية، فلئن تعددت الأجناس وتنوّعت مشكّلةً الخريطة الاجتماعية للزاب البسكري، فإن هذه الأسرة تُعدُّ من بقايا الإرث اللاتنيو- بيزنطي[2]، **أو السكان الأصليون للمنطقة الذين حافظوا على** إرثهم وأصولهم، رغم اختلاطهم بعرب الفتح، وفي الغالب فهؤلاء هم المولدون الذين يشكلون جزءاً لا يهان به من التركيبة السكانية للمنطقة، والذين عُرّفوا بأنهم جنس مختلط بين اللاتين والبربر، أو **المنحدرون من أصول إفريقية**[3]، والذين في الواقع **اختلطوا بالعرب عن طريق النسب وانصهروا معهم. وإن كنّا نجهل تماماً أخبارهم قبل هذا العهد، وفيمن كانت رياستهم. بل السؤال الذي يطرح نفسه : أين** كانوا قبل توليّهم ؟ وربما السؤال الأجدر بالطرح هو : هل كان لهم نوع من الرئاسة قبل هذا الوقت أم **كان هذا أول عهدهم بها ؟.**

ن الواضح وهم من الغلبة والمال والكثرة، بأنهم من كبراء المدينة (ربما كان لهم زعيم واحد يحكمهم ويوحد كلمتهم، ويفض الخلافات بينهم). لكن الواضح من كلام صاحب العبر أن هذا أول حكم لهم، وإن كانت تعوزنا المعلومات عن أول من ترأس منهم وعن وضعية الزاب السياسية في ذلك الوقت. وخلاصة القول أنّهم أحكَموا قبضتهم على زيبان بسكرة مدينةً مدينة على الرغم من اختلاف التركيبة السكانية وحتى تنوع الأعراق والانتماءات المذهبية إلا أننا لم نجد طيلة هذه الفترة المدروسة أية

---

1 - ابن خلدون : المقدمة ، ص 104. مصطفى الشكعة : الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون، القاهرة : الدار اللبنانية المصرية، ط3، 1992م، ص 143.

2 - عمارة علاوة : الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب،ص 16.

3 - أنظر مفصّلا :

Michael Brette : « Ibn Khaldoun and the dynastic approach to local History : the case of Bishra » - p : 159), 1al-Quntarar, Madrid (199

اختلالات في النظام العام سواء بثورة أو هيجان أو خروج.

بنو رمان الذين بدأوا عهدهم معيّنون من قبل السلطة الحمادية، سواء نتج ارتقاؤهم لهذا المنصب عن تأييد من السكان الذين عينوهم كمجلس شوري محلي ؛ أم كان برغبة السلطة في القلعة نظرًا لولائهم ومولاتهم، فإن المعطيات الجديدة التي حددتها الفترة التي تلت حكمهم - ربما قوة نفوذهم وكثرة ما امتلكوا من عقارٍ وأراضٍ وأجنةٍ بسبب الظروف المحيطة بهم، والتي شهدها المغرب ككل وهي الهجرة الهلالية[1] واضطراب الأوضاع في إفريقية والمغرب الأوسط- جعلت تفكير رئيسهم في تلك الفترة جعفر بن أبي رمّان يفكر جديًا في الانفصال عن العاصمة القلعة بعد خمسين سنة من الولاء والتبعية.

أمّا عن بني هلال فإن مبتدأ قضيتهم كان تأديبيًا للمعز الصنهاجي العبد الآبق[2] والذي بدا أكثر جرأة من أسلافه، إذ وبعد سنوات طويلة من تذبذب بل توتر العلاقة مع الفاطميين أعلن وبصفة نهائية القطيعة مع القاهرة، وذلك سنة 441هـ/1049م، بعد إلغائه جميع ما يمثلهم في إفريقية، أو ما يدل على استمرار التبعية المذهبية والسياسية لهم. بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين أعلن البيعة للقائم العباسي وسب الأئمة الفاطميين على المنابر[3]. وبالفعل فقد بدأت طلائع بني هلال في جواز النيل والنفوذ إلى بلاد المغرب.

قبل سنة 443هـ/1051م لا يمكن تصوُّر دخول الهلاليين منطقة الزاب،لأن هدفهم الأول كان متوجهًا نحو القيروان ونواحيها أو ما يوصل إليها،أما بعد هذا الانتصار للقبائل العربية على حساب بني زيري،فقد مضى كل قبيل يبحث عن أرضٍ تناسبه وتُؤويه.ومن الواضح أن الزناتيين والهلاليين لم يستطيعوا التعايش في إفريقية،لذا فقد أجلى بنو هلال الزناتيين من جنوب إفريقية إلى جنوب المغرب الأوسط أمثال بني غمرت الذين أجبروا على الإقامة في شمال الزاب وجنوب المسيلة كما تخلى بنو مرين و بني عبد الوادي عن أراضيهم لصالح القبائل الهلالية[4]. لكن الزناتيين لم يكونوا ليقبلوا هذا الوضع

---

1 - انظر مفصّلا : ابن خلدون : العبر، ج6، ص 17 فما بعد. النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 209. ابن أبي دينار : المؤنس، لبنان : دار المسيرة، ط2، 1993م، ص78 فما بعدها. ابن عذارى : البيان، ج1، ص 288. إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 247 فما بعدها. عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب، ص 252 فما بعدها.

2 - وهذا تعبير الوزير الفاطمي اليازوري الذي تقلد الوزارة سنة 442هـ/1050م، ووصف بقاضي القضاة وعندما أباح للعرب دخول المغرب قال مقولته الشهيرة"قد أبحت لكم المغرب وملك المعز بن باديس العبد الآبق فلا تفتقرون". ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص 20. إدريس : المرجع السابق، ج1، ص 239.

3 - ابن خلدون : نفسه، ج6، ص 22.

4 - يؤكد محمد الميلي أن بني مرين و بني عبد الوادي نزحوا غربا عند مقدم بني هلال ،انظر مفصّلا:محمد الميلي و عبد الله شريط: الجزائر في مرآة التاريخ ،قسنطينة :مكتبة البعث ، ط1 ،1965 ،ص 99

فثارت مجموعة منهم وهي مجموعة بني ياسين بإيعاز من بني يعلى بتلمسان،وقد عيّن أمير تلمسان وزيره أبا سعدة خليفة اليفرني على رأس مجموعة كبيرة من بني ياسين الذين خاضوا معارك طاحنة طوال سنين عديدة ضد الهلاليين في منطقة الزاب وسهول التل.إلا أن مصرع أبي سعدة أثناء إحدى المعارك قد أفضى إلى انفصام التحالف الزناتي و تشتت عناصره،وأصبح جبل راشد (العمور) ومزاب يمثلان الحد الفاصل بين الزناتيين والعرب.

أما بنو حماد الذين عجزوا عن التصدي لهؤلاء ؛ فقد اضطروا إلى التفاهم معهم عن طريق التحالف مع الأثبج والتنازل عن البوادي لفائدتهم[1].والواضح أن نزول عرب الأثبج بمنطقة الزاب كان في هذه الفترة، مما يؤكد ذلك نتائج حرب بلقين بن محمد بمعيَّة الأثبج (الحلف الحمادي الهلالي) لزناتة سنة 449هـ/1057م، والتي كانت نتائجها لصالح الحماديين وحلفائهم، مما اضطر الزناتيين إلى الإلتجاء هذه المرة إلى الصحراء بدل التل، وحصّن بنو وركلا بلدة ورقلة، التي فرَّ إليها عدد كبير من زناتة في الوقت الذي استحوذ فيه الأثبج على بعض الممتلكات في سهول الزاب وقلعة بني حماد[2].

غير أن الجدير ذكره والإشارة إليه في هذا المقام أنّه وفي هذه الفترة التي شكّلت مرحلة السيطرة لالية على أغلب إفريقية، وانحسار ملك بني زيري في الساحل ؛ فإنها تعتبر مرحلة قوة بالنسبة لبني حماد الذين اطمئنوا إلى ضعف بني عمومتهم، و أحلافهم من بني هلال الذين أقطعوهم الجزء الجنوبي من المغرب الأوسط والزاب. وعلى الرغم من هذا فإن الأوضاع في مدينة بسكرة -على الأقل- لم تكن تنبؤ بالفوضى أو محاربة أهلها ورفضهم للهلاليين. بل على العكس فقد عرفت بسكرة منذ سنة 450هـ/1057م محاولةً استقلاليةً، فبعد تعاقب الأمراء الثلاثة حتى بلقين بن محمد[3] والذي تصدّر الحكم سنة 447هـ/1055م، وبعد أكثر من خمسة عقود من الزمن، وعلى الرغم من جهلنا من تولى من بني رمان الحكم في بسكرة خلال هذه السنين، إلاّ أن الواضح أن المنطقة في هذه الفترة قد عرفت استقرارا سياسياً، والأكيد تطوراً اقتصاديا، ما جعل جعفر بن رمان يُحكم القبضة على المدينة وما وليّت

1 - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 289. محمد الأمين بلغيث : دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، الجزائر : دار التنوير، 2006م، ص 49. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة : دار الفكر العربي، 1999م، ص190.

2 - إدريس ،المرجع السابق، ج1، ص 289.

3 - حكم الدولة الحمادية : حماد بن بلكين (408هـ/1018م- 419هـ/1029م)، القائد بن حماد (419هـ/1029م- 446هـ/1054م) محسن بن القائد (446هـ/1054م- 447هـ/1055م) ثم بلقين بن محمد (447هـ/1055م- 454هـ/1062م).

راجع رشيد بورويبة : الدولة الحمادية. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1977م، ص 35 فما بعدها.

عليه من مدن وقرى وأرياف ومن ثمّةَ إعلانه الخروج عن الطاعة بأن نزع يده من يد بني حماد تطلعًا إلى الحكم الذاتي للمنطقة و ثقةً بما يملك. ومن غير المستبعد أن يكون قد كوّن جيشًا قويًا قادرًا -في نظره- على الحماية في حالة حدوث أي طارئ، خاصة من قِبل الإدارة الحمادية.

والسؤال الذي يُطرح هنا : ما القوة التي امتلكها بنورمان وسكان بسكرة، والتي جعلت من جعفر يطمح مباشرة إلى الانفصال عن الإمارة الأم ؟ وبصفة تامة ومطلقة. نحن نجهل كل ما يتعلق بهذه الانتفاضة[1] بظروفها المحيطة بها، أو ما إذا كانت للعرب مشاركات ضمن أهلها، لكن لم يكن المؤرخون ليُغفلوا هذا لو حدث. المهم أن هذا الخروج قد أثار بلقين بن محمد لدرجة أنه قمع هذه الثورة بحدَّة، وكانت نتائجها جد سيئة على الوضع في المنطقة. فقد أنفذ بلقين بن محمد جيشًا بقيادة خلف بن أبي حيدرة فقتل جعفر ابن أبي رمان بعد استيلائه عن المدينة عنوة، وحمل رؤساء هذه الحركة الانفصالية ومن تعاون معهم إلى القلعة حيث أمر بلقين بقتلهم جميعًا[2].

وعلى إثر هذه الثورة ؛ قام الأمير الحمادي بإجراء من شأنه -في نظره- فرض السِّلم وضبط أمور الزاب وتحقيق الموالاة والتبعية، لذا فقد عيّن مجلسًا آخر من أعضاء جدد وعيّن على رأسهم هذه المرة أسرة جديدة وهم بنو سندي[3] الذين يعتبرون هم أيضا من المولّدين المنحدرون من أصل إفريقي-لاتيني ومرة أخرى تعوزنا المعلومات حول هؤلاء الرؤساء الجدد فنحن نجهل مكانتهم في المنطقة، إلاّ أن المرجّح أنهم كانوا من أعيان بسكرة ولهم من الأهمية مكانة جعلت حكام القلعة يوكلون إليهم مهمة الحفاظ ى سلامة وأمن وبصفة خاصة وأكيدة تبعية المنطقة، ومن غير المستبعد أنهم هم الذين وقفوا ضد الحركة الانفصالية التي أعلنها بنو رمان، وساعدوا بلقين في الدخول إلى المدينة.

ولكن الأعضاء المتبقون من الحكومة السابقة من بني رمّان وحلفائهم ما لبثوا أن ظهروا من جديد بعد حوالي خمس سنوات، تحديدًا في عهد الناصر بن علناس الذي ابتدأ عهده سنة 454هـ/1062م، إذ ظهر فيهم التّوقُ إلى الحكم مرة أخرى، بل الرغبة في الانتقام، ويظهر لنا جليًا في هذه المرحلة بالذات الثورة من أجل التحرر والاستقلال من التبعية للأمير الحمادي، فمن غير المعقول أن يُعيد تنصيب من أعلنوا الخروج على الحكم سلفًا، وبالتالي فما من سبيل أمامهم سوى الاعتماد على بقايا الشيوخ أو الجماعة التي كانت متولية لتسيير شؤون الزاب وتجميع القوات المحلية وتكوين جيش قوي مرة أخرى قادر

1 - أو هكذا اصطلح عليها الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 288.

2 - انظر بالتفصيل : ابن خلدون : العبر، ج4، ص 230.

- عبد الرحمن خليفة : في علم السياسة الإسلامي، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1989م، ص 295.

3 - ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص 585.

على صدِّ هجمات الناصر، والأولى القضاء على الرؤساء الجدد من بني سندي.

وبالفعل فقد أفضى الانقلاب السياسي الذي قام به بنو رمّان إلى إسقاط المجلس الشوري الجديد المكوّن من بني سندي وأحلافهم، وربما أدى ذلك إلى تصفية كبارهم أو حدوث ثورة داخلية، لكن في الأخير خلع بنو رمّان يد الطاعة عن الحماديين، وتم رجوع السلطة المحلية من بني جعفر بن رمان إلى تجديد العهد. ومن الواضح أن هذه الأحداث كانت مثاراً لقلق الناصر بن علناس الذي تأكد من طموح هذه الأسرة،وأدَّى به خوفه من استقلال الزاب وانفراد أعيانه وشيوخه بالحكم إلى تجهيز جيش قوي، ومرة أخرى بقيادة خلف بن أبي حيدرة لقمع الثورة دون شفقة، وبالفعل فقد استولى على المدينة، وحمل الثوار ومن والاهم إلى القلعة حيث قتلوا وصُلبوا، وأعاد بني سندي إلى الحكم[1]، **مع القضاء التام على أية شرارة يمكنها أن** شعل فتيل الثورة من جديد. وبهذا تم القضاء على أول حركة استقلالية في لمنطقة، ووضع نظام موالي للأمير، أين استمر بالفعل في حكم المنطقة إلى حين انهيار الدولة الحمادية **واستلام الموحدين حكم المغرب.**

والحقيقة أن بني حمّاد في هذه الفترة أصبحوا القوة الحقيقية في **المغرب كلّه**[2]**، ولكن** طموحات الأمير الناصر التوسعية في المغربين الأدنى والأوسط باءت بالفشل أحيانا بعد هزيمة سبيبة[3]، بل عكس ذلك أضطر إلى مهادنة العرب الهلالية وقبول سيطرة الأثبج على أراضيه.

وبغض النظر على الأحداث التي توالت على إفريقية والمغرب في تلك الفترة، إثر تملّك بني هلال للبلاد مدينة بعد أخرى، وتنامي قوتهم سنة بعد سنة، ما أدّى إلى انحسار ملك بني زيري بشقيهم، فإننا لم نسمع عن مدينة بسكرة وما يتبعها ما ينبئ بأي اضطراب، وربما هذا بسبب سكوت المصادر عن الحديث عن المناطق الطرفية بإفريقية، ومن الواضح أن بني سندي كانوا على قدر المهمة التي أوكلت إليهم، فعلى الرغم من انتقال العاصمة إلى بجاية[4]، فقد ظلوا على ولائهم التام لسلطان بني حماد حتى

---

1 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 585.

2 – وهذا لأن زناتة التي شتتها الملثمون في المغرب ودفع بها المعز في أواخر حياته إلى الصحراء فقدت مراكزها واحدًا بعد واحد، كما فقدت زعامتها ووحدتها، وتوزعت عناصرها بين مختلف التيارات السائدة في المغرب، والزيريون الذين كانوا يقضّون مضاجع بني حماد أصبحوا الآن قوة لا يُعتدُّ بها أمّا حشود الهلاليين الذين قَضُوا على ملك الزيريين فقد كانوا أداة طيعة في يد الناصر خاصة الأثبج منهم، وبالتالي فقد تطلع إلى ملك جميع إفريقية بما أن بعض مدنها دخلت في طاعته مثل : قسطيلية والجريد وحتى تونس. أنظر مفصلا : ادريس:الدولة الصنهاجية، ج 1 ،ص 305.

3 - النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 220-222.

4 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 231. إسماعيل العربي : عواصم بني زيري، بيروت : دار الرائد العربي، ط1، 1984م، ص 49 فما بعدها.

بعد تدفق العناصر الهلالية على الزاب.

وحوالي سنة 460هـ/ 1067م، وصل المنتصر بن خزرون الزناتي الذي كان مقيماً بمصر وخرج منها بسبب الفتنة بين الترك والمغاربة، فوجد بني عدي بطرابلس قد أخرجهم الأثبج وزغبة من إفريقية، فرغّبهم في بلاد المغرب وسار بهم حتى نزل المسيلة، ودخلوا أشير، وخرج إليه الناصر ففر إلى الصحراء ولكنه رجع إلى مكانه من الإفساد، فراسله الناصر في الصلح فقبل، فأقطعه الناصر نواحي الزاب وبريغة، ونجح هذه المرة في استمالته، وفي الوقت ذاته بعث إلى عروس ابن سندي رئيس بسكرة لعهده وولي دولته أن يمكر به، وبالفعل فقد استدعاه إلى وليمة، ولمّا انكبّ على الغداء بادر عروس إلى قتله، وبعث به إلى الناصر ببجاية، فصلب الجثة بالقلعة وعرض الرأس في بجاية[2].

ويبدو أن انكفاء ملك الأمراء الحماديين أغرى الزناتيين بالحلف مع بني هلال. فتم الحلف بين الأثبج من بني هلال وغمرت ومغراوة الزناتيين الذين أغاروا على أراضي الزاب محاولين الاستيلاء عليها، فبعث أهل الزاب بشكواهم رأسًا إلى بجاية دون بني سندي، ونجهل الأسباب في ذلك، ربما لعجز بني سندي أمام هذا الحلف. وبالفعل فقد أرسل إليهم الناصر ابنه المنصور في عساكره، وقفل بالغنائم والسبي[3].

كما خرج المنصور بن الناصر، والذي تولى الحكم خلفًا لأبيه سنة 481هـ/498هـ 1088م/1105م في حملة تأديبية إلى زناتة بتلمسان، وقد استنفر عساكره من صنهاجة وأحلافها من بني هلال، أحياء الأثبج وزغبة وربيعة فأثخن فيهم القتل، وشتتهم في نواحي الزاب والمغرب الأوسط [4] دون أي تفاصيل عن سبب هذه الحملة أو سبب تشريد القبائل ونزولها إلى الزاب تحديدًا، ومن المرجّح أنّها نزلت مجاورةً أحياءها الزناتية في الزاب من القبائل التي أجلاها العرب قبلاً، ولكن أليس بنو هلال هم الذين ساعدوا من قبل في إجلاء زناتة من أرض الزاب إلى الغرب منها، فلماذا يعاودون مساعدة الأمير الحمادي لإعادة زناتة إلى مواطنها ؟.

ومن المرجّح أن بني سندي استطاعوا في الفترة الأخيرة من حكم بني حماد التمتع بالاستقلال الضمني غير المعلن عن بجاية، فالمصادر تنقل إلينا صورة آخر أمراء بني حماد، وهو يحي ابن العزيز[2]. فمن المستبعد أن يُحكم هذا الأمير قبضته على منطقة بعيدة كالزاب، والشقة بعيدة ويفصل بينهما العرب

2_ابن خلدون :المصدر نفسه ، 231 .

3- نفسه ، ج6 ، ص 234.

4- إدريس: الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 329.

2 - ابن الأثير : الكامل، ج9، ص 547.

الهلالية ومقتطعاتهم من الأراضي المغربية، وإن كان هذا الاستقلال صوريًا فقط، فمن الواضح أن بني **سندي** -ونحن نجهل أسماء رؤسائهم- قد كانت لهم مطلق الحريّة في حكم الزاب، وهو الاستقلال الذي طمح إليه بنو رمان من قبل ولكن الظروف الحالية أنسب، وإن كانت سيطرة بني هلال قد أربكت الوضع قليلاً في المنطقة، إلاّ أن بني سندي بلا شك قد استغلوها لتحقيق طموحاتهم وحلم أسلافهم في سط أيديهم على بسكرة وزيبانها وحكومتها وشعبها واقتصادياتها، وكانت هذه بلا شك خطوة أولى نحو بناء الدولة في مرحلة لاحقة، وهذا ربما ما أغرى بني مزني. ولكن ما حققه بنو سندي سوف تحطمه وإلى الأبد الآلة العسكرية ثم السياسية الموحدية والتي قضت على حكومة بني سندي وإلى الأبد.

- بسكرة في قلب الحركات المناوئة للموحدين :

ظهرت منذ بداية المائة الخامسة قوة جديدة على الساحة المغربية، كان منطلقها أقاصي المغرب[1]، ولكنها وفي مدة لم تتجاوز العقود استطاعت توحيد المغرب كله **وضمه تحت راية دولة الموحدين، الذين** امتلكوا جيشًا قويًا، وقوة بشرية منظمة وحكومة مهيكلة استطاعت فرض سلطتها الفعلية بعد أن قضت على كل الكيانات المتداعية والمتناحرة، وكذا الإمارات العربية التي كانت تتحكم في المغرب آنذاك. واستطاعت آلة الموحدين إلحاق أراضي الدولة **الحمادية بمراكش، وذلك سنة 547هـ/1152م**[2] **، وهي** تمثل السنة التي تم فيها الاستيلاء على عواصم الحماديين. وبعد الاستيلاء على القلعة وتعيين حامية عليها، تم التوجه رأسًا إلى قسنطينة[3]. إذن فمن المؤكد أن الموحدين لم يفتحوا بسكرة في هذه الفترة، لأنّ **اهتمامهم كان** موجهًا أساسًا لفتح بجاية العاصمة الرئيسية للحماديين. وجهلنا لوضعية الزاب آنذاك يجعلنا في موقف غير أكيد بين إمكانية تسليم مهمة فتح المناطق الجنوبية للقلعة والتي من ضمنها بسكرة انها إلى والي المنطقة الموحدي، أم أن فتحها قد تأجّل إلى إتمام فتح شمال المغرب **الأوسط. ومن** لواضح أن خوف الموحدين من التحالف الهلالي الصنهاجي قد جعلهم يزيحونهم من المغرب الأوسط تجاه الصحراء[4]، من غير تأكيد هل وصلوا الزاب أصلا. ولكن المهم في الأمر أنه وبعد تحالف الهلاليين ومعركة سطيف عهد عبد المؤمن بولاية الأراضي التي كانت تابعة إلى **الحماديين** -بجاية والقلعة وما

---

1 - راجع : ابن القطان : نظم الجمان، تحقيق : محمد علي مكي، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990. ص 124.
راجع : مصطفى بن سباع : السلطة بين السنن والتشيع والتصوف، تطوان : مطابع الشويخ، 1999م، ص 30.

2 - ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الموحدي، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زرمامة. بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1، 1985م، ص 45-46.

3 - ابن الأثير : الكامل، ج9، ص 372. إدريس : الدولة الصنهاجية، ج1، ص 431.

4 - نفسه، ج1، ص 434.

والاهما- إلى ابنه عبد الله[1].

نظرًا لعدم وجود معلومات عن بسكرة وزيبانها في هذه الفترة،فإننا نُسلّم بقول ابن خلدون؛أي أن رئاسة بني سندي على بسكرة قد انتهت بانقراض دولة بني حماد[2]،ومن المؤكد أن ذلك كان لسبب ما، بل لسبب قوي يجعل الموحدين يفصلون هذا القبيل عن الرئاسة بصفة قطعية، بعد أن ملكوا بسكرة وعامة ضياعها وقراها ومدنها لحوالي قرن من الزمن كان كفيلاً بأن يجعلهم يتوارثون الحكم في المدينة مشكلين بذلك مدينة شبه مستقلة، تميزت بتطورها و ازدهارها الاقتصادي، ولا يكون هذا إلاّ بالهدوء والانتظام تحت حكم قوي عادل وحازم.

ومن المرجّح أن سبب قطع أمر بني سندي يعود إلى رفضهم للحكم الموحدي نظرًا إلى افتقارنا إلى أية معلومات دقيقة عن السبب، لكن الترجيح أنهم قاوموا وحاربوا الموحدين رفضًا لتسليم المدينة للعسكر الموحدي، سواء للحفاظ على الولاء والتبعية للحماديين ؛ وهذا احتمال ضعيف، وربما لأنّهم ألفوا الوضع الذي اجتهدوا للحصول عليه. فاستقلالهم بشؤون المدينة مقابل الولاء للحكومة المركزية، مع الضعف العام الذي عرفه الحكام الأخيرون من بني حماد جعل بني سندي يرفضون الدخول في طور جديد من الصراع مع الحكومة الجديدة، حتى أن الواقع -والحقيقة غائبة- يبين أنّه وبعد حوالي قرن من قدوم بني هلال قد حصل نوع من الانتظام في الهيكلة الاجتماعية للمدينة،فقد أدّت الهجرة الهلالية إلى إعادة صياغة العناصر البشرية بالمغرب ومنطقة الزاب بشكل خاص ،ما يؤكد أن بدايات البحث عن الدولة في مدينة بسكرة قد بدأ منذ بني حماد، لكن الموحدين قدَّموا على بسكرة بني رمّان الذين عاد هذه المرة أحفادهم إلى رئاسة المدينة، بعد أن قتل الحماديون رؤساءهم ووضعوا المذلة على من بقي منهم، وبعد أن قطعوا شأفة كل من تحدثه نفسه بالخروج ومن الواضح أنّهم هم الذين مهّدوا الطريق أمام الموحدين للدخول إلى المدينة واستقبلوهم، وأبدوا شواهد الولاء والطاعة. فأعطاهم الموحدون هذه المرة إقطاع المدينة وما تحكمه مع الحفاظ على تبعية الزاب للعاصمة مراكش.

والظاهر من رواية ابن خلدون أن بني رمّان ما زالوا من الكثرة والغنى بحيث اتّسعت إقطاعاتهم وكثرت بيوتاتهم؛ فزادهم الموحدون قوة الحكم،و لبعد العاصمة مراكش فإن بني رمّان استقلّوا بالأمر منذ بداية عهدهم، فانتظموا لتحقيق طموحهم الذي لطالما انتظروه، فقاموا لتعمير المدن. ولكن الصعوبة التي

1 - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق : محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ص 175. الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس : المطبعة الدولية التونسية، ط1، 1972م، ص 09.

2 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 585.

وجدوها في انتظارهم ولم يواجهها أسلافهم من قبل وهي التغيرات التي تشهدها المدينة في إطار المغرب عامة في البنية القبلية السكانية، بعد التطور الواضح الذي شهده الزاب بعد السيطرة بني هلال -خاصة الأثبج منهم- على الأراضي الخاضعة لحكم بني رمان وإن كانت الأولى قد هدأت نسبيًا، فإن الموحدين حرصوا منذ البداية على استغلال الوضع الراهن من أجل سيطرة أكبر على مملكتهم الواسعة، لذا فقد سعى عبد المؤمن وخلفاؤه بعده إلى مدِّ اليد للعرب بُغية إدماجهم في الجيش الموحدي الذي عبر الأندلس، وما يحمله هذا من توازنات في الهيكلة الاجتماعية المغربية، وبغضّ النظر عن الإحصاءات التي تخصُّ أسماء ومواطن القبائل المهاجرة فقد كان لعرب بسكرة المكانة في الجيش الموحدي، والمشاركة في حروبه الكثيرة، وقد استعمل الموحدون لاستنفارهم القصائد المحرّضة على القتال المثيرة للحماسة كما فعل الخليفة عبد المؤمن بحيث أمر بكتابة قصيدة محرِّضة على قتال النصارى في الأندلس "ولما وصلت إلى العرب بنظر إفريقية والزاب والقيروان هذه القصيدتان وتبيّنت لهم معانيها وفصاحتها وما فيها من التحريض على قتال الكفار ودفاع المنافقين الفجّار، فأجابوا إلى الطاعة على حكم الاستطاعة بأكمل البدار"[1].

ومن الواضح أن عمل الزاب كان مرتبطًا بإفريقية نظرًا للبعد الشديد بينها وبين مراكش، وما ينهض دليلاً على ذلك بعد خروج صاحب قفصة وخروج الخليفة الجديد يوسف أبو يعقوب[2] لاسترجاع المنطقة، وعلى أثر هذه الحملة التأديبية فقد وضع على إفريقية والزاب أخويه السيدان أبو علي حسن على تونس وأخاه أبا موسى على بجاية وأنظارها[3].

بنو غانية :تكوّن هذا الحلف القبلي من عناصر متفرقة متعددة، لا يجمع بينهما سوى الرغبة في التخلص من السيطرة الموحدية، فإذا كان المغامرون الأغزاز قد وصلوا إلى إفريقية بغية تكوين ثروة وربما تأمين طريق القوافل الصحراوي الرابط بين مصر وبلاد السودان الغربي مروراً بالصحراء المغربية، فإن بني غانية الميورقيين حاولوا إحداث شرخ في جسم الدولة الموحدية، والسيطرة على محور عمودي يمتد من : ميورقة - بجاية - قسنطينة - الزاب (بسكرة) - واحات المزاب والجريد. وهو أشبه ما يكون بالمحور الذي أسسه المرابطون، وهو يمتد من غانة - أودغست - سجلماسة - فاس - قرطبة، ويربط بين المجال لصحراوي والمجال المتوسطي. غير أن هذه الحركة لم تكن لها فاعلية تذكر لولا مشاركة القبائل الهلالية ربية التي مثلت أساس هذه الانتفاضات، وذلك بعد أن حاول المصامدة الحد من سلطتها وامتيازاتها

1 - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، تحقيق : عبد الهادي التازي، بيروت : دار الأندلس، ط1، 1964م، ج2، ص 417.
2 - تولى الخلافة مباشرة بعد وفاة أبيه عبد المؤمن بن علي. وذلك سنة، 558هـ/1262م. الزركشي : أخبار الدولتين، ص 09.
3 - ابن عذارى : البيان، القسم الموحدي، ص 143.

الاقتصادية المتمثلة في التمتع بالإقطاعات الشاسعة وخفارة القبائل والامتناع عن دفع الجباية[1]، وبعد أن فتح هذا الحلف بجاية والجزائر إلى قلعة بني حماد[2]، ونظرًا إلى جمعه لجميع الأطراف الحاقدة على الحكم الموحدي في المغرب، ومن ثمة نجاحه في السيطرة على المناطق الحساسة من إفريقية، فقد بادر الخليفة إلى شدّ هذه الحركة. ما أدّى في نهاية المطاف إلى تراجعها جنوبًا صوب بلاد الجريد، أين دخل ابن غانية بسكرة، واتخذها نقطة ارتكاز لمداهمة البلاد التلية، وكان ذلك سنة 582هـ/1183م[3].

غير أن هذه المرحلة من حركة بني غانية انتهت بفرارهم من المدن المفتوحة بعد موت علي بن غانية، وبحركة هجرة قسرية للقبائل العربية في اتجاه المغرب الأقصى[4]. قام بها الخليفة يعقوب المنصور، ومهما يكن من أمر فإن ثورة بني غانية في هذه المرحلة لم يكتب لها البقاء وقد تضافر عاملان أساسيان على ذلك : أولهما ما قام به ابن غانية من إرهاق للرعية ، وثانيهما -وهو الأهم- العزم الأكيد من دولة الموحدين على مقاومته والقضاء على حركته[5].

ولكن بني غانية عادوا من جديد تحت قيادة يحي بن غانية خلفًا لأخيه علي، وذلك سنة 584هـ/1188م، حيث لم يحلُ الانتصار الذي حققه الموحدون في إفريقية وإعادة التنظيم الإداري لها من عودة بني غانية إلى مسرح الأحداث. فقد انسحب يحي بن غانية إلى بسكرة وبلاد الجريد بعد فشله في الاستيلاء على قسنطينة، حيث فتح بلاد بسكرة عنوة بعد أن قطع نخيلها[6].

ولم تأت سنة 586هـ/1190م حتى سيطر حلف بني غانية وقراقوش على كل المنطقة الجنوبية من إفريقية وطرابلس وبلاد الجريد بما فيها بسكرة[7] وبقية الزاب، وهكذا أصبحت أغلب البلاد الإفريقية تحت سيطرة بني غانية الذين استغلوا تحالف العرب الهلاليين، وكذا انشغال يعقوب المنصور بالشأن الأندلسي، إذ لا طاقة له بالحرب على جبهتين بعيدتين كل البعد ويفصل بينهما البحر، وخلال هذه

---

1 - محمد حسن : المدينة والبادية : ج1، ص 45.

2 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 236.

3 - انظر مفصّلا : المطوي : السلطنة الحفصية، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1986م، ص 22، روبار برونشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ،ترجمة :حمادي الساحلي،بيروت:دار الغرب الإسلامي، ج1، ص 37. محمد حسن :المرجع السابق، ج1، ص 46.

4 - نفسه، ج1، ص 47.

5 - المطوي : السلطنة الحفصية ، ص 26.

6 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 329.

7 - أمبروسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة : عبد الواحد أكمير. الدار البيضاء : منشورات الزمن، ط1، 2004م، ص 352.

السنوات عاث بنو غانية في الزاب وكل إفريقية، وقد جددوا الانتشار والسيطرة العسكرية على هذه المناطق ابتداءً من سنة 597 إلى سنة 599هـ/1202م. أين سيطروا على بسكرة ونواحيها انتهاء إلى تونس، وبالتالي تمكن بنو غانية من السيطرة على كامل بلاد إفريقية الممتدة من بونة إلى بسكرة، ومن تونس إلى طرابلس، متخذين من قصبة تونس مقراً للحكم[1]. وإزاء هذا الوضع جهز الخليفة محمد الناصر حملة عسكرية انطلاقا من مدينة فاس سنة 602هـ/1205م، ولم يكن لابن غانية الوقت الكافي لتدعيم نفوذه فبدأ بالانسحاب أين تمكنّ الجيش الموحدي من تحرير أغلب المدن من بينها الزاب وبسكرة التي لم تتحدث عنها المصادر بصفة خاصة[2].وعلى الرغم من تنصيب الخليفة الموحدي لأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الإنتي والياً على إفريقية سنة 603هـ/1206م[3] كشخصية قوية وموثوقة يمكنها فرض السلم في الولاية وإرهاب ابن غانية وتتبُعه، فإن هذا القرار من جهة أخرى لم يكن سوى تمهيد لقيام دولة جديدة والتي ستعرف فيما بعد بالدولة الحفصية.

وبالفعل فابن غانية الذي فرَّ إلى الصحراء قدّر أنّه ليس بإمكانه القيام بمحاولة ذات نتيجة ما دام عبد الواحد على قيد الحياة. ولكن ظهور ابن غانية من جديد ووصوله حتى بسكرة سنة 619هـ/1222م، جعل الوالي الموحدي أبو العلاء وابنه أبو زيد يتبعان ابن غانية، متخذين من مدينة قابس نقطة انطلاق وارتكاز لهم[4]. لكن الثائر توغل في مجالات بسكرة، واستطاع إقناع أهلها بالتمرد ولكن بمجرد وصول الوالي الموحدي انسحب ابن غانية من الزاب وترك المتمردين من أهلها يواجهون العقاب لوحدهم. ولكن ذهابه هذه المرة كان نهائيًا أين تم القضاء على حركته[5].

يمثل تمرد الزاب نموذجًا حيًا لوضعية عدم الاستقرار التي كانت تعرفها إفريقية، والتي كان سببها دائما إمّا خيانة العرب، وإما طريقة حكم الموحدين، والتي هدفوا من خلالها إلى ضمان خضوع المنطقة. وقد قاد هذا التمرد أحد المتطلعين إلى الحكم ويلقّب بالأشل، الذي تمكن بعد أن ادعى أن قيامه ضد الموحدين هو تنفيذ للعناية الإلهية، واستطاع أن يجمع حوله العديد من الأتباع الذين صدّقوا أكاذيبه؛ يقول ابن عذارى أنّه قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه سنة 589هـ/1193م، واجتمع له شرذمة من العرب وبايعه كثير من أهل تلك الجهات والتأم عليه أشتات من الناس من الجبال المجاورة له، ومن كل صنف

1 - محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 48.

2 - نفسه، ج1، ص 52.

3 - ابن عذارى : البيان، القسم الموحدي، ص 248-249.

4 - محمد حسن : المدينة والبادية ، ج1، ص 52.

5 - امروسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 440.

من الغوغاء والسفلة ، فاستفحل أمره، وشاع في البلاد ذكره، وكان يلقى أصحابه بالغايات لزعمه من **الحدثان**، وضروب غير معقولة من الهذيان، أنّه موعود بأمره، وأن الأراجيز نصّت على خبره[1]. **ونظرًا** لكثرة الأتباع الذين ما انفكّوا يتزايدون بالانضمام إليه، وخوفًا من الموحدين من استفحال هذه الحركة، فقد أنفذ إليه الخليفة الموحدي المنصور واليه على بجاية السيد أبو زكريا للت**وصل إليه والاحتيال عليه بكل** وجه يسعه الإمكان عليه فخرج متحسسًا لأخباره، مقتفيًا لآثاره، لكن الثائر الأشل توغّل في الصحاري، فحاول الوالي استمالة العرب وأرسل عيونه في الجهات يتقصَّون أخباره، ولكن العرب الموجودين ضمن هذه القوات قرّروا خيانة السيد والاستيلاء على مخيَّمه وأمتعته، وهكذا فبعدما أرسل الجواسيس الذين تعرّفوا على المتمرد والمكان الذي يختبئ فيه طلب من العرب إلقاء القبض عليه مقابل مكافأة خاصة، لكن هؤلاء تكلئوا في تنفيذ الأمر، وبدؤوا يتحينون الفرصة لتنفيذ ما دبروه ضد السيد الذي علم بكل شيء، مما دفعه إلى التظاهر بأنه أوقف البحث عن المتمرد وبأنّه يستعد للعودة إلى بجاية ولكنه فرَّ ليلاً إلى قلعة بني حماد، وتم استدعاء العرب لتسليمهم المكافأة الموعودة ولكنه أخذ أبناءهم

ن، مقابل مجيئهم بالأشل، وأنهم إذا لم يرسلوا رأسه فإن رؤوس أبنائهم هي التي سترسل إلى مراكش. لكن العرب أصروا رغم هذا التهديد ورفضوا خيانة صديقهم حيث كان جوابهم "لا نسلم نا ولا نغدر دخيلنا ولو أتى القتل على جميعا". غير أن زوجاتهم وأمهات المسجونين نحروهم طرحوهم من بيوتهم قائلين لهم : أيقتل أبناؤنا برجل منافق ذي حيل سارق؟، وفي خضم هذا الان**قسام** الذي وقع بين العرب حول الموقف الذي يجب اتخاذه حاول الأشل الفرار إلاّ أن مجموعة من أقارب المسجونين ألقوا عليه القبض، ونقلوه إلى بجاية حيث قطع رأسه وعلق على أحد أبواب المدينة[2].

وبعيداً عن هذا السرد التاريخي للأحداث التي توالت على منطقة الزاب، فالسؤال المحيّر هو : ما هو دور بني رمّان في كل ما حدث في بسكرة، بما أنهم هم المالكون بزمام الأمور في المدينة وما تحكمه من مدن وقرى ؟ وما هو دورهم في هذه الأحداث التي كادت تعصف بإفريقية والزاب جميعا وتنهي حكم الموحدين فيها ؟ ومن المهم أن نتساءل وإن كنا لن نجد جوابًا شافيًا في أي من المصادر عن موقف بني رمّان وأهل منطقة بسكرة من بني غانية المرابطين وهل أنّهم كانوا مؤيدين لحركتهم ؟.

من الواضح إذ استقرأنا الأحداث أن بني رمان بحصر المعنى كحكام للزاب البسكري لم يؤيدوا حكم بني غانية ولم يرحبوا بقدومهم، وهذا لأننا لا نجد في **المصادر أي ذكر لمعاقبة خلفاء الموحدين** كام المنطقة، والذين لم يكونوا ليتوانوا في إبادتهم لو أنهم فتحوا أبواب المدينة أمام العدو، بيد أن

1 - ابن عذاري : البيان، القسم الموحدي، ص 215-216.

2 - ابن عذاري: البيان، ص 216-217. هويثي ميراندا : التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 349-350.

السكان خاصة العرب حالفوا بني غانية وكانوا أكبر حلفاء لهم، بل ساعدوهم بكل استطاعتهم، لسنا ندري من أجل تمهيد حكمهم للمنطقة في حالة نجاحهم، أم هي طبيعة بعض العرب الهلاليين في تأييد المعارض.

والنتيجة أن بني رمان نجحوا في السيطرة على بسكرة وزيبانها، كما نجحوا في افتكاك السلطة التي ناضلوا من أجل الحصول عليها. وبما أن مراكش بعيدة الشقة في الوصول إليها، فقد تمتع حكام بسكرة بشيء لا يستهان به من الاستقلالية والحرية في عهد الموحدين، خاصة زمن الحروب الأندلسية التي شغلت اهتمام واقتصاد وسياسة الدولة وكل قوّتها. لولا ما عكّر على الحكام البسكريين من ثورات بني غانية التي أخذت تقضّ مضاجعهم من حين آخر لكانوا تمتعوا بفترة أطول وأكثر طمأنينة واستقلالية.

2-التأكيد على الأهمية الاقتصادية للمنطقة:

يقول ابن خلدون "وإلى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلاثمائة قرية منتظمة على ضفافي وادٍ ينحدر اليها من المغرب إلى المشرق، يناهز مائة من البلاد فأكثر قاعدتها بسكرة، من كبار الأمصار بالمغرب، وتشتمل على النخل والأنهار والفدن والقرى والمزارع"[1]. تعتبر بسكرة كورة كثيرة المدن، وهي قاعدتها[2]، ومن المعلوم ما تحتويه هذه الكثرة من التنوع والتناغم والانسجام وكذا الحركية، فعلى الرغم من كونها مدينة - صحراوية- ذات مناخ صحراوي أو شبه صحراوي، قليلة التساقط وقليلة منسوب مياه الأمطار إلاّ أن موقعها النهري وامتلاكها لشبكة مياه كبيرة جوفية وسطحية قد أكسبها أهميتها الاقتصادية، وبذلك أضحت من كبار الأمصار بالمغرب. ومن المعلوم أن مدن بسكرة وزيبانها وقاعدتها قد تأسست على أنقاض المدن القديمة التي عرفتها الفترة الرومانية، إلاّ أن الموروث الإسلامي لعب دوره في تنمية وتطوير واستكشاف موارد هذه المدن والقرى.

ومن جهة أخرى فإن المدينة سوف تندمج في التكوين الاقتصادي العام الإسلامي مع محافظتها ى مميزاتها الخاصة والتي ستكون في الوقت ذاته سبب عظمتها أو ضعفها، واقتصادها يدخل ضمن دائرة النشاط الاقتصادي المغربي مع مساهمة موقعها الذي أهلها لتكون نقطة تقاطع تجارية مع كافة الأقاليم المحيطة (السودان - المشرق - الساحل)[3].

---

1 - ابن خلدون : العبر، ج 6 ، ص 132 .

2 - ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا، ص 126.

3 - عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط. ترجمة : فضيلة الحكيم، بيروت : دار الحداثة، ط2، 1988م، ص 42.

توزعت في منطقة الزاب شبكة مائية كبيرة ومتنوعة، أمدّنا الجغرافيون بدءاً عن الفترة الحمادية بوصف دقيق لها كنا نجهل عنه الكثير في الفترة الإسلامية الأولى.

فقد اشتملت مدينة بسكرة على آبار كثيرة عذبة منها في الجامع عين لا تنزف[1]. **ويشق غابتها** ينحدر إليها من جبل أوراس يسقى بساتينها ونخلها وهو نحو ستة أميال في غابة متصلة **بالمدينة**[2]، ومن هذا النهر تسقى الأراضي الزراعية سواء في الغابات والسواني والوحدات الزراعية التي أقيمت داخل الأسوار، أو في الأرباض والقرى الزراعية والغابات والمزارع الموجودة في محيطها والتي يشقها هذا النهر أساسًا، ومن المؤكد، وإن كانت المعلومات شحيحة حول تقسيم المياه وتوزيعها داخل هذه **الواحات.**

ومن الواضح أن شرب **أهل المدينة** كان من هذا النهر الكبير[3]. ومن مياه الآبار التي كانت موزعة وهناك من أجل تسهيل عملية جلب الماء والانتفاع به. كما وجد نهر بنطيوس وهو "نهر جار **ينحدر إليها من ناحية الجوف وهذا النهر يسقي المدن الثلاث، وبغربيها صحراء بنطيوس تسقى بثلث النهر المذكور"**[4]**، وما** هذه إلاّ دلالة عن وجود هيئة مشرفة عن تقسيم المياه في هذه المدن، على الغابات والواحات الموجودة بها، وكذلك استفادت الواحات المحيطة والبعيدة عنها.

أما مدينة تهوذا فقد استغلت مياهها في الجانب الدفاعي، فقد كان يصب فيها نهر ينبع من جبل أوراس، وكانت هذه المدينة مخندقة فإذا كانت بينهم وبين عدوهم حرب وخافوا النزول إليهم أجروا مياه هذا النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا عن عدوهم[5]، الواضح من الرواية أن أهل تهودا ند قسموا النهر وأجروا منه السواقي لمستغلاتهم الزراعية، ثم أخذوا جزءًا منه بحفر ساقيه تمد الخندق اه كلما احتاجوا إليها. مدينة بادس أيضا تميّزت بوفرة المياه، فصاحب الاستبصار يصفها بأنّها ذات مياه وعيون كثيرة، وأن بها مياهًا سائحة تستغل في الزراعة، وخاصة في سقاية مزارع الشعير[6].

المتأمل في وصف الزاب ومدنه في هذه الفترة من خلال استنطاق الكتب **الوصفية الجغرافية يلمح** تطوراً زراعيًا كبيراً، إذ يجد وصفًا لمدن تعتمد بالدرجة الأولى في اقتصادها على الزراعة، وربما كان للتهيئة

---

1 - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 230.

2 - مجهول : الاستبصار، ص 173.

3 - البكري : المسالك و الممالك ، ج2، ص 231.

4 - نفسه :ج2، ص 252.

5 - نفسه : ج2، ص 255. مجهول :الاستبصار ،ص 174.

6 - نفسه، ص 175.

المائية وتطور طرق الزراعة دور في جعل المنطقة بالشكل المزدهر الذي كانت عليه. فالدارس لتاريخ المنطقة يجد مدنا مزدهرة متنوعة المنتجات،**فمدينة بسكرة قاعدة الإقليم كانت مدينة مسوّرة تحتوي على** أجنة وسواني وبساتين داخل سورها. كما اشتملت المنطقة على غابة كبيرة جدًا (حسب صاحب الاستبصار) كثيرة الزيتون والنخل وجميع الثمار. يشقها نهر كبير ينحدر من جبل أوراس، وعلى ضفافيه **تمتد أشجار النخيل والزيتون** وبقية الثمار، ومن الواضح أن هذه الغابة ممتدة على طول امتداد النهر أي أن المدينة كانت منقسمة إلى قسمين تفصل بينهما غابة زيتون ونخل وما يمكن أن يحتاج إليه أهلها مما يمكن غرسه داخل هذا المجال. كما تستغل مياه النهر في الشرب وكذا الاستعمالات اليومية. والدليل قول صاحب الاستبصار أن الغابة متصلة بالمدينة أما النهر فيشق الغابة وجميع القرى التي قامت على **ضفافه**[1]. **ومن المؤكد أن هذا هو الذي يعرف اليوم بوادي بسكرة**[2]. ما يؤكد وجود الزيتون بكثرة في هذه المدينة وجود معاصر الزيت التي وجدت في قلعة التخوم[3]. كما كانت كثيرة النخيل، وبالتالي فهي وفيرة إنتاج التمور والتي كانت تنتج أفضل أنواعه، حتى عرفت ببسكرة النخيل لكثرته وجودته بها : "**وفي جميع البلاد يصيحون عليه ببسكرة**"[4].

كما كانت بالمدينة أصناف الثمار[5] دون تفصيل لها. ومن المرجّح أنها أشجار الفاكهة التي يمكن بدون شك غراستها في **الغابة موازاة مع النخيل، ومنها العنب والكروم والمشمش والتين والجوز واللوز** والرمّان و غيرها.

ولتكتمل صورة المدينة يواصل الجغرافيون وصفها ؛ فخارج السور حواليها "بساتين كثيرة"[6] مختلفة الزروع والثمار، لقد اتسعت هذه الأجنة والرياض المحيطة بالمدينة وتطورت، واحتوت حتى على الزراعات والغرسات الموسمية مثل الخضار التي تزود المدينة بما تحتاج إليه في معيشتها اليومية، ومن الواضح من خلال هذه الخريطة الوصفية فإن الغابات تابعت سيرها مع الخط النهري، بما اشتملت عليه من نخيل وكروم وزيتون وأشجار مثمرة. ثم تأتي زراعة الحبوب، والتي تحتاج إلى أراضٍ شاسعة لغراستها، ومن الواضح أنّها كانت واقعة في المزارع والضياع المحيطة بالغلاف الزراعي المباشر.

---

1 - مجهول : الاستبصار، ص 173.

2 - Atlas:Gsell archéologique de l'Algérie, n° 48, F 1, P :

3 - Baradez : Fossatum Africal , Op - Cit. p 216.

4 - الاستبصار : نفسه، ص 173.

5 - الحميري : الروض المعطار، ص 114.

6 - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 229.

ومن المدن التي اشتهرت بغراسة الحبوب مدينة بادس الواقعة في أرض "كثيرة البسائط" والمزارع والفدادين والضياع، وبها يزرع الشعير مرتين في العام[1]. من الواضح أن هذا راجع إلى خصوبة التربة واهتمام أصحابها بالعناية بها وتسميدها، وكذا حسن استغلالها، وعن توفر المياه، وكذا تطور أساليب الزراعة وجودة الزريعة. كما اشتملت على العديد من أنواع الثمار وجميع أنواع الفواكه وكثير من النخل[2].

تهودة أيضا كانت مدينة محاطة بسور كبير، وبها رياض كبيرة وأرباض كثيرة، وهي محمية بخندق، كثيرة البساتين والزرع والنخل وجميع الثمار[3]. أما بنطيوس فأكثر ثمارها الزيتون والتمور، وأنواع كثيرة من ثمار والحبوب والتي من الواضح أن سكانها قد امتلكوا من الخبرة ما يكفي لتحسين الإنتاج ومعرفة مقداره. فقد كان الرجل إذا أكمل زريعته فيها عرف مبلغ إصابته من الطعام ولا يخطئ[4]. أما طولقة فقد بتربتها الخصبة ووفرة مياهها، وقد اشتملت مدنها على الكثير من البساتين الغنية بالزيتون والنخيل والأعناب والشجر وجميع الثمار[5].

الهلاليون الذين استقروا على حواف المدن وفي البوادي، من الواضح أنهم امتهنوا الزراعات التي تناسبهم، بحيث لا تحتاج إلى عناية فائقة كالبستنة ؛ وهي في نفس الوقت مهمة لاحتياجاتهم اليومية هم وماشيتهم وخيولهم وإبلهم وهي زراعة الحبوب، وقد كانت كافية لاستقرارهم فقد أصبحوا يتعاطون هذا النوع من الزراعة تدريجيًا لاستهلاكهم الخاص، غير أن هذا النشاط مثّل نقلةً نوعيةً في حياة البدو الرحَّل وبداية مسار طويل في اتجاه استقرار البدو بالأرض. إلاّ أنّه وبالمقابل أهملت أراضٍ خصبة أخرى بفعل لبدو وسيطرتهم على المجال في الزاب كذلك الأمر في عدة أماكن من إفريقية، مما يأتي دليلاً على أن الاندماج البدوي بقي محصورًا ومقتصرًا على بعض المجموعات التي فضّلت الاستقرار على حياة الترحال والعمل في الزراعة على الرعي[6]. مثل بني مزني في بداية أمرهم.

المؤلفات الجغرافية وإن أمدّتنا بهذا الوصف الوافي لتوزيع شبكة المياه وكذا الغراسات وأنواع الإنتاج راعي، فإنّها قد تجاهلت الحديث عن الطرق التي اتبعها السكان في التحكم في هذه المياه أو الأدوات

1 - مجهول : المصدر السابق ، ص 175.
2 - مجهول: الاستبصار، ص 174.
3 - البكري : المسالك و الممالك، ج2، ص 255.
4 - نفسه، ج2، ص 254.
5 - نفسه، ج2، ص 255.
6 - محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 452.

المستعملة في استغلاله، وكيفية توزيعه في الواحات وطرقها. ومن الأمور التي بقيت مجهولة لدينا هي إنتاج الصناعي ومدى تطور الصناعات في بسكرة ومدنها وحتى راها المحيطة بها والتي شملها مجال الزاب، ونحن نجهل الحرف أو اتساع العمل المنظم داخل المدن، لأنّه من المسلّم به أن تعدد الحرف والمهن بالمدينة يأتي دليلاً على الدرجة المتطورة لتقسيم العمل بما أن المعروف أن المدن المغربية عرفت الكثير من الحرف، فقد اقتضت صناعة الصوف مهن الخلاص واللباد (صنع كباب الصوف)، والنسّاج، والصباغ، ويوجد إلى جانب الخياطين الحشاءون والفراءون وغيرهم، ومنها صناعة الأحذية، وصناعة الطنافس والقرب، والحطابون وصانعوا الأقفال والخزائن والخراطون والخشابون والنقاشون...[1]، وغيرهم كثير مما لا يمكن حصره. وكل ما نعلمه هو وجود الدكاكين والأسواق في هذه المدن مع جهلنا التام بتموقعها، أو هيكلتها، ومدى اتساع مجالات البيع والشراء أو نوعية السلع المباعة، كما نجهل وظيفة ذه الأسواق أو جوانبها القانونية. كما لم نجد أي إشارات عن محتسبين داخل هذا المجال. ومن المعلوم الأسواق عمومًا لم تقتصر على تلك التي تعقد داخل المجال الحضري بكيفية متواصلة في الدكاكين والفنادق والرحبات، وإنما شملت كذلك الأسواق الأسبوعية التي تقام عند أبواب المدن، ويؤمّها المزارعون البدو ببضائعهم الريفية التي يبيعونها لاقتناء حاجياتهم بالمدينة. وعادة ما يوجد عدد كبير من الماشية في هذه الأماكن من أجل بيع اللحم.

وسواء تعلق الأمر بأسواق المدينة أو القرية أو البادية، فإنّها في العموم كانت مجالاً لحركية اجتماعية واقتصادية على حدٍ سواء، وموقعا ملائما للتلاقح الثقافي بين عالم المدينة وضواحيها، فقد كان **التجار** لحضر يترددون على الأسواق الريفية لاقتناء الماشية والمنسوجات الزراعية. أما الأسواق الحضرية، فإنّها كانت مقصدًا لأهل البادية لقضاء شؤونهم ومجالسًا لهم[2].

3-أرياف إباضية في مواجهة حواضر سنية:

-اجتماعيا :

لم تخرج بسكرة عن تركيبتها الاجتماعية في هذه المرحلة من تاريخها حتى وإن تغيرت السلط وتعددت الزعامات، فقد بقيت في الأصل من المواطن التي عرفت تركيبة بشرية جد متنوعة مذهبيًا و اثنيا،وبقيت محافظة على الخطوط العريضة لهذه التشكيلة رغم تعاقب القرون. من الصعب التحديد بدقة حركة تنقلات الجماعات القبلية التي ه من دون شك في حركية دائمة؛ خاصة أنها ألفت حياة

1 - محمد حسن : المدينة والبادية،ج1، ص 460.

2 - نفسه، ج1، ص 510-511.

النجعة والترحال بحثا عن الماء كي تضمن الحياة لمصدر عيشها الأول -الحيوان- ، وربما في الأساس هذه الحركية مرتبطة بالجماعات الريفية المتنقلة، أما القبائل الحضرية التي سكنت المدن والقرى أو بصفة عامة التجمعات الحضرة، فقد حافظت على استقرارها في محيطها الذي مكّنها من ممارسة نشاطاتها اليومية المعيشية بدون الحاجة إلى الترحال أو الضعن[1].

العنصر البربري عرف حضورًا كبيرًا في بسكرة ومدنها، امتدادًا لقرون طويلة سابقة مغرقة في القدم، ومن المؤكد أن زناتة حازت على الجزء الأكبر من هذا الوجود حتى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أين غُرِّبت مجموعات منها، في حين بقيت أكثر زناتة محافظة على مواطنها، والدليل على ذلك الوجود السدراتي والمغراوي فيها، كما كان للبربر دائما نصيب طيب من التقسيم الثلاثي الذي طال بعض التجمعات الحضرية بحيث استقروا في بعض النواتات مشكلين جماعات موحدة، مع التأكيد على حضور العنصر البربري دائما في الأرياف والبوادي والبسائط.

من الناحية البشرية هناك تعدد كبير في العناصر والجاليات المستقرة بحواضر الزاب البسكري، ويبرز بصورة جلية الانتشار الواسع للأفارقة والروم في العديد من الحواضر. إنّه لا مجال للشك في استمرار الأفارقة كبقايا للثقافة اللاتينية بمسيحيتها الرومانية كشاهد على حجم تغلغل الثقافة الرومانية في منطقة الزاب واعتناق بعض العناصر المحلية لها. وفي المقابل هناك تواجد للجاليات البيزنطية المعروفة باسم الروم في الأدبيات اليونانية والعربية، مما يعطي فكرة مهمة عن الأهمية التي أعطيت للمنطقة[2].

أن سكانها الأصليون اشتد ارتباطهم بالأرض مما نتج عنه في الأخير التصارع من أجل الزعامة للمنطقة، ونحن نقصد هنا أسرتي بني سندي وبني رمّان الذين ينتمون إلى هذا القبيل ذو الإرث البيزنطي، والذي ارتبط بزَابِه بأوثق رباط في علاقة تعايشية مع الوافدين الجدد من العرب وانصهاره معهم في بوتقة العروبة والإسلام الذين اصطبغ بهما هذا القبيل وربما التخلّي عن موروثه الثقافي لحساب الثقافة الجديدة الوافدة.

كما عرفت المنطقة وجود جماعات عربية وفدت عليها بقوة بدءًا من فترة الفتوحات الإسلامية إلى ذلك الحين ، بحيث أن الزاب عُرف منذ عصر الولاّة بأنّه موطن الاستقرار العربي في إفريقية، إذ توافدت

1 - لقد فرق ابن خلدون بين نوعين من العمران، العمران البدوي في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، والعمران الحضري بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بحدرانها، ويبدو كلاهما مقترنًا بمجال محدد وطرق للعيش مختلفة عن الأخرى، فالقائمون على الفلح وعلى الحيوان تدعوهم الضرورة إلى البداوة لتوفر الإطار المناسب للقيام بهذه الأنشطة. محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 90.

2 - علاوة عمارة : الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، ، ص 14.

به الجاليات العربية خاصة في نهاية عهد الولاة، وكان ذلك أوج توغلها في زيبان بسكرة، ومن دون حصر للقبائل فقد دخل العنصر العربي الوافد جماعات فارسية، استطاعت التمركز في عدة نواتات متخذة إياها تجمعات سكنية اتحادية، يعرف القوم بني جُريج، واتخذوا من مدينة بنطيوس مقراً للمدينة، ومن غير المستبعد أن يكون هؤلاء القوم من بقايا الجنود الخراسانية التي استقرّت بالزاب في العصر الأغلبي، كما وجدت بها عناصر قرشية عربية. كما يدلنا وصف البكري[1] على وجود قبائل قيسية داخل تجمع واحد وأخرى يمنية. المثير للاهتمام هو تلك التراتبية وذلك التقسيم الذي تشكلت منه مدن المنطقة في ذلك الوقت الذي لم يترك مجالاً للشك في تدخل العصبية في التشكل المديني والتموقع القبلي الذي شكل في الأخير خارطة بسكرة ومدنها.

إن معطيات البكري تسمح لنا بمعرفة النسيج الاجتماعي لمنطقة الزاب البسكري في القرنين الرابع والخامس الهجريين، متسم بطابع فسيفسائي مِيزَتة الأساسية تعدد عناصر سكان حواضره المشتركين في غالبيتهم المطلقة في أصولهم الأجنبية في مواجهة مناطق ريفية تسكنها جماعات محلية، فقد انضم العنصران العربي والفارسي إلى الجاليات اللاتينية والبيزنطية التي سكنت مدن المنطقة والتي اعتنقت الإسلام خلال القرن الثالث / التاسع الميلادي، ولكن هذا التحول إلى إسلام مالكي لم يمنعه من النزاع مع الجماعات العربية المعتنقة غلي غالبيتها للمذهب الحنفي، إن حالة الزاب هنا مرتبطة أساسًا بمدن معتنقة لديانات رسمية سبق وأن هيمنت على حكم إفريقية وعلى أرياف مرتبطة بمذاهب معارضة لسلطة المدينة مثلها خصوصًا المذهب الإباضي[2].

يقدم الجغرافيون (البكري وصاحب الاستبصار) تركيبة الخارطة البشرية التي شكلها السكان بكل دقة ربما هدفهم دفع أي تصادمات أو نشوب نزاعات قد تطرأ بين الأطراف المتجاورة، لذلك فمن المفترض أن سبب هذا التقسيم القبلي - المذهبي راجع إلى هذا السبب.

مدينة بسكرة قاعدة الزاب كانت عامرة أكثر بالعنصر اللاتينو-بيزنطي أكثر من العربي، فسكانها أغلبهم من المولدين، مع عدم نفينا لوجود العنصر العربي طبعًا والذي تكاد لا تخلو منه مدينة من المدن المغربية، واستقر حول المدينة عناصر بربرية مثلتها أساسًا قبائل سدراتة مغراوة وأهل بيت بني خزر وبنو يزمرتي[3]. ومن الواضح أن بني سندي وبني رمَّان من العناصر المنتمية إلى المولدين من بقايا سكان المنطقة الأصليون الذين أسلموا وتعرّبوا في القرن الثالث الهجري، وحسب ظاهر الرواية كان هذين القبيلين من

1 - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 230.

2 - علاوة عمارة :الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية، ص 15.

3 - البكري : المصدر السابق، ج2، ص 230.

أكبر المتنفذين في المنطقة سواء من الناحية المادية من عقارات وأراضٍ ، أو من ناحية الغلبة **أي الكثرة** والنفوذ السياسي، لذا فقد أمعنت الأسرتين في الصراع على السلطة العهدين الحمادي والموحدي.

بنطيوس التي تشكلت من ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، ولكن فصلت بينها اللحمة والتي هي نفسها جمعت كل العناصر المتشابهة من أجل تشكيل وحدات سكانية منفردة **و**مستقلة، الأولى سكنها المولدون، والثانية يسكنها البربر مع جهلنا لأي تفاصيل عن أصولهم أو انتماءهم القبلية، والثالثة لقوم من الفرس يعرفون ببني جريج[1].

إن مدن بنطيوس الثلاث المقصودة في "جغرافية البكري" لا يمكن أن تخرج عن المواقع الأثرية الحالية الموجودة في المخادمة وبنطيوس قرب زاوية الأخضري وأورلال، وهذه المواقع تتميز باستمرار الحياة شرية بها منذ فترات قديمة نظرًا لتواجد طبقات أثرية متنوعة لعل أقدمها يعود على الأقل إلى الفترة الرومانية، إن الجديد في هذا الوصف هو هذا التشكل لمدن أثنية كان فيها العنصر اللاتينو -يوناني الحظ في تمسكه بإحداها، ولكن بتخليه عن ديانته المسيحية لصالح إسلام سني[2].

هذا التميز العرقي هو الذي أضفى صبغة مميزة للمجتمع البسكري، في العهد الحمادي، والذي كررت فيه تشكيلة المدن الثلاث المتقاربة وذلك في مدينة طولقة، والتي عبّر اقتسام سكانها لهذه **المدن** لطريقة جد المنظمة، والتي تدل على الفهم الجيد من طرف السكان لمعطياتهم، ومن ثمة تم يس للتقارب والتفاهم معًا في ظل سلط قوية، دون اختلاط في الأعراق والاثنيات التي بإمكانها أن تؤدّي إلى نشوب أي نوع من التصادمات. سكن المدينة الأولى المولدون، والثانية استوطنها قبائل يمنية والثالثة قبائل قيسية[3]. والجدير بالإشارة أن كل واحدة من هذه المدن مسوّرة وعليها خنادق لحمايتها[4]. إن المعطيات الأثرية الميدانية الحالية تسمح لنا بتحديد الثلاث مدن المنسوبة في هذه الجغرافية إلى طولقة فرفار وليشانة ،وكل هذه الأسماء ذات الأصول النوميدية تحولت إلى اللاتينية ثم إلى العربية بتحريفات مختلفة[5] ومنها إلى تهودا التي عرفت بكثرة سكانها فهي "مدينة آهلة " عمّرها العرب وقوم من قريش محصّنون بخندق يحميهم في حالة الخطر، وحولهم قبائل بربرية من هوارة ومكناسة، وهم إباضية، ومن

1 _ البكري :المسالك و الممالك،ج 2،ص 254 .

2 - علاوة عمارة : الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية، ص 16.

3 - البكري : نفسه، ج2، ص 254.

4 - نفسه، ص 254.

5 - علاوة عمارة : الهجرة الهلالية و أثرها في تغيير البنية الاجتماعية، ص 16.

الجلي أن درجة العداء كبيرة بين هؤلاء والعرب[1]. ومن الواضح أيضا دور العصبية القبلية التي ما تفتأ تتحرك بين هذه القبائل حتى ولو بعدت المسافة، خاصة في حالة الصراع بين العرب والمولّدين، ففي مدينة طبنة إذا كانت الحرب بين العرب والمولدين استمد العرب بعرب تهودا وسطيف، واستمد المولدون باهل بسكرة ومن والاها[2].

ولكن هذا الرسم ألفسيفسائي للقبائل المشكّلة للمجال البسكري عرف نوعًا من الاضطراب وعدم الثبات بداية من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري، أين أدّت الهجرة الهلالية إلى إعادة صياغة العناصر البشرية المكوّنة للمجتمع المغربي عامة والإفريقي خاصة، على أن هذه العملية التأسيسية لم تتم دون بروز تحالفات ووقوع تأثيرات متداخلة أهمها تعريب القبائل البربرية وبداية استقرار الهلاليين، وهي في الجملة تحولات ليست ناجمة عن طبيعة العلاقة العرقية بقدر ما هي تعبير عن القوى الاجتماعية المتواجدة[3].

وبغضّ النظر عن التسلسل السياسي للأحداث، فإنّ بني هلال قد أكتمل توافد جموعهم بشكل متسارع، مع تأكيد فرضية عدم دخولهم الزاب بمعناه البسكري قبل معركة حيدران، ولكن بعد هذه الموقعة تدافعت قبائل الأثبج وعدي وزغبة في اتجاه إفريقية، وكانت الرئاسة فيها للأثبج. ومنذ سنة 446هـ/1054م اقتسمت البلاد، فكان لزغبة طرابلس وقابس ولمراداس بن رياح باجة والقيروان، وعقد لحسن بن سرحان الدريدي من كرفة على قسنطينة، ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم والقرة والإثبج والخلط وسفيان، فيما نزلت سليم بجهة الشرق.

1 - الأثبج :

من الجلي أن سيطرة الأثبج الحقيقية كانت بعد معركة سبيبة، وكان هؤلاء الأثبج من الهلاليين أوفر عددًا وأكثر بطونًا وكانوا أول من دخل المغرب.وكانت مواطنهم عند دخولهم إفريقية بجبل أوراس ونواحيه، وفي زمن الموحدين نقل يعقوب المنصور منهم عاصم ومقدم وقرة إلى المغرب فازدادت قوة رياح واستولوا على قسنطينة، وغلبوا بقايا الأثبج فنزلوا قرى الزاب وقعدوا عن الضعن ومالوا إلى حياة الاستقرار[4].

---

1 - البكري : المسالك و الممالك، ج 2، ص 229.

2 - محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 38.

3 - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 21، 22. محمد حسن : نفسه،ج1 ، ص 39 .

4- ابن خلدون :العبر ، ج6، ص 22.

والواقع أن الموحدين تمكنوا من التحكم في عملية الانتشار البدوي وتيسيرها وفق إرادتهم، وضبط حركات القبائل وبالتالي قاموا بدفع جديد للحركة الحضرية بالبلاد، ووضعوا حدا لاستقلالية البدو الذين ألفوا وضعًا سائبًا طيلة قرن من الزمن، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين، إذ أن القبائل تناست اختلافاتها القديمة كي تتصدى للمد الموحدي وترأست رياح هذه الحركة، غير أن الموحدين استطاعوا هزم الاعراب وذلك باستعمال خطة ترتكز على المباغتة والتطويق في مواجهة آلة موحدية ثقيلة ومتطورة نسبيًا[1].

- من أهم بطون الأثبج التي استوطنت الزاب :

كرفة : أولاد محمد بن كليب ويعرفون بالشبابة، وأولاد صبيح بن فاضل ويعرفون بالصحبة، وبنو **كليب بن قطن ويعرفون** بالكلبة، وأولاد سرحان بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالسرحانية: وهؤلاء هم الحدلجات ، مواطنهم مما يلي زاب تهودا بجبل أوراس والزاب.

وبنو ثابت بن فاضل وهم ثلاثة أفخاذ : أولاد مساعد أولاد ظافر وأولاد قطيفة واستوطنوا منطقة الزاب[2].

ومنهم عاصم ومقدم والضحاك وعياض والذين كانت مواطنهم جميعا كما أسلفنا حدود بسكرة من ناحية جبل أوراس، وربما كانت لهم نجعة ورحلة، أما عاصم ومقدم فقد نقلهم يعقوب المنصور إلى الأندلس نتيجة مناصرتهم لبني غانية، وأما عياض فقد استقروا بقلعة بني حماد، وأما الضحاك فقد كانوا بطونا كثيرة وكانت رياستهم متفرقة بين أميرين منهم، وهما : أبو عطية وكلب بن منيع فغلب كلب بن منيع أبا عطية في رياسة الضحاك في أوّل دولة الموحدين فارتحل إلى المغرب، وبقي جمهورهم بالزاب[3].

لطيف : هم بطون كثيرة، منهم : اليتامى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف، وذوو مطرف، وذوو أبي الخليل، وذوو حلال بن معافى، ومنهم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف بن معن بن محيا، وإليه يرجع نسب بني مزني بحيث ينسبون إلى مزنة بن ديفل بن محيا بن جري بن علوان، وكانت لهؤلاء الكثرة والنجعة، ثم استوطنوا الزاب وعجزوا عن الضعن وغلبهم الزواودة على الضواحي من **بعدهم** لما قل جمعهم وافترق ملوكهم، واتخذوا الزاب موطنًا فعليًّا لهم فنزلوا الدوسن وغريبوا وتهودة وتنومة

1 - محمد حسن : المدينة و البادية، ج1،ص 40.
2 - ابن خلدون : المرجع السابق، ج6، ص 31.
3 - نفسه، ج6، ص 34.

وبادس[1].

ويلحق بهؤلاء الأثبج : **العمور** : والغالب أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف وليسوا من الأثبج إنما يلحقون بهم. والعمور بطنان قرة (مرة) وعبد الله وهم مستقرون بالضواحي والجبال وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة، وموطنهم ما بين جبل أوراس شرقًا إلى جبل راشد حيث الفقر والجدب.

ومواطن أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة[2].

2 – **رياح** : يرجع نسبهم إلى رياح بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وهو أخو الأثبج. يبطونهم : عمر، ومنهم علي ومنهم أولاد فادع وأولاد دهمان، عامر ومنهم خضر ويعرفون بالأخضر، **سعيد، ومرداس**[3].

مرداس : وهم أكثرهم بطونًا وأشهر بطونهم الذواودة أولاد داوود بن مرداس [4].

ورياسة مرداس طوال عهدهم في أولاد خنفر عند دخولهم إفريقية ثم انتقلت للزواودة طوال عهد **الموحدين بإفريقية. وأشهر زعماءهم مسعود بن سلطان بن زمام الملقب : بالبلط لشدته وصلابته، ونقله** الموحدون مع بعض بطون رياح والأثبج إلى المغرب حيث استقرت رياح ببلاد الهبط، ثم **استوطنوا جبل** أوراس والزاب في وقت لاحق.

- ثقافيا:

دخلت بسكرة تحت حكم حماد بن بلكين منذ تعيينه على رأس المغرب الأوسط، حيث أصبحت **تباعًا لذلك تحت سيطرة القلعة منذ سنة 398هـ/** 1007م لذلك فقد جرى عليها كل ما يمليه حماد على الأقاليم التي يحكمها، والتي من أهمها مبايعته للعباسيين وخلعه للفاطميين واضطهاده للشيعة، **وذلك سنة 405هـ/**1015م، وعلى الرغم من كون المذهب الشيعي ظل قائمًا إلى حين هذه القطيعة

1 - ابن خلدون :العبر، ج6، ص 34.

2 - مصطفى أبو ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب، ص 212-213.

3- ابن خلدون :نفسه، ج6 ،ص44 .

4- نفسه : ج6 ،ص 44 .

مع الشيعة، إلاّ أن هذه النظرة لا يمكن لها أن تعمم على كل المناطق وعلى كل الشرائح، فالمذهب الشيعي حورب حتى قبل خروج الفاطميين، وتدعّم المذهب المالكي بانشغال الصنهاجيين عن هذه نضايا ، لأنّهم في الأصل يحملون همّ الدولة الصنهاجية وليس هم استمرار مذهب الدولة الفاطمية والذي يُعبِّر في الأصل عن أساس هذه الدولة، لأنّها قامت على أساس ديني وهو النسب، ومن ثمة كان المذهب الشيعي أحد مقوّماتها، أما الدولة الصنهاجية بشقيّها - الزيري والحمادي- فإنّها قامت على اس قبلي بربري، لذلك فما أهمها كثيرًا شأن مذاهب العامة ومعتقداتهم وإن حاولت في العاصمة يت المذهب الشيعي، وإن حافظت على استمراريته في بداياتها إلاّ أنّها أعلنت تخليها عنه في عهد المعز بن باديس سنة 407هـ/1016م.

غير خافٍ ما كان لهذا من بالغ الأثر في العامة المغربية، وفي المنطقة المخصصة بهذه الدراسة، ذلك لأن عودة المالكية إلى البلاد تعني الحرية العقدية والفكرية بكل ما تشتمل عليه من معاني، لم يكن من الممكن جعل أهل المنطقة يعتنقون أي عقيدة أو مذهب ماعدا المذهب المالكي والعقيدة السنية البعيدة عن التحريف، وهو ما سعى سحنون إلى تأسيسه وإرساء قواعده وتخريج أفذاذ علماءه الذين اضطلعوا في الدفاع عنه بكل شراسة.

استمرت في عصرهم قراءة نافع التي أقرّها المذهب المالكي في إفريقية من قبل[1]، ومن الواضح أن أهل هذه البلاد المتعطشة للعودة للمالكية قد طبقوا كل تعاليمها بدون استثناء، وإن خانتنا المعلومات الدقيقة فمن المؤكد أن سكان بسكرة كان لديهم قاضيًا مالكيًا ومفتين مالكيين، وأنهم كانوا يرجعون في المسائل الكبرى التي تشكل عليهم إلى علماء القيروان المالكيين .

كان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لمدينة بسكرة وزيبانها ولكن أهم ما في الأمر أنها كانت مركزًا من مراكز المالكية في المغرب، فبسكرة دار علم وفقه وفيها العلماء، وأهلها على مذهب أهل ة، أي أنها كانت مقصدًا لعديد من الفقهاء والأكيد أنّه وقد نبغ من أهلها أيضا العديد من لعلماء، والواضح من هذه الرواية بما أنّها كانت دار علم وفقه أنها كانت بمثابة مدينة علمية مقصودة لأجل الفتوى أو الدراسة وطلب العلم لما عَرف فيها من مفتين "وما فيها من العلماء"[2].

ا أهل تهودة فهم على مذهب أهل العراق[3] أي أنهم أحناف، ولكن بما أن المذهب الحنفي

1 - إدريس : الدولة الصنهاجية، ج2، ص 320.

2 - البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 230.

3 - نفسه :ج2،ص 255

انتهى بذهاب الأغالبة، وتمسكت به بقيّة من السكان محافظة منها على مراكزها السياسية والقضائية العهد الفاطمي، فأي مصلحة لدى سكان تهودة في تبني آراء هذا المذهب والحفاظ عليه بهذا الشكل، وتأسيس تجمع منفرد بذاته في وسط خارجي - **مالكي**، وإن وجد الأصناف في تهودة فالمؤكد أن لهم قاضيًا وعلماء ومفتين منفردين عن سائر المدن البسكرية الأخرى التي عرفت بمالكيتها، بما أن لهم مسجدًا خاصًا، ولكي يجدوا مرجعيتهم الفقهية الشرعية لحلّ قضاياهم. تسكن ضواحي مدينة تهودة قبائل هوّارة ومكناسة البربرية المعتنقة للمذهب الخارجي، والذي دخل المنطقة في وقت مبكر جدا منذ بدايات القرن الثاني. يتقاسم الإباضية أيضا مع المالكية إحدى قرى بنطيوس الثلاثة على حساب اثنتين لأهل السنة، وأهل هذه القرية خوارج إباضية واصلية[1]. **وليست لدينا معلومات تؤكد وجود علماء إباضيين في المناطق الإباضية بقرى بسكرة، ولكن على الأرجح أنّه قد وجد على الأقل قضاة وأيمة.**

ومجمل القول أن شدة الانقسامات الداخلية و انتشار المذهب المالكي قد أدى إلى تراجع المذهب الإباضي ،ولم يستطع تفادي التقهقر الذي بدأ قبل هجرة بني هلال و تواصل بعدها ،لكنه تمكن من المحافظة على مواقعه مدة أطول في جبال دمر و نفوسة و بني ميزاب.

ولكن السّمة الغالبة على الزاب البسكري هي التمسك بالمذهب المالكي وإن وجدت بعض النواتات الخارجية أو الحنفية أو غيرها، ولكن الطابع العام كان موغلاً في المحافظة على مالكيته، وبما أن **بسكرة دار علم، فمن الواضح** أن هذا لم يكن يعني المدرسة الفقهية فقط، من الواضح أنّها كانت مجمعًا لطلبة العلم بكل فئاتهم وأعمارهم وتوجهاتهم، والأكيد أنها كانت مدرسة لجميع العلوم التي عرفها ذلك العصر، مع إمكانية اشتمالها على المكتبات والجوامع والكتاتيب. ومن الأمور التي يجب التركيز عليها **هو** دور الرحلة إلى المشرق والأندلس أو المغرب أو شمالاً نحو إفريقية والقيروان خصوصًا من أجل المزيد في المعارف والعلوم والآداب، كما يجب التركيز على دور الهجرات الهلالية التي من المستبعد أن تكون قد أثّرت في الحياة العقدية المذهبية والفكرية لمنطقة الزيبان البسكرية، **وإن كان من الممكن** -وإن لم تتوفر لدينا الأدلة الصريحة- قد حصل في البداية نوع من الاختلال في النسق الثقافي الذي كان مبرمجًا رسميًا إلاّ أنّها في النهاية آتت أكلها بحيث اتخذت مظهر الفتح، وتأسيس الإمارات العربية عملت على تعريب القبائل البربرية بالمغرب ذلك لأن الفتوحات الأولى نجحت في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية، فأتت الهجرة الهلالية لتضيف إلى ذلك الدم العربي وتعدّل التكوين الجنسي والعنصري لسكان المغرب، حتى أصبح البربري لا يلتمس إلاّ في معاقل الجبال ذات الطبيعة الوعرة ولا يميز إلاّ في بعض

1 - نفسه : ج2ص 255 .

الظواهر اللغوية[1].

إذا كانت الثقافة الفكرية والشرعية تميزت بتعدد مرجعيتها وكثرتها، وبمحاولة المالكيين الزيادة في التمسك وبعث الجذور بعيدا ؛ فإن الحياة الأدبية في إفريقية عامة من غير تحديد تميزت بعد غزوة بني هلال بثلاث خصائص :

- استمرار التقاليد العلمية القيراونية التي انتشرت في جميع البلاد.
- استيعاب بعض الأعراب المقيمين في المدن لتلك التقاليد.
- ظهور اتجاه جديد نحو اكتساب الشعر صبغة بدوية[2].

الموحدية والمذهب المالكي :

أصبح المذهب الموحدي إيديولوجية الدولة الرسمية طيلة العهد الموحدي، وكان لشيوخ الموحدين دور فاعل في السلطة والثقافة في الحقبة الموحدية غير أن المذهب المالكي كان متجذراً في البلاد منذ العهد الأغلبي، و لهذا فإن الفكر الوافد على البلاد مع المصامدة لم يتمكن من اقتلاع جذور المالكية[3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - مصطفى ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب، ص 63.

2 - إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج2، ص 219.

3 - انظر مفصّلا: محمد حسن : المدينة والبادية، ج2، ص 695.عبد الواحد ذنون: دراسات في تاريخ و حضارة المغرب الإسلامي ، بيروت : دار المدار الإسلامي ، ط1 ، 2004 ،ص 226 .حسن علي حسن :الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ،مصر :مكتبة الخانجي ،ط 1 ،1980م ،ص 465-466 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

بسكرة المدينة - الدولة في زمن بني مزني

1-بنو مزني و ميلاد المدينة -الدولة.

2-ميلاد نظام ضريبي معقد.

3-مجال اجتماعي متحرك و انتشار واسع للمذهب المالكي و التيارات الصوفية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1–بنو مزني و ميلاد المدينة –الدولة:

كان بنو مزني حيًا من أحياء العرب التي دخلت إفريقية مع طوالع بني هلال، وقد دخلوا أحلافًا لهم بالزاب، والظاهر من الرواية الخلدونية أنّهم ومنذ البداية استقروا بالزاب، غير أن الواضح أنّهم كانوا قبيلاً كبيرا بحيث اتخذوا لأنفسهم إحدى القرى التي عمروها بأكملها، وتدعى قرية حياس. وكان هذا أثناء دخول العرب الهلالية للمغرب خلال منتصف القرن 05هـ/11م.

وبنو مزني من عرب الأثبج من لطيف، وتحديدًا من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن محيًّا بن جُريّ، وذلك أن أهل الزاب كلهم من أفاريق الأثبج عجزوا عن الضعن ونزلوا قراه على من كان قبلهم من زناتة وطوالع الفتح. غير أن بني مزني بعد أن علا شأنهم استنكفوا عن هذا النسب، واستصغروه لما صار إليه الأثبج من المغرم والوضائع، فانتحلوا لأنفسهم نسبًا آخر زعموا أنّهم من مازن من فزارة.

ما يثير التعليق انطلاقًا من هذا : لماذا لا ينسب إلى بني هلال إلاّ كل شائنة من الوضائع والتخريب والفوضى والخيانة وقطع الطريق، والحال في الزاب تُعبِّر عن تمكنهم من إقامة دولة عرفت بهم.

وعلى اعتبار أن بني مزني استوطنوا بسكرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس، فإنّه وبمرور لي قرنين من الزمن كثروا وتسايلوا، ما أدى بهم إلى الخروج من قريتهم الأولى إلى أرض بسكرة، فتوسعوا فيها وكثروا المساكن، وامتلكوا العقار والضياع، ما قادهم في نهاية المطاف إلى السيطرة النسبية مصادر المياه. المهم في أمرهم أنّهم حاولوا امتلاك رؤوس أموال كبيرة من الزراعة والفلاحة، ما جعلهم يستمتعون بالأملاك والمنازل ؛ وهذا دليل التوسع السكاني وامتداد الملكية الزراعية، ومن الواضح أنهم صاروا بمرور الزمن من أهل المدينة بحيث قاسموا أهلها الحلو والمر[1].

وغير خافٍ على أحد من كان لهم من طموحات سياسية جعلت كبار رؤسائهم ينتظمون شيئًا فشيئًا ضمن أرباب الشورى مع بني رمّان الذين استنكفوا من انتظامهم معهم،و هو ما أدّى إلى اشتعال نار العداوة بين الفريقين[2]، ولعل بُعد نظر رؤوس بني رمّان هو الذي جعلهم يبتدرون بني مزني بالمدافعة، ومن الواضح أن هذا العداء قد تحوّل إلى حرب دارت رحاها بين الطرفين حتى تواقعوا في عديد من

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 585.

[2] - نفسه، ج6، ص 586.

رات في ساحات المدينة، ولعلّ هذا ما أدّى بهم إلى الاحتكام والترافع إلى سدّة السلطان بتونس، وكان ذلك على عهد السلطان أبي حفص، ولعهد الأمير أبي زكريا وابنه السلطان المستنصر. ولكن بني رمّان حضوا في الأخير بتأييد الدولة، ويرجع ابن خلدون ذلك إلى قدمهم في البلد[1] ؛ وذلك كونهم أعرف بأمورها وبما يصلح لها، وكذا معرفتهم بأحوال العرب الذين يسكنون زيبانا، وبالتالي فهم أقدر على التحكم في الوضع، حسب رؤية السلطان.

في هذه الأثناء، قامت في الزاب ثورة أثارها الثائر المنشقُّ المدعو بأبي عمارة، ونحن نجهل مدى قوة هذه الثورة التي استدعت خروج السلطان بنفسه لقمعها، حيث خرج السلطان المستنصر من تونس، وذلك سنة 651هـ/1253م، وقصده إلى الزاب، وأوقع به وبجموعه وتقبّض عليه، وسيق إلى السلطان فقتله، وبعث برأسه إلى تونس، فنصب بها[2].

لم ينحصر بنو مزني بإطارهم الجغرافي السياسي فقط، بل تعدى ذلك -وهذا نتيجة لطموح رؤسائهم المتزايد- إلى سدة السلطان بتونس، بحيث أنّه وعند خروج الأمير أبي إسحاق على أخيه المستنصر، لحق بالذواودة من العرب، وبايع له أمير البدو موسى بن محمد بن مسعود البلط، واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب، فقام فضل بن علي بن مزني بإيوائه ، وأقام دعوته، وأعلن بين أهل بلده بطاعته، فاتبعوه على كره، ربما خوفًا منهم من هجوم مفاجئ من قبل السلطان. وبالفعل، فعندما عاجلتهم جيوش السلطان المستنصر، فرَّ الأمير أبو إسحاق فاعتلق به ابن مزني وصحبه إلى الأندلس[3].

وفي سنة 666هـ/1267م، خرج السلطان المستنصر إلى الذواودة، وقائدهم شبل بن موسى، والذين ما فتئوا يحالفون مخالفيه من ذوي قرابته. فبعد مبايعتهم لأبي إسحاق قدّموا كل أسباب الدعم لأبي القاسم ابن عمه، ونتيجة لكثرة اضطراباتهم التي أزعجت السلطة المركزية، فقد قام المستنصر مع حلفه المكون من كعوب بني سليم وأفاريق بني هلال بتعقبهم أين فرَّ بنو مسعود من الذواودة من الزاب حيث استوثق منهم عامل بجاية وأعط م الأمان، ثم غدر بهم، وكان على رأس من قتل شبل بن موسى، وبعث رؤوسهم إلى بسكرة فنصبها، ثم سار إلى أغلب أحياءهم يتتبعهم في ثنايا بسكرة والزاب فأجفلوا وتركوا المال والأبنية والماشية، فغنموا منهم، وتتبعتهم العساكر حتى وصلوا وادي جدي قبلة الزاب، فلما جاوزوه إلى الصحراء، رجع العسكر بعد أن غنموا[4].

---

[1] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 586.

[2] - نفسه : ج6، ص 406.

[3] - نفسه : ج6، 587.

[4] - ابن خلدون : نفسه، ج6، ص 423-424.

وعلى الرغم كل الاحتياطات التي قام بها بنو رمّان من تحديد الولاء للموحدين من بني حفص، إلاّ أن عودة السلطان أبي إسحاق من الأندلس، وتنصيبه على عرش السلطنة الحفصية شكّل حدثًا فاصلاً في تاريخ مدينة بسكرة وزيبانها، إذ أنّه وابتداءً من هذا التاريخ سوف يتولى بنو مزني إمارة بسكرة، ممهدين بذلك -رغم الزعزعة التي سوف تحدث لاحقا- إلى قيام الدولة التي ستعرف ببني مزني. ولعل رغبة الأمير أبي إسحاق في ردِّ جميل من قاموا بأمره أولاً وأخيراً، دفعه إلى تعيين الفضل بن علي بن مزني على الزاب التي لم يكن يليها إلا المخلصون لبني حفص، ولكنه رعى لفضل ذمة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له على الزاب، ولأخيه عبد الواحد بن مزني على قسطيلية[1] وكان ذلك سنة 678هـ/1279م. فقدم واليًا على الزاب، واستكان بنو رمّان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى إمرته، ولم ينبسوا بكلمة في شأنه[2].

غير أن بني رمّان الذين لم يكونوا بأية حالٍ ليسكتوا عن ملكهم الضائع أو أن يسلموه لأعدائهم من بني مزني ؛ داخلوا أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأثبج، والتي كانت تستوطن قرية ماشاش لأول دخول بني هلال المغرب، فامتزجوا بسكانها، وأصهروا إليهم، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم حتى صاروا منهم. فتحالف معهم بنو رمّان من أجل إيجاد سبيل للفتك بابن مزني. على أنّه إثر ثورة أبي عمارة، وما كان من مقتل أبي إسحاق وتولي أبي زكريا، وإغراء بني رمَّان لبني حريز بالفتك بفضل بن علي على أن يكون لهم التقدم في الفتك به وتناول الأمر من يده، وأن يخربوا بيوتهم بأيديهم في قرية ماشاش، ليسكنوا إليهم وليطمئنوا إلى ولايتهم، ولكن بمجرد الإيقاع ببني مزني، وتولى بني رمّان الحكم - بعد أن ولاّهم السلطان أبو حفص على بسكرة- تنكروا لهذا الحلف بعد حولين من عقده ونابذوهم العهد، فخرجوا من البلد بعد أن خربوا بيوتهم بأيديهم وتفرقوا في بلد ريغة[3]. وكان منصور بن فضل بن مزني قد لحق بالحضرة إثر مهلك أبيه بها[4] واستبدَّ بنو رمّان بأمر بسكرة وزيبانها بعد أن نجحوا في الوشاية بابن مزني الذي اعتقله السلطان في تونس. ولكن بعد تولي السلطان أبي زكريا يحي بن الأمير أبي إسحاق و تغلبه على بجاية وقسنطينة وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب تونس المولى أبي حفص، أما المنصور بن الفضل بن مزني فقد دخل في خدمة أبي زكريا وصانعه بوجوه التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب إلى طاعة حضرته، وأن

---

[1] - نفسه : ج6، ص 436.

[2] - نفسه :ج6، ص 587.

[3] - نفسه، ج6، ص 587.

[4] - نفسه : ج6، ص 451.

تكون جباية بسكرة وزيبانها إلى بجاية، ونظرًا لولاءات بني مزني لأبي إسحاق وابنه أبي زكريا فقد عقد هذا الأخير للمنصور على الزاب، وأمده بالقوة العسكرية التي تمكنه من احتلال المنطقة نظرا لولائها لتونس، فارتحل إلى بسكرة وانتزعها عنوة من يدي بني رمَّان الذين خرجوا منها وافدين على بجاية موجهين للسلطان أبي زكريا بيعتهم، وعدولهم عن رأيهم، ولكن السلطان ببجاية قبل هذه البيعة ولكنه رفض بهم بالولاية، وأرجعهم على أعقابهم إلى عاملهم المنصور، وكان دخوله البلد سنة 693هـ/1293م، غير أن بني رمان **وكما فعلوا هم بالضبط بأولاد حريز بن لطيف، فقد نابذهم ابن** مزني العهد، وثار بهم فأجلاهم عن البلد وكانت تلك نهاية ملكهم بالزاب[1].

ومنذ هذا التاريخ صارت بسكرة وإمارة بني مزني متسعة الأطراف فقد صارت ترأس زيبان بسكرة وزاب بادس وزاب مليلة وزاب طولقة وزاب **الدوسن**[2] وغيرها مما أغفل ابن خلدون ذكره، إضافة إلى ما أضاف إليه السلطان من جبل أوراس وقرى ريغة وبلد ورقلة وقرى الحضنة : مقرة ونقاوس والمسيلة، فقد عقد له السلطان على جميعها. غير أن الهدف الاقتصادي لعب دوره في هذه التوسعة، إذ دفعه السلطان إلى مزاحمة العرب في جباية أموال هذه المناطق، وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي.

غير أن أقصى اتساع بلغته إمارة منصور بن الفضل كان في عهد الأمير أبي البقاء خالد الذي عقد له على بلاد التل من أرض عياض وسدويكش فاستضافها إلى عمله[3].

من الواضح أن منصور بن فضل كان رجلاً ذو حكمة كبيرة وبراعة سياسية واقتصادية، إذ لولا نكته لما استطاع التحكم في هذه الإمارة الواسعة التي حقق بها حلم العديد من أسلافه الذين طال طموحهم إلى الاستقلال بملكية أرض الزاب؛ استقلالا سياسيا لا يعتمد إلاّ على الاعتراف بسلطة الحاكم. غير أن الممارسة الفعلية للسلطة على أرض الواقع لا تتحدّد إلاّ بممارسة المالك الفعلي المسمّى على رأس المنطقة. لقد ارتقى ابن مزني بالعربي الهلالي إلى أمير يحكم منطقة شاسعة ممتدة الأطراف، يميزها العدل والتنوع العرقي والمذهبي، ليحوّل هذه الإمارة إلى حكم وراثي استطاع الصمود لمدة زادت عن القرن .كما عبّر حكم بني مزني للزاب عن سياسة اقتصادية بارعة، حيث استطاع المنصور بن فضل أن يزاحم الأعراب المقيمين في الزيبان حتى كاد يغلبهم في جبايتها، ووفر الأموال وجبى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجذبوا بضبعه إلى أرقى مراتب الاصطناع. **فأثرى واحتجز الأموال،**

---

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 588.

[2] - نفسه : ج6، ص 585.

[3] - نفسه، ج6، ص 588.

ورسخت عروق رياسته ببسكرة، ورسخت منابت عزّه. وعندما زيد له ملك سدويكش وعياض وبلاد التل جرّد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمها وتفجرت ينابيعها[1].

وهنا من الواجب الوقوف عند هذه الأسرة التي تطوّر حكمها إلى الوراثة، والملاحظ على أرضية واقع السلطنة الحفصية في هذا الوقت بالذات هو تنامي الاستقلال الاسمي في العديد من المناطق الجنوبية ،خاصة وإن كان الأصل في التبعية هو إعلان البيعة الإسمية للحاكم الجديد، غير تطور المشيخة التي ابتدأت في الأصل من جماعة شورية ديمقراطية إلى أسر تتنازع لفرض سيطرتها ليتم الوصول إلى انتزاع السلطة وفرض الهيمنة وثم التوسع على حساب الجوار، لتصبح فيما بعد وراثة أو ملكًا .غير أن الجدير بالتنويه هو أن حكم بني مزني ببسكرة قد ارتقى بنموذج الهلالي الذي استطاع في أقل مدة من تكوين إمارة استطاعت الرقيّ بمدينتها وتجمعها الحضري إلى مصاف الدول الحاكمة لوسط محدّدٍ جغرافيًا وبشريًا، فهل تمكن المغرب من تطوير هذا الهلالي الذي وصل إفريقية في صورة الغازي؟.

أم أن هذا حكم جزافي لا يعتمد في الأساس إلاّ على خلفيات ممددة وموسعة؛ وصاحب **النظرية نفسه** يقدّر أن بني مزني منذ دخولهم المغرب كانوا مسالمين موادعين ومالوا منذ أول وهلة إلى حياة الاستقرار. بل صاحب المقدمة صنّفهم منذ البداية في خانة المزارعين والفلاحين والبعد عن حياة الضعن والترحال وتربية المواشي و قطع السابلة، بل استقروا في الحياة الحضرية. ومن **الدلالات الواضحة** على تفكير هذا القبيل الذي يميل إلى اتخاذ أسباب الحضارة، كما يدل على ذكاء سياسي انضمامهم في حياة قروية باختطاطهم قرية حياس منذ أواسط القرن الخامس، و هو ما يدل على تفكير جدي في **تحقيق الاستقرار الذي بدأ بدويًا طرقيًا يعتمد على النظام الغراسي** الزراعي السقوي، القائم على طرف المدينة، و منه تم الدخول التدريجي ثم النهائي إليها والتي لم يلبثوا أن صاروا مُلاّكًا لأضخم القصور. وما هذه إلاّ دلالة واضحة على ذكاء كبير، ولكن ذلك لم يكن ليتحقق دون امتداد يد الحفصيين إلى ترقية هذه الأسرة.

إستطاع السلطان أبو البقاء خالد توحيد السلطنة الحفصية التي كانت موزعة بين عاصمتين : بجاية وتونس، ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض المنافسين الذين كان من بينهم السلطان يحي بن خالد بن أبي إسحاق. وقد كان في جملة السلطان أبي البقاء، لكن الدولة تنكرت له ببعض النزغات فخشي **البادرة**، ففرّ ملتصقًا بابن مزني، وجمعت بينهما النفرة من السلطنة، هذا من السلطان، وابن مزني من ابن غمر حاجبه، فانتهز هذا الأخير فرصة لجوء الأمير الحفصي إليه واستجاب لدعوته بعد أن عينه حاجبا

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 588.

له ،و هكذا اجتمع غضب الأمير الحفصي مع غضب والي منطقة الزاب، فتعاونا على القيام بأول حركة انتقاض تعتبر ضد الوحدة الحفصية أكثر مما هي ضد أبي البقاء. إلاّ أن هذه الحركة الإنتقاضية قُضي عليها في المهد. وكان من أهم أسباب ذلك أن التحالف الذي حصل بين منصور بن مزني ويحي الحفصي سرعان ما تلاشى، فقد اكتشف ابن مزني أن الأمير الحفصي يُكِنُّ له الغدر في صورة انتصاره على أبي البقاء خالد، وأنّه أفضى بذلك إلى الأعراب المناصرين له، فلم يكن من ابن مزني إلاّ أن نفض يديه من الأمير الحفصي الثائر وعاد إلى أبي البقاء خالد، ومصالحة حاجبه ابن غمر[1].

الأمر الذي يثير الملاحظة أن حظوة ابن مزني عن السلطان أبي البقاء خالد وحاجبه ابن غمر كبيرة بحيث أنّه بعد فرض السلطان أبي البقاء الوحدة بين المملكتين الحفصيتين تونس وبجاية، وبعد استقراره بتونس أدخل تحويراً كبيراً على أجهزة الدولة مفضِّلاً كبار الموظفين المخلصين الذين كان ابن مزني من بينهم، والذي عهد إليه بولاية الأشغال (الولاية المالية)[2].

لقد عرفت بلاد الزاب بداية من النصف الثاني للقرن السابع بداية عهد جديد، اتسم بالقوة وبالغنى والأهم بالاستقلالية التي صبغتها الحرية التي قد تصل إلى حد الاعتساف أحياناً. فمنذ أن أطلق السلطان أبو زكريا يد ابن مزني في الزاب، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جباية أموال هذه المناطق وانتهاش لحومها، لم يتوان ابن مزني في انتهاب الأموال وضم الإقطاعات ، بالمقابل ظهرت حركة بعض العرب الهلالية التي اتّسمت بالنشاط الحرابي القائم على أعمال السطو والذي شنّته بعض قبائل الأثبج ورياح بمنطقتي الزاب والحـ سنة منذ نهاية النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري ؛ حيث تحكموا في الطرق الواصلة بين مدن هذا الفضاء الواسع[3] من الملاحظ في الشق المقابل، بدأ المجتمع المغربي في تأسيس الزوايا نتيجة لانتشار الحركة الصوفية وطرقها، فتعدد الأولياء وتأسست الزوايا في كل أصقاع البلاد حتى أصبحت تنظيمًا اجتماعيا وسياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا استطاع افتكاك مكانته والهيمنة على جمهور من الناس[4]. ولكن مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو سيطرة الأفكار الدينية الإصلاحية التي يمثلها التصوّف في بعض فروع أعراب بني هلال وسليم الذين انخرطوا ضمن الثقافة الدينية لمجتمع المغرب الأوسط عبر بوّابة التصوف والمتأثرة إلى حدٍّ ما بالثقافة الشرقية الأندلسية[5].

---

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 470. المطوي : السلطنة الحفصية، ص 312.

[2] - ابن خلدون:نفسه: ج6، ص 470. برونشفيك : تاريخ إفريقية، ج1، ص 158.

[3] - الطاهر بونابي : حركة المرابطين السنة في الزاب بين التصوف والرباط، المجلة الخلدونية ،09 ،الجزائر ،2011 ،ص 59 .

[4] - محمد حسن : القبائل والأرياف المغربية، تونس : دار الرياح الأربع، 1986م، ص 202.

[5] - بونابي : المرجع نفسه ، ص 60. برونشفيك : تاريخ إفريقية، ج2، ص 348.

إندرجت حركة سعادة الرحماني ضمن الحركات الدينية الصوفية الإصلاحية، التي دعت إلى التغيير وقمع الظلم، وفي الجملة إلى تطبيق السنة النبوية وقد جاءت في الظروف المتحدث عنها سابقًا. فجاء سعادة الرحماني من أجل قمع أعمال السطو والنهب التي كانت تطغى على بادية الزاب، ومن جهة ثانية واجهت ظلم السلطة؛ فقد تصدى هذا المرابط للمظاهر الناجمة عن حرابة العرب وتعديهم، أو عن ظلم المخزن الحفصي ممثلاً في أسرة بني مزني، وفي كلتا الحالتين فإن هذه الحركة كانت تدافع عن مصالح لمجتمع، أو على الأقل على جزء منه -وهو مرتبط بالأرض وصغار التجار والحرفيين- ضد الانفصال وفوضى البدويين وتعديات بني مزني، وقد حظي بثقة نسبة كبيرة من الحضر لا لاعتقادهم في كراماته وإنما أساسًا لكونه من الفئة ذات النفوذ[1].

إنه سعادة الرحماني من مسلم إحدى شعوب رياح ثم من رحمان منهم، وكانت أمُّه تدعى خضيبة، وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع، ونشأ هو منتحلاً للعبادة والزهد، وارتحل إلى المغرب ولقي الشيخ أبا إسحاق التسولي بنواحي تازة، فأخذ عنه ولزمه وتفقه عليه، ورجع إلى وطن رياح -الزاب- بفقة صحيح وورع وافر، ونزل طولقة من بلاد الزاب، فأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه. فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم، فكثر بذلك أتباعه ستظهر بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به[2]. هذه الحركة دامت من سنة 703هـ/1303م-705هـ/1305 واستمر نشاطها العسكري حتى نهاية العقد الرابع من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وهنا تجاوزت نشاط حفظ الأمن وتغيير المنكر في الطرقات إلى التماثل مع تجارب الحركات الصوفية في مشهد تأسيسها للزاوية بنواحي طولقة، وتميز مؤسسها سعادة الرحماني عن المرابطين السابقين بالتمكن في الفقه والتحلي بالورع[3].

ويبدو حسب ابن خلدون أنّه حدد أربعة مراحل رئيسية في تطور نشاطها :

1 - مرحلة تغيير المنكر وإصلاح العشيرة والأصحاب.

2 - مرحلة التنظيم ومحاربة قطاع الطرق.

3 - مرحلة الانخراط في التصوف، وتوسيع العمل بمبدأ تغيير المنكر على المستوى السياسي والاقتصادي.

---

[1] - محمد حسن : المدينة والبادية، ج2، ص 357.

[2] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 589.

[3] - الطاهر بونابي :حركة المرابطين السنة ،ص 67 .

4 - مرحلة العودة إلى الطابع التقليدي في الصراع القبلي بين القبائل العربية .

التفاف العرب حول هذه الدعوة الدينية ذات البعد الإصلاحي يقوي رأي ابن خلدون في أن العرب إذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يتبعهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تمّ اجتماعهم وحصل لهم التغلب ، الأمر الذي جعل سعادة يوسع من نطاق العمل بتغيير المنكر ليشمل محاربة قطاع الطرق من أشرار **البوادي**، مستفيدًا من الدعم القبلي الذي صارت تتمتع به هذه الحركة ، وقد سلك إزاء هؤلاء أسلوب الشدة و .وحتى نهاية المرحلة الثانية لم يكن في نشاط هذه الحركة ما يشير إلى انطوائها على أهداف سياسة مسطّرة، نظرا لتركيز جل عملها في البوادي التي كانت تعاني انتشار **المنكر وضرر قطاع الطرق** من العرب واللصوص. إلى أن كانت المرحلة الثالثة وفيها غيّر سعادة وأنصاره المرابطون من إستراتيجيتهم نحو تغيير المنكر على المستوى السياسي والاقتصادي باتجاه المدينة، فطالبوا أمير الزاب منصور بن فضل إعفاء الرعية عملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين بها، ويبدو أن أنصار سعادة قد أدركوا أهمية هذه المرحلة وخطورتها فبايعوه على السنة والموت دون ذلك [1].

وقد استشعر منصور بن مزني خطورة هذه الحركة فعقد حلفًا مع قبائل الذواودة الذين وافقوا على محاربة المرابطين السنة، كما طلب النجدة من الوالي الحفصي ببجاية الأمير خالد بن أبي زكريا الذي أمدّه بالجيوش، وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة الذي خرج من طولقة وابتنى بأنحائها زاوية، ونزل ما مع أصحابه، ورغم أننا لا نملك أية معطيات تسعفنا في تكوين فكرة عن نشاط المرابطين السنة بهذه الزاوية ولا حتى معرفة الاتجاه الصوفي الذي سلكه شيخها؛ إلا أن المنحنى العسكري العنيف الذي تبنته هذه الحركة في مواجهة السلطة يخالف وسائل المقاومة التي اعتدناها عند الصوفية والمتمثلة غالبًا في الدعاء والمقارعة بأداة الكرامة، لذلك زحف المرابطون السنة على بسكرة مقر ابن مزني مرّتين، **فحاصروها سنة** 703هـ/1303م **و** 705هـ/1305م، غير أن سعادة ارتكب خطأ عسكريًا عندما سرّح أنصاره الذين عاد أكثرهم إلى مشاتيهم وأقام هو بزاويته مع المرابطين الذين لم يلتحقوا بقبائلهم، ثم قام بغزو "مليلي" وحاصرها أيامًا، غير أن ابن مزني المدعوم من الحفصيين وعرب الذواودة تمكن **من** هزيمة المرابطين وقتل شيخهم سعادة، لكن أنصاره من المرابطين واصلو صراعهم العسكري ضد ابن مزني بقيادة الشيخ أبو يحي بن أحمد وحلفائه، فحاصروا بسكرة وقطعوا نخيلها وأعدموا عمال ابن مزني وأولياءه من الذواودة حتى ألحقوا الهزيمة بعلي بن منصور بن مزني وقتلوه في **الصحراء سنة**

[1] - نفسه، ص 67.

713هـ/1313م. وبذلك سيطر المرابطون السنة في عهد شيخهم أبي يحي بن أحمد وخلفه عيسى بن على الزاب. غير أن وفاتهما أفقدت الحركة أبعادها الجهادية والإصلاحية والصوفية، ولم يبق من آثارها سوى حرمة الزاوية التي أسسها سعادة بطولقة والتي كفلت لأبنائه وحفدته من بعده احترام السلطة لهم ببسكرة، وكذلك وفاء الأعراب الغلاة لها فكانوا يعترفون لأبناء سعادة بحق إجازة من يجيزونه من المسافرين، وكم كان ابن خلدون حصيفا عندما أشار إلى نهاية الحركة في ثوبها المرابطي واستمرارها في ثوب الصراع البدوي. الذي أعاد قبائل الزاب العربية على حد تعبير محمد حسن إلى النمط التقليدي في الاقتتال، وهي المرحلة الخامسة والأخيرة من عمر الحركة[1].

وكدليل على انحرافها عن الأبعاد الروحية والإصلاحية لجأ المرابطون السنة إلى اختيار الفقيه المقري أبي عبد الله محمد ابن الأزرق ليكون مفتيهم في الأحكام **والعبادات ، وأوكلوا مهمة القيادة العسكرية** للشيخ الحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة. وفي هذا الترتيب تراجع عن مقومات الزعيم الروحي للحركة، فبعد أن كان شيوخ الحركة يجمعون بين صفات المرابط والصوفي والفقيه انحدر سقف مشيخة المرابطين السنة وانحصر في الاكتفاء بشيخ فقه العبادات والأحكام وهو السقف الذي ارتضاه هؤلاء المرابطين لأنفسهم. وفي هذه المحطة أيضا خاضوا صراعهم القبلي ضد أخوانهم من قبائل الذواودة بزعامة شيخها علي بن محمد شيخ أولاد محمد. كما امتدت إليهم يد السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمان **الأول** 718-737هـ/1318-1352م، الذي كان يبعث إليهم بالجوائز ويخص شيخهم ابن الأزرق بجائزة خاصة، وكان قصده استمالتهم في صراعه ضد الحفصيين، وقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى تمكن أمر هؤلاء المرابطين السنة تتمثل في تمكن شيخ أولاد محمد بن علي بن أحمد من مناجزتهم **عسكريا وموت الزعيم العسكري** للحركة حسن بن سلامة، وتمكن بن مزني حاكم بسكرة من جذب الفقيه ابن الأزرق وتنصيبه على قضاء بسكرة. ولم يبق من طيف الحركة سوى تطلع بعض شيوخ قبائل رياح في محاولة لاستثمارها في صراعهم ضد ابن مزني في بسكرة حتى سنة 740هـ/1339م. **بل إن** البعض كان يجد فيها وسيلة لاست**خلاص ضريبة العشر من المزارعين.ويبدو أن تداعيات حركة المرابطين** السنة امتدت إلى النصف الثاني من القرن 8هـ/14م. **وصارت عنوانًا لانتحال صفة الرباط والمرابط لدى** بعض الفرسان من عرب الزاب والأوراس، الذين أقاموا قصوراً وتظاهروا بالرباط، كما ازدادت هذه الحركة **والظاهرة** تصاعدًا في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م مفرزة أصنافًا كثيرة من المرابطين[2].

وبالعودة إلى بني مزني فإن الجدير بالذكر أن العلاقة بين ابن غمر الحاجب لدى السلطان وابن

[1] - انظر : محمد حسن : المدينة والبادية، ج2، ص 775. الطاهر بونابي : حركة المرابطين السنة في الزاب، ص 68.

[2] - روبار بروتشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص 350 . الطاهر بوناني: حركة المرابطين السنة، ص 69-70.

مزني لا تزداد إلاّ تطوّراً ومتانة، فقد استخلصه لنفسه وأحلّه محلّ الثقة بحلّته، وكان كثير التردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها، وتقبّض عليه أمراء الذواودة[1].

فهل يعقل أن يكونوا من بقايا المرابطين السنة الذين ظلوا يتحينون الفرصة للوثوب عليه، المهم أنّهم استمكنوا من منصور بن الفضل في رجوعه من قسنطينة -**بلاد سدويكش**- وأوثقوه اعتقالاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب[2]، فخلّصوه. ولهذه الحادثة عدة دلالات : الغنى المفرط الذي تمتع به ابن مزني إذ استطاع أن يفتدي نفسه بخمسة قناطير من الذهب.

—كره القبائل الطرفية البادية لحكم ابن مزني ما دفعهم إلى **محاولة اغتيال فاشلة.**

—ضعف الأمن في منطقة الزاب، وانتشار الفوضى والحرابة، ما أدّى بابن مزني إلى الإعراض عن السفر بعد هذه الحادثة إلاّ في الأحايين النادرة.

وفي سنة 717هـ/1317م، كانت حركة السلطان أبو يحي أبو بكر إلى تونس، حين طالب **حاجبه وصاحبه يعقوب بن غمر وهو** بثغر بجاية بالأموال والنفقات والأعطيات، فبعث إليه منصور بن فضل بن مزني عامل الزاب وكان ابن غمر لما رأى من كفايته وأنّه جمّاعة للمال استضاف له عمل جبل أوراس والحضنة وسدويكش وعياض وسائر أعماله، فكانت أعمال الجباية كلها خاضعة لنظره، وأموالها في حساب دخله وخرجه، **فبعثه ابن غمر لقيّم أعمال السلطان، واستخلفه على خطة حجابته**[3] **ليقوم** بأمره ويكفيه مهمات شؤونه، واعتبرها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتنكر له ابن غمر وحالت صبغة ودِّه، وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي[4]. **ولما استقر السلطان بقسنطينة بدت له من يعقوب بن غمر** صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل، وصرف إلى ذلك منصور بن فضل، و بعث في أثره قائده ابن سيد الناس يهيئ له قصور بجاية للتحول إليها، فردّه ابن غمر وتنكر له[5]، فلما كانوا ببعض الطريق عدل المنصور بن فضل إلى بلده، فأجاره أولياؤه **من** العرب عثمان بن ناصر شيخ أولاد حربي، ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم.

---

[1] - تقبّض على ابن مزني **الأمراء** : علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحي بن مسعود، **على حين اجتذبا** حبل إمارة العرب من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رياسة الذواودة. انظر مفصلاً : ابن خلدون: العبر، ج6، ص 589.

[2] - نفسه : ج6، ص 589.

[3] - ابن خلدون: العبر ، ج6، ص 480.

[4] - نفسه : ج6، ص 590.

[5] - نفسه : ج6، ص 480.

ولحق ببسكرة، وبلغ الخبر ابن غمر فقرع سن الندم لأنّه من الواضح أنّه هو الذي أمر ابن سيد الناس بالفتك بابن مزني. وكانت تلك وسيلة ابن غمر في إبعاد الشخصيات التي تمكنت من النفوذ عند أبي بكر وهي التآمر عليها لإقصائها[1].

خلال السنوات الأولى المليئة بالاضطرابات، ضاق نطاق المناطق الخاضعة للسلطة الحفصية إلى حدٍّ بعيد بسبب الاضطرابات الداخلية والغزوات الخارجية، وبذلك تحصلت المناطق الجنوبية من السلطنة على درجة كبيرة من الاستقلالية تحت سلطة الحكومات المحلية. ففي بسكرة التي خضع حكامها بنو مزني المسيطرون على الواحات الصحراوية من الأوراس والحضنة إلى ورقلة لسلطة السلطان أبي بكر، سرعان ما توجّه نظر زعيمهم منصور نحو بني عبد الوادي واعترف بتبعيته لهم، وذلك حقدا **على الوزراء الحفصيين**[2]، **وربما** نتيجة طلبات الحفصيين المتكررة بتدبير الأموال والنفقات اللازمة لحملة الأمير أبي يحيى إلى تونس في 717هـ/1317 ويبدو أنهم اشتطوا في مطالبهم مما اضطر منصور للانسحاب ومعه حلفاؤه من عرب أولاد حرب بقيادة عثمان بن الناصر وعرب أولاد خنفر بقيادة يعقوب بن إدريس إلى إمارته. ومنه فقد بادر كل هؤلاء إلى مناصرة صاحب تلمسان أبو تاشفين والدخول في طاعته، وأوفد إليه منصور ابنه يوسف يحمل شارات الطاعة والولاء والهدايا.

وخلال هذه الفترة توفي الحاجب ابن غمر سنة 719هـ/1319م، **وملك السلطان أبو بكر تونس** وسائر بلاد إفريقية، ولكن خروج ابن مزني عن سلطانه بعد أن توالت عليه نعمه، ووسع له في ملكه، وأدرّ له جباياته، أحزَّ في نفس السلطان الذي توالت عليه النكبات. وخاصة انقلاب الوضع السياسي في عدة أجزاء من السلطنة وتغيير الولاءات كما حدث مع الزاب واتجاهها نحو جهة الغرب مقلصة **بذلك من حجم السلطنة** الحفصية وبالتالي نقصان خراجها. واستمر منصور بن مزني في رفضه الخضوع للسلطة الحفصية، وعلى الرغم من توالي العساكر وترددها على بسكرة إلاّ أن ابن مزني استمر في عصيانه، مما أدى إلى حدوث وقائع بين الجيشين. لكن ابن مزني ظل ممتنعًا سائر أيامه إلى أن وافته منيّته سنة 725هـ/1324م[3].

لم يكن من السهل على ابن مزني بعد أن صعد بعيدًا سلّم التشريفات الحفصي أن يعود إلى ما صار إليه، ولم يكن السلطان الذي ولاّه مكانة صاحب الأشغال ووزارة المالية على الجهة الجنوبية والغربية من السلطنة ليقبل الخيانة، فالأمر لم يكن بالهين على كليهما؛ المنصور الذي أصبح يرى آماله وأحلام

[1] - نفسه: ج6، ص 590. المطوي : السلطة الحفصية، ص 322.

[2] - برونشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج1، ص 180.

[3] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 590.

أجداده تتجسد على يديه، لكنه لم يكن ليرضى إلاّ بالبعيد ما دام رضى السلطان في يده. غير أن تقديرات ابن مزني لم تكن صائبة كل الصواب ؛ فهو لم يكن سوى صنيعة للحاجب الوزير ابن غمر الذي رقّاه أكثر مما أوصله اعتقاده، لكن بمجرد اهتزاز الثقة بينهما عاد ابن مزني إلى زابه الذي كان يفترض به أن يكتفي به منذ البداية . ولكن على الرغم من مناوراته ومحاولاته لم يستطع العودة إلى ما كان عليه خاصة وابن غمر في مكانه. لم يكن سهلاً على ذلك الأمير الطموح أن يعود أدراجه إلى حدوده، ويرضى بقطيعة صديقه الوزير، وانشغال السلطان عنه والذي ولّى غيره مكانه، فحثَّه حقده على موالاة العدو رغبة في الانتقام، واستمر على موقفه سنينًا كثيرة امتدت حوالي سبع سنوات حيث مات على موقفه المتصلّب. أبناء مزني الذين كانت همتهم متوجهة نحو الاستقلالية والحرية والمزايا والشرف والذين انضموا إلى سلطان آخر زادوا في توسعة أراضيه بانضمام أرض الزاب إلى ملكه، لم يترددوا في شق عصا الطاعة في وجه السلطان الحفصي حيث تمتعوا بكامل حرّيتهم حيث تلمسان بعيدة كل البعد، ولم يعكّر هذا الصفو سوى تلك الحملات القادمة تترًا من بجاية من أجل إعادة الهيمنة على الزاب وأرضيه.

غير أن الخليفة الجديد للإمارة المزينة، لم يكن باستطاعته الوقوف صامدًا حيال هذه الهجمات المتكررة، فعاود الطاعة للسلطان الحفصي الذي كافأه على هذا الموقف بعقد سلطان أبيه منصور بن مزني له، وإضافة ما وراءه من البلاد الصحراوية قرى ريغة ورقلة[1].

من الصعب فهم الذهنية التي كانت تتحكم في شخصيات ذلك العصر المليء بالاضطرابات والتي كان يكتنفها الكثير من التذبذب والغموض، وهي بالفعل وما جعلت عبد الواحد بن منصور بن فضل بن مزني يعاود العداء للسلطان. وذلك لأن السلطان بعد مهلك ابن غمر عقد على بجاية وخطة الحجابة لمحمد بن سيد الناس وجعل له كفالة ابنه يحي ودفعه إليه، فتجددت الوحشة بين عبد الواحد ابن مزني وصاحب الثغر في سبيل المرتبة عند السلطان، لأنّهم كانوا جميعًا من صنائع وبطانة ابن غمر، وهكذا فعل الحسد بعبد الواحد ما فعل بأبيه منصور بن فضل فقطع حبل وداده بعد وصله مع السلطنة الحفصية التي تمرست جيوشها من جديد في الرحلة إلى الزاب مرارًا حتى استجنَّ وعاد إلى الحضرة بعد توبته[2].

ولكن العجيب في الأمر أن عبد الواحد بعد هذا الإياب بادر بتتويج هذه الرجعة إلى الحضيرة

---

[1] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 590.

[2] - نفسه: ج6، ص 590.

بتزويج ابنته الحاجب ابن سيد الناس ، واشترط المهادنة وتسليم الجباية[1]. ربما من أجل تدعيم نفوذه كي يستعيد المكانة التي كاد يصلها أبوه من قبل، وربما من أجل رفع الإمارة المزينة بأن أصهرت إلى حاجب السلطان، وصار بينهما صهراً ونسباً ما يجعل ابن مزني أكثر صلابة وأكثر حيازة على الاستقلال والحرية من ذي قبل.

غير أن هذا لم يدم طويلاً حتى تُجنى ثماره، ويصعد من خلاله أبناء مزني إلى حيث طمحوا -ربما حتى إلى تولي خطة الوزارة أو خطة الأشغال أو حتى الحجابة- لأن عبد الواحد لقى حتفه على يد أخيه يوسف سنة 725هـ/1326م بمداخلة بطانته من بني سماط وبني كواية، الذين لما أحكم مداخلتهم في شأنه أشاروا عليه بقتل أخيه وتولي الأمر بعده، ومن الواضح أن يوسف هذا كان من أبيه بمكانة كبيرة، ثمّ عن دبلوماسية كبيرة يتمتع بها وحكمةٍ في طبعه ما جعل أباه يوفده سفيراً إلى أبي تاشفين صاحب تلمسان. وربما طمع يوسف هذا في استعادة المكانة التي لن يحصل عليها إلاّ بغدر أخيه، وبالفعل فقد استدعاه عشاءً للشورى معه في بعض المهمات؛ وهذا ما يؤكد أنّه كان يتولى خطة مهمة لأخيه في الزاب، ثم غدره بطعنة خنجر فقتله، واستقل يوسف بن منصور بإمارة الزاب، بحيث جدد البيعة والطاعة للسلطان، أين وصله مرسومه بالتقليد والخلع كما جرت العادة، ووعده ابن مزني بالدعاء له على المنابر -التبعية الاسمية فقط-[2].

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابته، وفوّض إليه أمور ملكه، فهاجت نار العداوة والإحن القديمة بينه وبين يوسف بن منصور أمير الزاب، ولاشك أن هذه العداوة كانت كبيرة مما أدى بينهما إلى المشادّات أحياناً وإلى الجهر بالعداوة، وكان ابن سيد الناس ينوي الإيقاع بابن مزني ويهم به لولا ما أخذه من الإنشغال بحرب آل زيّان إلى أن هلك سنة 732هـ/1332م في نكبة السلطان له. والذي عقد على خطة الحجابة لمحمد بن الحكيم و على القيادة، وجعل بيده زمام العساكر، وفوّض إليه أمور سائر القرى والضواحي، والذي -حتما- كان على قدر المسؤولية التي أوكلت إليه، فقد أثبت جدراته وأظهر براعته التي أهّلته إلى اعتلاء هذا المنصب، فأجرى رياسته وحكمه في دولة السلطان وتغلب على أمورها.ومن الواضح أن العلاقة بين محمد بن الحكيم هذا ويوسف بن مزني أيضا لم تكن على أتمها، ولسنا ندري سبباً لهذا، ربما بسبب الحسد على المقام الذي تولاه ابن الحكيم في نفس السلطان أبي بكر، وحسب الظاهر فإن ابن الحكيم قد غيّر رأي السلطان في عامله على الزاب، وربما أحسَّ ابن مزني تغيّراً من السلطان أو بدر منه شيء لم تكتبه المصادر فبادر هو أولاً وخرجَ هذه

[1] - نفسه : ج6، ص 590.

[2] - ابن خلدون:العبر، ج6، ص 591.

المرة عن طاعة السلطان نكاية في محمد بن الحكيم، واستقل بحكم دولته التي أعلى راية استقلالها عن الدولة الحفصية[1].

وبعيدًا عن أي تأويل، فإنّ ابن مزني في هذه المرحلة كان على قدر الاستقلالية التي أعلنها ضد الدول القائمة، وبخروجه عن الدولة الحفصية فقد امتلك هذه المرة من الجيوش التي تمرست طويلاً، وبيت ماله ليس في حاجة إلى المزيد، فسكان المنطقة المحكومة باسم آل مزني من الأوراس والحضنة إلى الزاب وريغ ورقلة صاروا يتعاملون بالدينار البسكري، وله من العصبية ومن القبائل العربية والبربرية ما هو أقدر في كل الحالات على حمايته وشد عضده، لذا فمبادرة ابن مزني في هذه المرحلة كانت قائمة على أساس الثقة بما في اليد.

- تمثلت المهمة الأساسية التي اضطلع بها الحاجب ابن الحكيم في استرجاع المناطق والأجزاء الجنوبية من البلاد الحفصية الواقعة في قبضة الرؤساء المحليين المتمردين، ومن الواضح أن العديد من المدن الخاضعة لسلطانهم قد حاولت كما فعل ابن مزني الخروج عن الجادة، ولكن وأثناء حملة عسكرية قادته إلى تقرت ؛ تمكن ابن الحكيم من تركيز السلطة الحفصية في الجنوب الغربي من البلاد، فأجبر الأهالي في الأوراس وأريغ وجميع أراضي الزاب على الطاعة وفرض على يوسف بن منصور بن مزني ثلاث مرّات دفع الضرائب بأكملها[2]، إذ كان يناهضه بعساكره من أجل الجباية عنوة.

غير أن سياسة ابن مزني لم تكن مواتية في غالبها ومناسبة لغالبية الرعية، فقد حدثت بينه وبين علي بن أحمد كبير الذواودة فتن وحرب دعا إليها منافسه علي، وهذا سبب استئثار ابن مزني بمال الجباية دونه، فأعلنت الحرب بينهما، وربما بسبب كون ابن مزني قد اشتط في وضع الضرائب على العامة ما دعى هذا القبيل من الذواودة إلى الخروج عليه لأن كثرة الضرائب وجمع الأموال وجبايتها ثم الاستئثار بها دون نفع العامة لابد راجع على صاحب الأمر بالضرر، ما يعني خروج العامة وحتى ثورتهم ضده، وهذا ما حصل ليوسف بن مزني مع الذواودة.

ولكن الحرب توسعت حين دعا ابن مزني كل القبائل العربية ببسكرة إلى الانضمام إليه طالبًا حلفهم ومؤازرتهم له مدعيًا الدعاء إلى السنة[3]، ولا شك في مشاركة علماء المنطقة الموالين له في هذا الأمر، بحيث يردعون المنشقين بإرجاعهم إلى الشريعة وشرعية الأمير في الجباية. ومن الواضح أن هذه

---

[1] - نفسه : ج6، ص 591.

[2] - برانشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 188.

[3] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 591.

لثورة توسعت حتى شملت الزاب الجنوبي، فقد حث ابن مزني أهل وادي ريغ ونازل بهم وبمن معه علي بن أحمد، وهذا إن كانت له دلالة فهي تبعية أهل وادي ريغ الكاملة لابن مزني وسيطرته المحكمة على المنطقة. غير أن الذي شجع ابن مزني أكثر وأضفى على حربه صفة الشرعية والأحقية هو انضمام ابن عدوه ومحاربته إلى جبهته وهو يعقوب بن علي بن أحمد، ولم يتوان ابن مزني في مكافأته بأحسن جزاء، حيث زوّجه أخته بنت المنصور بن فضل. ولا يخفى على أحد ما كان لهذه المصاهرة من نتائج جيدة على الحرب القائمة في الزاب حين ذاك، إذ حسُن دفاع يعقوب بن علي متعاونًا مع صهره ضد والده الذي استسلم بعد أن دفع إليه يوسف بالوسطاء[1] من أجل الوصول إلى حلٍّ ينهي هذه الثورة، وفعلاً فقد توصّل الطرفان إلى حلٍّ بعد طول مساجلات بينهما بحيث تم الاتفاق والمهادنة طوال أعوام الأربعين من المائة الثامنة[2].

كانت مجهودات الحكومة كلها موجهّة إلى استرجاع المناطق الجنوبية المتمردة الطامحة إلى الاستقلال[3]. فبعد أن نهض ابن الحكيم في حملته من أجل استرجاع المناطق الجنوبية، ونازل بلاد الجريد، واقتضى طاعتهم وجبى مغارمهم واسترهن ولد ابن يملول صاحب توزر، ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم، فأجفل بالزاب، ونزل بلد أوماش، ما جعل العرب من الذواودة وسائر رياح تفرُّ من أمامه. وحاول ابن مزني إرضاءه ومصانعته بأن أرسل إليه هديّة دفعها إليه وهو بمكانه في أوماش، فارتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح تقرت معقلهم واستباحهم، ودوَّخ سائر أعمالها وكان ذلك سنة 744هـ/1344م[4]. والظاهر أن أمراء بني مزني قد استمروا طوال الأربع سنين الموالية في ظل السلطنة الحفصية، حيث أثبت الطرفان تمسكها بأهدافهما: إبن مزني بقوته ومقاومته لأية تبعية، والسلطان وتمسكه بكل شبر من مملكته. غير أن سنة 748هـ/1348م، حملت إلى إفريقية قوة جديدة تعذّر قهرها هذه المرة قادمة من المغرب، وهي قوة بني مرين، ذلك أن الحاجب ابن تافراكين الذي خشي أن يلحقه من السلطان ما لحق بابن الحكيم، فر إلى السلطان المريني أبي الحسن، وأغراه بملك إفريقية، وزيّن له ذلك وسهّله في نفسه، فارتحل السلطان أبو الحسن على رأس جيشه بعدما عهد بقيادة فاس إلى ابنه أبي العنان فارس، وفي الطريق استسلم إليه الذواودة تلقائيًا، وكذلك ممثلو جميع تلك الأقاليم الجنوبية من

---

[1] - وهم سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع بن علي بن أحمد، ونحن نجهل من شارك في هذه الثورة من القبائل وإلى من انحاز كل منها، وما مدى شموليتها لبسكرة والزيبان والأوراس وغيرها من كامل ملك ابن مزني. نفسه، ج6، ص 591.

[2] - ابن خلدون :العبر، ج6، ص 591.

[3] - برونشيفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج1، ص 188.

[4] - وقتل السلطان قائده ابن الحكيم مباشرة بعد إيابه. ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص 192.

الزاب إلى طرابلس[1].

انقادت أغلب الإمارات التي كانت تابعة للسلطان الحفصي إلى أبي الحسن بمجرد مفاجأته لإفريقية غازيًا، فوفد عليه ممثلوها الذين كان من بينهم أمير الزاب يوسف بن منصور وذلك بمعسكره، فتلقاه برًا وترحيبًا واحتمله معه في جملة رجاله إلى قسنطينة، ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغه وورقلة ، وصرفه إلى عمالته[2].

والأكيد أن سياسات ذلك العصر بما تحمله من متناقضات تفرض الولاءات والتبعية لمن في يده الغلبة، وإن كانت لذة الإستقلالية تحت راية الدولة الفتية القوية تحمل في طياتها من المجهول ما يمكن به القضاء على هته وتلك. ابن مزني الذي لطالما كانت سياسته متذبذبة مع السلاطين الحفصيين بعد ب وزراءهم وحجابهم، بل الأصل في ذلك طمع ابن مزني بعد أن ملك الزاب أن يصعد بعيدًا في سلم الدولة الحفصية. فإذا بالحجاب يزاحمونه في جباية أرضه ومملكته فضلاً عن مراتب الدولة. إنه ابن مزني الذي يحيا على إحياء ماضي أجداده وأهدافهم، لذا فما دامت الغلبة للأقوى والأقوى في صفِّه؛ بل بإمكانه تقديم يد المعونة التي لن تُنسى آثارها أبدًا لتبقى دينًا يوفى طول العمر، وذلك بالفعل ما فعله ابن مزني مع السلطان أبي الحسن، بحيث أعلن منذ بداية حركتِه إلى إفريقية ولاءَهُ التام له، و ما إن بايَعهُ حتى استلم منه عقد الزاب وما وراءه، واجتمع إليه يعقوب بن علي أمير الذواودة بالناحية الغربية من إفريقية بنواحي القنطرة وما إليها، مع من أخلص ممن تحت سلطته من العرب، وتحيّز إليه من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله ورسله وكان معهم وفد من السودان من أهل مالي في غرض السفارة، وكان الوفد برئاسة ابن السلطان عبد الله بن أبي الحسن، وقد اجتمعوا كلهم بقسنطينة، فلما كثر الاضطراب رحل أبناء السلطان و وفوده إلى بسكرة مع ابن مزني في خفارة يعقوب بن علي أمير الذواودة فاوسع ابن مزني في تكرّمه، وآواهم إليه ببسكرة وأحسن إليهم، وعاملهم معاملة الملوك للملوك، حتى فتح السلطان المريني أرض إفريقية وخلصت له بجاية وتونس، أرسلهم يوسف إليه مع صهره يعقوب بن علي مكرَّمين وذلك سنة 749هـ/1349م، فكانت تلك الصنيعة من يوسف بن مزني مزيّة لدى السلطان وبنيه من بعده سائر أيامهم. وليس هذا سوى تصرّف ذكي من أمير الزاب الذي يبحث دائمًا عن الوصول إلى المعالي ، وفي نفس الوقت الأمن الداخلي مع بعض من الاستقلالية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، لذا فقد رأى أنّه من الأحسن موالاة من يستطيع إعطاءه السلطة المطلقة والتي يطمح أن تتزايد يومًا بعد يوم. وهذا ما جعله يتصرف بشيء من الحكمة والمصلحة

[1] - برانشفيك : المرجع السابق، ج1، ص 197.

[2] - ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص 592.

الشخصية، وكثير من الشهامة تاركًا وراء ظهره أي كابوس ينبئ على عداوته القديمة مع بني حفص والتي قد تطفو إلى السطح إذا استعادت السلطنة شيئًا من مجدها، وبالتأكيد استعادتها لحدود مملكتها التي اغتصبها العدو. لكن كل هذا تلاشي أمام محاولاته لتحقيق ازدهارٍ مأمولٍ لدولة بني مزني،و هذا بالضبط ما جعل يوسف يخالف جميع رؤساء النواحي الذين نقضوا عهد السلطان أبي الحسن حين عاد خائبًا إلى مملكته التي ضاعت باستيلاء ابنه أبي عنان عليها، وبقي متمسكًا بطاعته يسرّب إليه الأموال بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليها من النكبة التي وقعت به، وهذا ما جعله يذهب أبعد من ذلك حين دعا له على المنابر في الزاب بعد رحلته من الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن سنة 752هـ/1351م، واستقام أمر الدولة المرينية[1] لابنه أبي عنان حين قدم إلى إفريقية سنة 753هـ/1352م. حينها بادر يوسف بطاعته فأتاه طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته، ثم وفد عليه ثانيًا مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، ووفد عليه سنة 754هـ/1353م فيمن وفد على السلطان من أمراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي، وذهب في صحبته يعقوب بن علي أمير العرب، وسائر رؤساء الذواودة، فتلقاهم السلطان أبو عنان وبالغ في إكرامهم وذلك رعيًا لذمة إخلاصهم لأبيه وقيامهم بأمره، وأسنى لهم الجوائز. أما يوسف الذي كانت له في نفسه مكانة خاصة فقد عقد له على ملكه وما وراء بلاد أريغ وورقلة. هذا ما جعله يرجع إلى ملكه في بالغ السعادة لأنّه حظي من السلطان بمكانة رفيعة، فقد صار له من ولاية السلطان حظ، ورفع له ببساطه مجلس. ومن الواضح أنّه استمر في حكم بلاد الزاب مواليًا للسلطان أبي عنان، الذي وبداية من سنة 758هـ/1358-1359م نهض لغزو إفريقية، في حملة لإكمال ما بدأه أبوه في الاستيلاء على كافة بلاد المغرب. ولعلّ ما سهّل له ذلك هو أجواء العداوة التي كانت متبادلة بين الأمراء الحفصيين الثلاثة المتقلدين للحكم في بجاية وقسنطينة وتونس، ولاسيما بعد أن انضم إليه بنو مزني في الزاب وبنو مكي بقابس الذين قدّما على الفور شواهد الطاعة لأبي عنان[2]. فبسكرة ونواحيها قد انقادت إليه رغم بعدها عنه، إذ وفد عليه في المدّية واليها يوسف بن مزني ومشايخ الذواودة فبايعوه على الطاعة والولاء، ولكنه استبقى أبناءهم رهينة عنده توثقاً لانقيادهم، وخوفًا من انتقاضهم[3].

وعلى الرغم من وصول البيعة من أطراف إفريقية لأبي عنان وهو بقسنطينة بعد إتمام السيطرة عليها، وقدوم يعقوب بن علي شيخ رياح والذي بالغ في إكرامه، إلاّ أنّه كان أول من خرج عليه وخالفه

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 592.

[2] - برونشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 208.

[3] - المطوي : السلطنة الحفصية، ص 424.

من أنصاره ومؤيديه. إذ ما كان تأييد قبيلة رياح للسلطان إلاّ طمعًا في الاكتساب وإطلاق اليد في النهب واجتباء الأموال والأرزاق، ومن الواضح أن الأمر في الأصل كان منع الذواودة من استخلاص بعض الأداءات الموظفة حسب العرف على السكان المستقرّين[1]، ولهذا فما إن رأى **بنو رياح أن أبا عنان** لا يماشيهم في رغباتهم، وأنّه يراوغهم عندما طلب منهم الرهائن توثقا لطاعتهم وانقيادهم، حتى جاهروه بالعصيان والمخالفة، ولاذوا في الفيافي والقفار[2]،و أجفلت أحياؤهم في بلاد الزاب وما وراءها من الصحراء، فارتحل السلطان بعساكره في طلبهم، وكان **أول نزوله بالقنطرة على سفح جبل أوراس وكان** بها قصر يعقوب بن علي وصهره علي بن الحكيم الذي فرَّ عنه قبل وصول السلطان إليه، فأمر أبو عنان بهدمه، كما أمر بتخريب البلاد وحرق نخيلها وأشجارها، وتغوير مياهها[3]. فما غادرها حتى أتى على كل **بناء وكل غرس وكل ما يمت للحياة** بصلة. ثم غادرها إلى الوطاية أين كان حصن يعقوب بن علي ومُستَراحه، فأمر به السلطان فهُدم واعتمد مياهه وآباره ووديانه فطمرت، وأمر بقطع نخيله واكتساح **رياضه**[4].

ومضى يهدم في طريقه كل ملك يخص العرب الخارجين عن طوعه، والموالين لعدّوه يعقوب بن علي. غير أنّه وإن تعبت الجيوش المرينية في البحث عنه فقد فرَّ إلى حيث لم يُعثر له على أثر، وغالب الظن أنّه ارتحل إلى الرمال حيث انتهى به المطاف إلى ضواحي سبيبة[5]. ولمّا ملَّت الجيوش من مطاردته بلا طائل رحلت إلى بسكرة عاصمة ابن مزني أين استقبلهم بكل حفاوة وتكريم فكانت استراحة **السلطان ثلاثة أيام لإراحة الجيش وإزاحة عللهم من وعثاء السفر وشعت الصحراء، ففرق يوسف بن** منصور في قِرى عساكره أيام مقامهم يشملهم فيها بالحنطة واللحمان والأدم بما أرغدَ عيشهم وكفاهم همّهم، وتحدثت بها الناس دهرًا، ودفع إليه جباية عامه ذلك قناطير من الذهب بعثه إلى بيت المال وأسنى السلطان مثوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله[6].

أما طولقة وقراها فقد كان على رأسها شيخها عبد الرحمن الطولقي[7] الذي دخل في حلف العرب **ويعقوب بن علي، وخرج على طاعة يوسف بن منصور، وتحصّن** بقصبة مدينة **طولقة، ومنع جبايتها،**

---

[1] - برونشفيك : المرجع السابق، ج1، ص 209.

[2] - المطوي : السلطنة الحفصية، ص 234.

[3] - ابن الحاج النميري : فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، ص 423.

[4] - نفسه : ص 426-428.

[5] - برانشفيك : تاريخ إفريقية ، ج1، ص 208.

[6] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 593.

[7] - لم نجد لهذا الشخص تعريف في المصادر فهكذا ورد اسمه. النميري : **المصدر السابق، ص 436.**

وجاهر بالخلاف، ومن الواضح أن سكان المدينة قد اتبعوه في أمره، وقد راوده ابن مزني عدة مرَّات لكنه أبي العدول عن رأيه ، فأمر السلطان بالقبض عليه ونُقل إلى فاس هو وأهل بيته، ولبث في سجنها وأجْلِيَ أهله من طولقة[1] ... السلطان بهدم قصبتها و محو آثارها ثم أعادها إلى ابن مزني **حُكمًا** بداية، وجدد له عهدها. ثم دخل فرفار وأمر بهدم حصنها والاستيلاء على ما فيه وحرق الأشجار والنخيل، وكان فيها حصن آخر ليعقوب بن علي وجماهير أولاد محمد فأمر به هو الآخر فهدم، ومكث ما ستة أيام حتى لم يترك ظلاً من دار أو بناء أو نخل أو شجر[2].

ولما رجع السلطان أبو عنان من قسنطينة إلى فاس، واستقر في مملكته، أطلق لوزيره سليمان بن داوود اليد في إصلاح أحوال إفريقية، وذلك سنة 758هـ/1357م، **وجعل معه بعض رجاله المخلصين** ومن بينهم يوسف بن مزني عامل الزاب وأميرها والذي أوعز إليه السلطان بذلك. فدوّخ الجهات لجباية **المغارم** وتأديب العرب المخالفين، وخضد شوكة بني رياح والذواودة في المغرب، فسار في مهمته حتى وصل وطن بونة. وحقيقة الأمر أن أبا عنان حاول تأمين مكاسبه في إفريقية لأنّه كان يخشى على الزاب وضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي، وكان هذا هو السبب المباشر لهذه الحملة التي نجحت في الاحتفاظ بولاء بعض القبائل العربية لبني مرين، كأولاد محمد من الذواودة وأولاد سباع بن يحي، ولكنها ما لبثت أن عاد أصحابها إلى تلمسان تاركة الوضع في إفريقية على ما كان عليه.

وهناك حقيقة هامة ينبغي الإشارة إليها، وهي أن أهالي إفريقية كانوا يرفضون الحكم المريني، أو حتى مجرد الولاء أو التبعية له، لأنهم كانوا في ظل حكم الحفصيين يتمتعون بكثير من الحرية، حيث لم يحكم الحفصيون قبضتهم كثيرا على رعاياهم. أما بنو مرين فكانوا يحاولون أن يطبقوا في إفريقية نفس السياسة التي كانوا يتبعونها في دولتهم بالمغرب الأقصى تلك السياسة التي لم تجد قبولاً لدى الكثيرين. ويبدو أن تحقيق الوحدة بين الأقاليم المغربية بهذه الصورة من العنف كان أمرًا عسيرًا لاختلاف النظم في هذه الأقاليم باختلاف القوى السياسية التي حكمتها بعد انهيار الدولة الموحدية، وأحدثت هذه القوى تغيرات جذرية في نظمها وبالتالي في طبائع شعوبها أنماط حياتهم ،فباتت هذه الشعوب ترفض الاستجابة أو التعاون مع أية نظم جديدة غير تلك التي درجوا عليها ،و كانت هذه الأمور واضحة بصورة أكبر لدى القبائل العربية في إفريقية، تلك القبائل التي منحها الحفصيون حرية كبيرة في مناطقهم **بل و** منحوهم الحق في فرض الإتاوات دون أن يعترضوا على ذلك ،و كان تصادم النظم المرينية مع مصالح هذه القبائل مدعاةً إلى عنف مروع و كذا إلى فشل المرينيين في تحقيق الوحدة المغربية كما كانت

[1] - نفسه: ص 436-437.

[2] - النميري : فيض العباب : ص 445- .446

أيام الموحدين[1].

في سنة 759 هـ/1358 م أوفد يوسف بن منصور بن مزني ابنه أحمد على السلطان أبي عنان قبل موته في فاس ،و أصحبه الهدايا من أحسن الخيل و الرقيق و مكث عنده إلى أن توفي السلطان في نهاية تلك السنة، و لكنه حين رجع إلى إمارة أبيه وقع في أسر أبي حمو سلطان بني زيان ، فأجاره أحد العرب من زغبة رعيا لذمة أبيه يوسف صاحب الزاب الذي بذل المال هو وبنو مرين إلى أن أطلق سراحه[2].

ساهمت ظروف عدة في تعطيل استقلالية المدن الجنوبية الصحراوية التي انضوت تحت راية

الأسر الطامحة للاستقلال ، وكانت الدولة الحفصية هي التي تولت هذه العملية، إذ من غير المسموح لدى سلاطينها تسليم مقاليد السلطة للأسر الناشزة أمثال بني مزني، خاصة وأنّهم -بنو مزني- قد تطاولوا على السلطنة وأمعنوا في تجربة المناهضة التي خاضوها ضد الدولة الحفصية. إذ استقلالهم، وتحيزهم إلى جانب العدو الأول للحفصيين -بنو مرين- وقطع الإمدادات المالية المتمثلة أساسًا في الجباية وأموال الضرائب المفروضة -بغض النظر عن شرعيتها من عدمه-، مع الذهاب بعيدًا في إيواء الزعماء المعارضين من بني يملول، ما جعل من السلاطين الحفصيين يجيلون التفكير في إعادة كل الأراضي المنفصلة عن حكومتهم، وفعلاً فمباشرة بعد استعادتهم لقوتهم، استعادوا ثغور:بجاية وقسنطينة وغيرهما من يد بني مرين، فما كان من يوسف بن منصور إلاّ مراجعة الطاعة للحفصيين إلى أن هلك سنة 767هـ/ 1367 م[3].

ابن مزني الذي ظل طوال فترة حكمه مذبذباً بين القوى المتحكمة في الوضع السياسي إذ ذاك، لم يكن ليهتدي أبدًا إلى طريقه نحو المركزية المحلية التي طمح إلى تأسيس عاصمتها بسكرة، كان يوسف مذبذب الرؤية لا يعنيه سوى هدفه الضائع بين فروض الولاء والطاعة للحكام بحثا منه عن الأفضلية بين هذا وذاك، ولم يكن ذلك بعيدا عنه فقد كان هذا منهج أجداده منذ البعيد، وهذا ما عُرف عن ابنه خليفته على عرش بسكرة وزيانها أحمد بن يوسف بن مزني آخر أمراء بسكرة المزنيين، والذي جلب بسياسته سقوط دولته الذي لن تعود من بعده أبدا إلى الصعود بعد القضاء عليها وعليه.

1- محمد عيسى الحريري :تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني ،الكويت :دار القلم ،ط 1 ،1985،ص 30. أحمد العزاوي: الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و 8 هـ، الرباط : الرباط نيت ،2007،ج 3،ص40 .

2- ابن خلدون :العبر ،ج 6 ،ص542 .

3 - نفسه، ج6، ص 594.

استمرت ولاية أحمد هذا وحكمه لمدينة بسكرة وزيبانها مدة تنيف عن الأربعين سنة كان خلالها مذبذبًا الرأي بين المرينيين والحفصيين والزيانيين، وكان في كثيرها باحثا عن تطور دولته ومركزيتها بعيدا عن أية ارتباطات ، وفعلاً فقد تمكن من تحقيق ذلك وكان التعبير الخلدوني البديع عن الحقبة التي حكم فيها أحسن دليل على أنّه ذو سياسة وحنكة "متقبّل في مذهبه وطريقه إلاّ أن خلق أبيه كان سجيّة وخلق هذا تقليد لما فيه من التحذلق"[1]، لقد أحسن قيادة الدولة، وأحسن جباية خراجها، وأسس

ته كل مرتكزاتها التي تجعل من بسكرة عاصمة إقليمية لمدينة تحكم أرضًا شاسعة، معتمدها في الأساس العصبية القبلية العربية الموالية لحكمه، وكانت هي التي منحته القوة وشكلت حزامه الأمني ودرعه الوقائي، وعسكره الدائم الحماية، وإطاره العسكري. كما سك العملة باسمه والتي صارت متداولة جميع أرجاء الزاب، واتخذ عاصمته التي عزز أسوارها وأجرى مياهها وزاد من استجار عمرانها، ولم يغفل عن تطويرها إداريا واقتصاديا من حيث بناء الأسواق والحمامات والفنادق. كما حمى شرعيته وزاد في ترسيخ عروقه بأن ثبّت المذهب المالكي على أرض الزاب بتشجيع العلم ومساندته لأي حركة علمية

من شأنها إعلاء سمعة عاصمته، فمن المتعارف عليه سياسيًا أن كل دولة هي قبل كل شيء عنف، وتحتاج دائما إلى شرعية حتى تصبح مستساغة عن طرف المحكومين، لذا فقد احتاجت هذه الدولة إلى إطار شرعي يغلف مضمونها العسكري[2] لذا فقد استجلب العلماء مستعينًا بهم في تسيير شؤون الدولة من خلال إضفاءهم صبغة الشرعية لكل قراراته.

ضاق أحمد بن يوسف ذرعًا بالتبعية للحفصيين فأعلن استقلاليته، وامتنع عن دفع الضرائب والجباية لصاحب الحضرة، وغير خافٍ على أحد ما للضرائب من أهمية في اقتصاد أية دولة، إذ به تجهّز ني التحتية لهذه الدولة و بناء اقتصادياتها ، ومن المؤكد أن أية حكومة استطاعت سك العملة فهي منطقيا تمتلك رصيدا هائلا من احتياطي الذهب والفضة ،كما شكلت هذه الموارد مداخيل هامة من أجل تسكين روع المعارضين ، و إسكات أية دولة غايتها الهيمنة ، كما لا يخفى دوره في تنظيم الجيش دئة الجنود بالأعطيات ،إضافة إلى ما يحتاجه تنظيم المدن و تعميرها . وبالمقابل ضاق السلطان الحفصي أبو العباس ذرعا بسلوكيات أحمد بن مزني حاكم بسكرة ، خاصة بعد أن صار يتآمر عليه علناً ،ذلك أن أحمد بن مزني قد استقبل صهره يحي بن يملول ، بعد ما طرد من توزر بعد استعادتها من طرف الحكومة الحفصية ،ففي هذه الفترة قام السلطان أبو العباس أحمد بالقضاء على استقلال مدن الجريد و إعادة إخضاعها إلى السيطرة الحفصية ،فقام ابن مزني بإيواء الزعماء الفارين و أخذ الإثنان يعملان ضد

[1] - ابن خلدون: العبر :ج 6 ،ص 594 .

[2] - محمد شقير : تطور الدولة في المغرب، ص 175.

السلطان أبي العباس ، و يحاولان أن يؤلبا عليه القبائل العربية في قسنطينة و الزاب ، بمساعدة سلطان تلمسان أبي حمّو ؛بحيث تآمروا على مبايعة سلطان تلمسان من بني عبد الوادي .وبالتأكيد كان هذا هو السبب الذي جعل السلطان أبو العباس يجهز جيوشه و يزحف عليهم بأنصاره من عرب بني سليم ، فتحالفت رياح و الأثبج على الموت دون بسكرة و الزاب تعصباً للخصومة الأزلية بين رياح و سليم دفاعاً عن أوطان رياح و مراعيها وكذلك عن إمارة الزاب العربية الملجأ الحصين لكل من غضبت عليه الدولة النظامية ، مما اضطر أبو العباس أحمد الأول لمهادنة بني مزني سنة 786 هـ/1384 م[1].

ولكن طول مدة حكم أحمد ابن يوسف التي اقتربت من الأربعين سنة ، بما حملته من ظلم وجور ما أدى بالعامّة بالشكوى مراراً إلى سدة السلطان الحفصي أبو فارس عزوز ،الذي تقلد الحكم سنة 797هـ/ 1394 م،و الذي أراد التحكم في أفريقية بقبضة من حديد و السيطرة الحقيقية عليها ، مع إدراكه أن هذا لن يتم إلا بالقضاء المراكز الدائمة الثورة و العصيان ، والمتمثلة في تلك الحكومات المستقلة القائمة في بعض مدن الجنوب[2]. و الحقيقة أن الخليفة كان ينوي تأديبه مع تركه في مكانه ،و لكن الواجب الذي ارتآه هو تطبيق أمر الشارع و كذا رغبة الرعية في تنحية هذا الظالم [2]،لذا فبفضل جهوده المتتابعة و عزيمته الراسخة دأب على الاضطلاع بتلك المهمة إلى أن أنهى القضاء على استقلالية طرابلس ، توزر ، قابس ، قفصة ، انتهى إلى بسكرة في 07جمادى الثانية 804 هـ/12 جانفي 1402 قائداً للحملة التي شنّها على المدينة من أجل إنهاء حكم أحمد ابن مزني ، أين أقام مدّة ثم رجع إلى الحضرة مصحوباً بابن مزني الذي حكم المدينة مدة تزيد عن الأربعين سنة ما يقارب ثلث عمر الإمارة .ما تجدر الإشارة إليه أن السلطان بعد إسقاطه لإمارة بني مزني عوّضهم بحكومة جديدة وضع على رأسها قائداً من أخلص رجالاته[3]

2–ميلاد نظام ضريبي معقد:

يقول ابن خلدون عن المنصور بن مزني "واستمكن فيها - بسكرة - ورسخت قدم إمارته فيها، واستدرَّ جباية السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها، ووفَّر أموال الدولة وأنهى الخراج

[1] - ابن خلدون :العبر ،ج 6 ،ص 574-575 . برانشفيك : تاريخ إفريقية ، ج 1 ،ص223.

[2] - ابن قنفذ القسنطيني :الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،تقديم :محمد الشاذلي النيفر ،عبد المجيد التركي ،تونس :الدار التونسية للنشر ،1968 ،ص198 .برانشفيك : المرجع السابق، ج1 ،ص244 .

3- ابن قنفذ :نفسه ،ص 198 .

وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجذبوا بضبعه إلى أقصى مراتب الاصطناع، فأثرى واحتجز الأموال ورسخت عروق رياسته ببسكرة"[1] .

بسكرة زمن بني مزني هي نتيجة لصراع دام قروناً طويلة على كل النواحي والأصعدة، واقتصادها هو تحصيل لما عملته أيدي الفئات المجتهدة على طول القرون، وكذا نتيجة لاستقرار المجتمع الحضري والبدوي على حد سواء بعد الهجرة الهلالية، وما تبعها من نتائج أفرزها الواقع وقنن لها المشرّعون، وطبقها أو اعتسف فيها العاملون على ذلك. بسكرة في هذا العهد عرفت تطوراً اقتصاديا كبيراً، كما عرفت تغيُّراً كبيراً عن عهدها السابق، إذ تحولت من ولاية تابعة إلى إمارة ودولة أعلنت استقلاليتها في كثير من الأحايين، عرفت الازدهار الاقتصادي والتنوع في الإنتاج والزيادة في رؤوس الأموال وكذا اليد العاملة إثر تغيُّر المُلاّك، والذي تحكمت فيه أيضا من جهة أخرى عوامل اجتماعية بحتة.

إن دراسة منطقة بسكرة والزيبان في عهد الإمارة المزينة لا يمكن أن يخرج عن الإطار الذي رسمه لنا ابن خلدون حين قال عن منصور بن مُزني "وعقد له -السلطان- على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرَّد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمها، وتفجرت ينابيعها"[2].

مجال متغير و متنوع:

يقول ابن خلدون "هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحدُّه من لدن قصر الدوسن إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاثم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنايا تفضي إليه من تلك الحضنة، وهو جبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة، ويتصل من شرقيّة بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الجوف، وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعًا جمعًا، يعرف كل واحد منها لها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة، وزاب بسكرة، وزاب تهودة، وزاب بادس، وبسكرة أم هذه القرى جميعا"[3]. لما حكم منصور بن الفضل استضاف له السلطان عمل الزاب جبل أوراس وقرى وادي ريغ وورقلة وقرى الحضنة : مقرة ونقاوس والمسيلة، وعقد له السلطان على جميعها وذلك سنة 693هـ/ 1293 م. ثم زاد في ملكه وسلطانه عقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله [4]. غير أن هذه الحدود لم تكن قارَّةً في جميع أحوالها وفي كل الأوقات،

---

[1] - ابن خلدون :العبر، ج6، ص 588.

[2]- نفسه، ج6، ص 588.

[3] - ابن خلدون :العبر، ج6، ص 585.

[4] - نفسه ، ج6، ص 588.

لأنّ حدودها عرفت الكثير من التغيرات نتيجة لتغير الولاءات السياسية، وتذبذب سياسة الحكام المزنيون بين السلاطين والحكام الثلاثة في ذلك الوقت : الحفصي الزياني والمريني. أو حسب تغير حكام الدولة الواحدة، أو الأمراء المزنيون. فعند تولي عبد الواحد بن منصور، عقد له السلطان على عمل أبيه الزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية قرى : وادي ريغ وورقلة ، ولم يذكر بلاد التل وسدويكش وقرى الحضنة[1] والتي من الملاحظ أنها ضُمَّت إلى الإمارة المزنية في ذلك الوقت فقط ثم نزعت منها، واحتفظت الإمارة بحدودها : جنوب أوراس والزاب والصحراء إلى ورقلة.

على الرغم من اتساع نطاق أراضي الإمارة المزنية والتي تحدثنا عن حدودها غير الثابتة في غالب الأحيان، فنحن نجهل فعلاً تقسيمات هذه الأرض وتوزيعاتها، بين أراضي السلطان والحكام وبين أراضي العامة أو الأراضي الموات وغير المستغلة، سواء الملكية أو الحيازية أو الوقفية أو غيرها. نحن نجهل تماما إلا في النادر حين تسعفنا -عرضا- بعض المصادر عن أصحاب الملك العقاري في أرض الزاب. وعلى العموم فقد حرصت السلطة المخزنية على بسط نفوذها الاقتصادي والسياسي على كامل البلاد، وبالخصوص ا نسم الحضري منها، أثناء فترات قوّتها، وكانت ملكية الأرض هي الرّهان الأساسي الذي اعتمدته لتحقيق أهداف منها :

—تنظيم عملية استغلال الأرض والإشراف عليها، بتوزيعها وإقطاعها إقطاع منفعة للقوى الاجتماعية المساعدة للدولة، أو ذات الوزن الاجتماعي والسياسي، مع إمكانية إبطال مفعول الظهير.

—السعي إلى توسيع المجال المزروع، على حساب المجال الرعوي للبدو، وما يعني ذلك من نشوب نزاعات مع البدو الذين انحسر مجالهم، أو انتزعت منهم أراضيهم.

—ازدياد المغارم والوظائف التي تؤخذ على الأرض، مقابل استغلالها، وهو مؤشر لنفوذ المخزن وقوّته . وبالتالي فإن سياسة الحكومة الاقتصادية كانت ترمي إلى بسط نفوذها على المجال الزراعي المحيط بالمدن، ودحر البدو عنه، أو محاولة انتزاعه منهم، لإقطاعه لأصحاب الجاه وتحبيسه على المؤسسات والأشخاص، ولعل هذا المدّ والجزر بين تعمير الأرض والبداوة هما حجر الزاوية للصراع الاجتماعي الذي شهدته إفريقية خاصة وبلاد المغرب عامة طيلة الفترة الأخيرة من العصر الوسيط[2].

ومما لاشك فيه أن الانتشار البدوي بإفريقية والمغرب أدى إلى إعادة هيكلة النظام العقاري، وإعادة توزيع أراضي الظهير المقطعة. فقد حاول أمراء المغرب كسب ود القبائل العربية وتسكينهم، فأقطعوهم

[1] - نفسه، ج6، ص 590.

[2] - محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 336.

الهناشير والعقارات، مثلما حصل عندما سيطر الذواودة على المزاب والحضنة والزاب وجبل أوراس والتلول الشمالية، ولم يكن في وسع الدولة أن تتصدى لهم، فتلافتهم بالاصطناع والاستمالة، واعترفت بالأمر الواقع، فأقطعتهم الأراضي التي استولوا عليها، بخراج المدن التي كانت بحوزتهم، وابتداء من سنة 630هـ/ 1230م تمكن بنو عوف بمساندة السلطان الحفصي أبو زكرياء من الاستيلاء على الشمال الغربي، ودحر قبائل رياح إلى تلول قسنطينة وبجاية وبلاد الزاب، ومما يذكر في هذا الصدد أن أبا زكريا الحفصي أثبتهم في ديوان العطاء، ولكنه لم يقطع لهم أي بلد. غير أن سياسة الإقطاع لم تبدأ إلاّ في الحقبة الثانية من تاريخ الدولة الحفصية، وهذه الوضعية تفسر أن السلطة المخزنية لم تعد تتحكم في توزيع الأراضي وملكيتها، وخاصة في المناطق الطرفية، وأضحت الغاية منه الإعتراف بالأمر الواقع ومحاولة كسب القبائل التي استولت على الأرض وجعلها إلى صفها. فقد تلافت الدولة أمر الذواودة بالاصطناع والاستمالة وأقطعتهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب[1].

هذه الأراضي مهما كانت وضعيتها أو حكمها القانوني والشرعي، فإنّها احتوت على العديد من الأراضي الزراعية والفلاحية القائمة بدء من أسوار المدن إلى الأرياف والبوادي، وغير خافٍ ما كان ة من غابات زيتون ونخيل وأراض زراعية، وأجنة وسواني قد أسّس قاعدتها منذ نهاية العصر الفاطمي والعهدين الحمادي والموحدي، والذي كان أساسه توفر المياه واستعمال التقنيات السقوية المتطورة ، والدليل على ذلك ما جاء في رحلة النميري من وصف دقيق للحالة الاقتصادية الزراعية في منطقة زيبان بسكرة. فالمتتبع لوصف ابن الحاج يرى مدناً عامرة خضراء كثيرة الزرع والغابات والأجنة ، يغلب عليها الغطاء النباتي الكثيف والمتنوع. غير أن الملاحظة هي أن هذا الغطاء النباتي كان متركزاً فقط حول المدن والتجمعات الحضرية مثل : طولقة، فرفار، بسكرة، لوطاية، القنطرة ...، إن التخريب المريني الذي طال بلاد الزاب كان له أبعد الأثر في تصحر المنطقة أكثر مما هي عليه، فالواضح من خلال الرواية أن السلطة المرينية قضت بشكل شبه تام على كل العناصر المموّنة للأملاك الزراعية التي يمتلكها لخارجون عن سلطتها، أمّا المزارع الخاصة بزراعة الحبوب والغراسات الفصلية فمن المؤكد أنّها كانت حاضرة بصفة خاصة في الضياع التي حول المدينة وبشكل خاص في الأرياف؛ التي غلب عليها الطابع البدوي.

إن المتتبع للروايات التاريخية والوصفية يلحظ أن الإنتاج الزراعي -فيما عدا ذلك الذي يحيط بالتجمعات الحضرية- قد أخذ في التراجع ، يذكر الحسن الوزّان (ق10 هـ/16 م) عند تعرضه لبلاد

[1] - نفسه، ج1، ص 325-326.

المغرب وصفًا لإقليم الزاب، بحيث يؤرخ لتراجع الحياة النابضة التي وجدناها في كتب الرحالة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، يصف الزاب بأنّه منطقة شديدة الحرارة، رملية، لا يوجد بها إلاّ اليسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب (الحسار الغطاء النباتي)، لكن عدد حدائق النخل بها لا تحصى. يبدأ وصفه بمدينة بسكرة قاعدة الزاب، ولكن على عكس البكري وصاحب الاستبصار، يصف أهلها بالفقر، وأراضيها بالجدب وأنّها لا تنتج شيئًا غير التمر.

أما مدينة البرج : فهي عنده مدينة متحضرة، وأغلب إنتاجها زراعي مع وجود عدد كبير من ع، ونظرًا لقلة الماء بها فإن كل فلاح على انفراد يجلب الماء لحقله ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي تمُد الحقول، ولهؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملئونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ، وكثيرًا ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى. أما طولقة، فيحيط بها سور، ويمرُّ قربها جدول ماء ساخن، وتنتج أرضها كثير من التمور وقليل من القمح، ويعم السكان الفقر. و الجديد عنده أنه يضيف إلى إقليم الزاب مدينة نفطة[1].

بلى أن الجدير بالتنويه أن هذا الوصف كان متأخرًا جدًا أي في نهاية الدولة المرينة وقرب انقطاع أمرها، وربما يرجع ذلك إلى السياسة التي انتهجها الحكام سواء المزنيون -الذين حكموا المدينة وجاروا في سياستهم، أو نتيجة للسياسة المخزنية السلطانية الحفصية- المرينية.

بنو مزني الذين دخلوا المنطقة بدوًا بعيدون عن الحياة الحضرية اندمجوا في بداية أمرهم في الوسط السكاني ومارسوا مهنة الزراعة وطوّروها، بل إنهم لم يغيروا فقط من حياة البدو الرحّل ليصبحوا فلاّحين ولكن امتلكوا الثروة وأعطوها للفلاحين ليصبحوا أقوياء بدل الضعف الذي كان مسيطرًا عليهم[2]. وبسيطرتهم على حكم المدينة وزيبانها مارس الحكام المزينون سياسة جبائية وزراعية غايةً في الإحكام من أجل تطوير إمارتهم -في البداية- وكذا من أجل خدمة تلك النظرة والطموح الذي لا زال يدفع حكام بين مزني للسيطرة على أكبر قدر عن المدن، وربما حتى التطاول إلى سدة السلطان. "واستدرّ جباية السلطان -منصور بن فضل- واتسع له نطاق العمالة ... وعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها، إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي، فساهَم في جبايتها

[1] - الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ص 138-141.

[2] - M : Chael Brett, Ibm Khaldoun and the dynastic, op. cit. p : 61.

تى كاد يغلبهم عليها، ووفّر أموال الدولة وأنهى الخراج وصانع رجال السلطان ... فأثرى واحتجز الأموال ورسخت عروق رياسته ببسكرة"[1]، ومن الواضح أن الجباية كانت من أهم الممارسات التي تعود على الدولة الحفصية وعلى ولاّتها، كما ظلت البادية المصدر الأساسي لجبايتها؛ فقد كان استخلاص الريع العقاري العامل المحدد في نوعية الإنتاج الزراعي وطبيعة علاقة المجموعات البدوية بكل من المدينة والسلطة السياسية، وهو ما يفسر أهمية مكانة الجباية في فهم المنظومة الاقتصادية بإفريقية والمغرب في أواخر العهد الوسيط، فقد كان استخلاص الضرائب يتم لفائدة :

–الأعيان المحليين بالبادية من كبار شيوخ البدو ورؤسائهم (بنو مزني)، وتتولى القبائل المخزنية جمع الضرائب.

–الملاك العقاريين الذين يكترون الأرض لصغار المزارعين مقابل مبلغ معلوم عيني أو نقدي.

–المخزن الحفصي : وقد مثلت المحلة الجهاز العسكري الفاعل الذي يتولى أمر الجباية أثناء الحملات الموسمية[2]. وهذا لم يحصل إلاّ في فترات نشوز الأمراء المزنيون، فاضطر الحفصيون إلى إرسال جيوشهم لجباية أموال المنطقة. كما حدث حين أجبر الحاجب ابن الحكيم يوسف بن منصور ابن مزني على دفع الضرائب ثلاث مرات متتالية .[3].

مثّلت المكوس والمغارم قسطًا من الجباية التي يتحصل عليها المخزن الحفصي، وقد دأب بنو مزني بصفتهم الممثل الشرعي للسلطان في المنطقة إلى أخذ المغارم واستخلاصها من الفئات الشعبية في المدن والبوادي على حدٍ سواء. وقد تعدّدت المكوس خلال هذه الحقبة، وتنوعت أصنافها، فمنها : المكوس التي يدفعهما التجار و الحرفيون في الأسواق، وتؤخذ عند الأبواب على البضائع الوافدة من البادية، ومنها الوظائف المخزنية التي تسلط على أهل القرى، والخطايا والمغارم التي يدفعونها للسلطة، وصولاً إلى الغرامة المالية التي يتعين على المسجون دفعها لإطلاق سراحه[4].

ويمثل العشر الضريبة القانونية الموظفة بوجه عام على أغلبية الزراعات وجميع أنواع الأراضي، فقد كانت تقدّر من حيث المبدأ بحسب المحاصيل. ولا ندري هل كانت تدفع نقدًا أم عينًا، بحسب الأقاليم، والواقع أنّها لم تكن سوى جزء من الزكاة. علاوة على محاصيل الأرض : على الأنعام والمعادن النفيسة

---

[1] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 588.

[2] - محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 530 .

[3] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 591 .

[4] - روبار برانشفيك: تاريخ إفريقية، ج2، ص 198 فما بعد.

،على ما يبدو فإن كلمة الخراج لم تكن تعني دائما و أبدا في العصر الحفصي شيئا مضبوطًا، ولا ندري **هل كانت** تلك العبارة تكتسي صبغة رسمية، بل لعلّها لم تكن مستعملة في بعض الأوساط إلاّ لإلحاق جباية إيجابية ناشئة عن ظروف مختلفة بتعاليم الفقهاء، أو للدلالة على مجموع الضرائب العقارية مهما كان نوعها، غير العشر. وكثيرا من المرات عندما يكون الأمر متعلقا ببعض القبائل أو الدوائر الترابية، **تكتسي الجباية صبغة شاملة وجزافية، وتفقد هكذا طابعها الصرف لتكتسي صبغة الضريبة الدورية** والعلاقة المميزة للتبعية، ولقد أشير بحقّ منذ عهد بعيد - **والأمر على غاية الوضوح عند ابن خلدون**- إلى أن قبول دفع الجباية إلى السلط الحاكمة يرمز في ضمير السكان للخضوع للمخزن، فالقبيلة التي تعد نفسها من بين القبائل الغارمة أي الدافعة للضرائب تعتبر مضطرة إلى التفويت في استقلالها التام والاعتراف بتفوق الدولة[1].

من الواضح أن السياسة الجبائية التي انتهجها منصور بن مزني ومن سلفه، كانت قد بلغت درجة **تعدّت فيها الحدود** الطبيعية الشرعية متجاوزة إياها إلى العسف والإشتطاط. وما يؤكد ذلك قول ابن خلدون "دفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها ... فساهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم **عليها، ووفّر أموال الدولة ...**"[2].

هذا التعسف في جمع الضرائب من مستحقيها وغيرهم من القبائل العربية والبربرية على حدٍ سواء ممن سكنوا الزاب والمناطق المسمّاة لابن مزني ؛ جعله يجني في الأخير عدة نتائج منها : أنّه "أثرى **واحتجز الأموال ورسخت عروق رياسته ببسكرة**"[3] وذلك جراء السياسات الجبائية التي اتبعها، فمعظم الأموال كانت تذهب إلى خزائنه.

ومنها : ما حدث بينه بين المرابطين السنة من حروب وثورات نتيجة سياسته المالية، فقد طالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفًا على الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، وظاهر الرواية يحدد أنّه لو اتبع ابن مزني الضرائب الشرعية لما ثارت العامة ضد حكمه وجوره واعتسافه[4].

ومنها ما كان من حروب بين يوسف بن منصور وبين علي بن أحمد كبير الذواودة،

---

[1] - ابن خلدون : المصدر السابق، ج6 ،ص 588-589 .محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 530-533. برانشفيك : نفسه، ج2، ص 198-202. عبدالله العروي : مجمل تاريخ المغرب، ص 370-371.

[2] - ابن خلدون : العبر ، ج6، ص 588.

[3] - نفسه، ج6، ص 588.

[4] - نفسه، ج6، ص 589.

لأنه استأثر بمال الجباية دونه[1]، لأن الأرياف المغربية والإفريقية خاصة تعرضت إلى النهب من الطرفين : من المحلة ومن شيوخ البدو، وتعوّد المزارعون والحراثون على دفع شتى أنواع الجباية والمغارم والخطايا التي فرضها عليهم أصحاب النفوذ من شيوخ القبائل البدوية، ففضلاً عن زكاة الماشية أغرمت الأزواج الحارثة ،وأخذت على الأراضي الرعوية إتاوة أطلق عليها : خراج الجبال، وكثيراً ما أجبر المزارعون على دفع إتاوات للأعراب مدارة لهم، من ذلك القطيعة أو القطيع، **وهي ضريبة تؤخذ على الإنتاج الزراعي من حبوب وزيتون وتمور**[2].

عرفت الزراعة تراجعاً كبيراً وانحساراً بالغًا إلاّ في ما يخص التجمعات الحضرية، فقد شهدت الزيبان في هذه الحقبة فتوراً في النشاطات الزراعية، وتراجعًا في أعمال البستنة، والزراعات السقوية والبعلية، وكذا انحسار الغطاء النباتي الذي لم يعرف الكثافة إلاّ في المناطق الآهلة حول المدن والضياع ؛ أما فيما عدا ذلك فهي أراضٍ استعملت للرعي. ما يقف دليلاً على هذا وصف ابن الحاج النميري للمنطقة، حيث يؤكد أنّها صارت صحراوية قاحلة فقد "توغل العرب في الصحاري والمفاوز .. ومُنُّوا بقفار ردّت سعي القطاة في الاهتداء مخفقا"[3]. غير أن الأمور التي نستشفها من هذه الرحلة أن القصور والحصون والمدن احتوت على قدر كبير من الحدائق والبساتين واشتملت على أنواع الغراسات والمشاتل. مثل : القنطرة، بسكرة طولقة، فرفار، لوطاية.. **ومن المؤكد أن النظام** الغراسي والسقوي كان متطوراً في هذه المناطق. أمّا فيما عداها فهي صحاري وقفار ومفاوز لا ظل فيها ولا شجر. كما أن وصف الحسن الوزّان لم يخرج عن هذا الإطار ولكنه زاد فيه قليلاً عن ناحية الجدب والتصحر وقلة المياه؛ ففي نظره هذه المنطقة **شديدة الحرارة رملية لا يوجد** إلاّ اليسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة للزراعة الخاصة الحبوب. ولكن عدد حدائق النخل بها لا تحصى[4]. **وهذا ما أثبته ابن الحاج عند حديثه عن قصور** يعقوب بن علي في القنطرة وفي لوطاية، وقصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي. "فرأينا قصراً بديعًا قد قامت في ذلك الموضع الخلاء عجائب آثاره"[5].

وتحدث عن الوطاية "الشهيرة المزارع منسابة المذانب"[6]، وإن كان الحسن الوزان يؤكد أن أرض

---

[1] - نفسه ، ج6، ص 591.

[2] - محمد حسن: المدينة والبادية، ج1، ص 534.

[3] - ابن الحاج النميري : فيض العباب، ص 410.

[4] - الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ص 138.

[5] - ابن الحاج : فيض العباب، ص 414.

[6] - نفسه : ص 430.

بسكرة لا تنتج سوى التمور. أما البرج وهي مدينة بعيدة عن طولقة بقليل (10 كلم) وهي على بعد أربعة عشر ميلاً غرب بسكرة، فغالبية سكانها فلاحون و نير أنهم يتبعون نظامًا سقويًا غاية في الدقة، وهو نظام النوبة آو الدولة. أما طولقة فأرضها تنتج كثيرا من التمور وقليل من القمح، إضافة إلى الغابات التي بها والبساتين[1].

فيما يخص مصادر المياه فالواضح أنّها شحّت مقارنة مع القرون السابقة: الرابع والخامس والسادس من الهجرة، بحيث نستشف من المصادر الندرة في العنصر المائي وبالتالي تراجع الغطاء النباتي والزراعة. ابن الحاج في رحلته يذكر وادي القنطرة وفيضانه وكذا وادي بسكرة وطولقة وفرفار[2] ولكن باحتشام بالغ، حيث لم نعد نجد الأحاديث المستفيضة عن وجود المياه في منطقة الزيبان، فهل السبب في ذلك يرجع إلى الاستيطان الهلالي في المنطقة، أم إلى آثار الحروب والفتن والأزمات، وابن الحاج يذكر أن ان أبا عنان أمر بردم مصادر المياه في المدن التي أمر بهدمها. "واعتمد المياه بالردع، والحفائر بالردم"[3]، ومن المرجح أن هذا يرجع إلى السببين معًا. لقد حاول سكان المنطقة تطوير أساليب الري عندهم بحيث تتماشى مع كمية المياه المتاحة، فسكان البرج اعتمدوا طريقة النوبة بحيث أن كل فلاح على انفراد يجلب الماء إلى حلقه ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي يُمدُّ الحقول، ولهؤلاء الفلاحين من ساعات مائية يملئونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ، وكثيرا ما كان يتسبب هذا في نشوب الخصومات، ويسقط القتلى[4].

ومن هنا نستشف أن قول ابن خلدون عن ابن مزني فلقّح عقيم مدن الزاب وتفجير ينابيعها لم يكن يعني سوى تطوير زراعة النخيل والاستزادة فيها، أو الأشجار المثمرة التي كانت تزرع في الغابات المحيطة بالمدن والقرى والتجمعات الحضرية، وكذا زراعة الحبوب من القمح والشعير، أو الزراعات البعلية والموسمية المتعلقة بالسكان الحضر.

أما فيما يخص تربية الحيوانات، وعلى إثر اتساع نطاق حياة الترحال نتيجة الهجرة الهلالية، وتغير الطابع الزراعي الخالص الذي كانت تتسم به المنطقة، فقد أفسح المجال على نطاق أوسع لتربية الماشية،

---

[1] - الحسن الوزان : المصدر السابق، ص 138.

[2] - ابن الحاج النميري : المصدر السابق، ص 422.

[3] - نفسه، ص 427-447.

[4] - الوزان : وصف إفريقية، ص 139.

وبالخصوص الصنف الملائم لحياة الترحال وهو تربية الإبل والغنم[1].

المصادر التي بين أيدينا والمتعلقة أساسًا بهذه الفترة من تاريخ المدينة لم تتحدث عن الصناعات وإنتاجاتها، عدا في إشارة واحدة لدى الحسن الوزّان الذي يذكر أن بمدينة البرج الكثير من الصناع. لكن هذا لا ينفي وجود النشاط الحرفي والصناعي الذي يعتبر ضروريا جدا بالنسبة للحياة الحضرية والبدوية على حدٍّ سواء. ومنه فمن المرجّح أن المجموعات الحرفية والصناعات بقيت سائرةً على نظامها القديم مع التجديد الذي تفرضه هذه الفترة بما حملته من مستجدات اجتماعية واقتصادية، سواء كان ذلك فيما يخص التجار والحرفيين والعمال كأفراد أو مؤسسات أو من حيث تموضعهم وطريقة سيرهم. ويبدو أن المدن الإفريقية ككل كانت تجمع منذ عهد بعيد طوبوغرافيًا وإداريًا أرباب نفس الحرف، ولكن بين العصرين الأغلبي والحفصي من الواضح أنّه لم تحدث فوارق وتغييرات كبيرة على مستوى هذا النظام وطبيعته[2].

3-مجال اجتماعي متحرك و انتشار واسع للمذهب المالكي وللتيارات الصوفية:

- مجال اجتماعي متحرك:

بزت الخارطة القبلية بالتعقيد وعدم الثبات، لاقترانها بالتطورات الجغرا-طبيعية والسياسية، فقد شرعت كثير من القبائل في المناطق التلية في الاستقرار، بعد أن توالدت وكثرت بطونها وتفرعت، وانتقلت الرياسة فيها من واحدة إلى أخرى، لكن كثيرا منها ظل ظاعنا في الترحال، منتقلاً من مجال إلى آخر، وقد تبع هذا التطور في نمط العيش وعلاقات الإنتاج، تحوّلٌ في طبيعة العلاقة مع السلطة : فالصنف الأوّل أضحى من القبائل المخزنية التي تعتمد عليها الدولة في الجباية والحرب، فيما تميز الصنف الثاني بالاستقلالية والحرابة. وقد اعتمد المخزن الحفصي على صنفين من القبائل لإخضاعها : الأول القبائل القريبة من المدن الكبرى، والثاني القبائل الطرفية النائية التي استعملت لتطويق المعارضين ولإيقاف التوسع الزياني، فكانت بمثابة الثغور المتحركة[3].

مما سبق ذكره نستشف أ القبائل الهلالية دحرت أغلب الزناتيين نحو الغرب لتستقر مكانهم، ويذكر النميري في رحلته أن عثمان بن علي أخو يعقوب بن علي الرياحي قد اغتصب أرض لواته شمال بسكرة والقنطرة على سفح جبل أوراس في قرية تسمى تيجمانين، بحيث اغتصبت رياح ممثلة بزعيمها

---

[1] - برونشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص 235.

[2] - نفسه، ج2، ص 208.

[3] - محمد حسن : المدينة و البادية ،ج1، ص 98 .

هذه النواحي، وأجلوا لواته إلى خارجها حيث أصبحت من القبائل الغارمة[1].

أول من يذكر بسكناه المدينة وزيانها قبيلة الأثبج والتي كانت أوفر القبائل عددًا وأكثر بطونًا، وأولها نزولاً، وكانوا في أول عهدهم محاربين للدولة الموحدية مما جعل الخليفة يعقوب المنصور، ينقل قرة وجثم وعاصم والمقدم إلى المغرب الأقصى، على إثر ازدياد القوة الرياحية وتناميها فقد انتقلت هذه القبيلة من طور الحرابة إلى التوبة، أي من قبيلة محاربة إلى قبيلة مخزنية مستوطنة لقرى الزاب حرباً لرياح وشيعة للسلطان، وكان جزاؤهم والضامن لسكوتهم هو إقطاعهم جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية[2].

كانت لطيف من الأثابج بطون كثيرة ومنهم بنو مزني أصحاب الزاب في ذلك العهد، وكانت للطيف الكثرة والنجعة ولكنهم تحولوا إلى قبائل غارمة بعد أن عجزوا عن الضعن وغلبهم الذواودة على الضواحي بمرور الزمن لما قلّ جمعهم وافترقت كلمة ملوكهم فنزلوا قرى الزاب : الدوسن وتنومة وغريبو وتهودة وبادس، وصاروا من جملة رعايا الأمير المزني ومن القبائل الغارمة له. وبينهم في قصور الزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم وحروب وقتل، وعامل الزاب يدرأ بعضهم ببعض، ويستوفي جبايته منهم جميعًا[3].

أما الضحاك فقد وضع الموحدون حدًا لنجعتهم في اتجاه صحراء سجلماسة، فانتقلوا من الضعن ستقرار، نازلين ببلاد الزاب وبمدنها وهو ما سهّل على الذواودة التغلب عليهم، وعلى إخوتهم عياض، وكانت الرياسة تنتقل بين فرعين منهم : أبو عطية، وكلب بن منيع[4].

أما كرفة:فهي عدة بطون، استعانت بهم السلطة الحفصية لمحاربة القبائل الرياحية وتطويقها، وكان الإقطاع هو السبيل الوحيد للحفاظ على موالاة هذه القبائل،وكان نصيب كرفة الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية، لكن فترة ضعف الدولة الحفصية، مكنت رياح من التغلب ثانية على كرفة وملك المجالات التي كانت تستعمل لتنقلاتهم ودحرت كرفة إلى جبل أوراس الذي اتخذته وطنًا لها، حسب التوزيع التالي : فأولاد سرحان استوطنوا القسم الجنوبي الغربي بجبل أوراس بناحية تهودا، وكان لأولاد ثابت المتمكنين من الرئاسة إقطاعات السلطان بشرقي جبل أوراس بلاد الزاب الشرقية، أما بنو حمد وبنو مروان (المراونة) فقد بقوا على ضاعنتهم؛ يكتالون أقواتهم من أهل الجبل، ويتولون حفارة

---

[1] - ابن الحاج النميري : فيض العباب ،ص 416 .

[2] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 31.

[3] - ابن خلدون :العبر، ج6،ص 34.

[4] - نفسه : ج6، ص 33- 34 . محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 101.

القوافل، وفي الجملة فإن هذه القبيلة التي تطورت نحو الإستقلال ظلت في خدمة الأمراء من بني مزني[1].

العمور : **استوطنوا** الضواحي والجبال لقلتهم وضعف الرياسة فيهم وافتراق ملتهم، مواطنهم ما بين جبل أوراس وشرقا إلى جبل راشد، وكل ذلك ناحية الحضنة والصحراء من دون الصعود إلى ناحية التل نظرًا لقتلهم ولأنّها أراضي سلطانية، ومهما يكن من أمر تفرعاتهم، فإن هذا القبيل الفسيفسائي التركيب انتمى إلى الأثبج بالولاء وأصبح في العهد الحفصي خاضعا لسلطة الذواودة وإمارة بسكرة، فكان يجند في عسكر بني مزني، ويقوم بخفارة القوافل. وحصيلة القول : فإن قبيلة الأثبج التي كانت قوية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ضعفت عصبيتها في القرن الموالي بفعل السياسة الموحدية، التي .ت إلى النقل القسري لبعض بطونها، والاعتماد على بقية القبائل المنافسة مثل رياح للحد من تنقلاتها بين الصحراء والتلول، وقد انتهى بها المطاف إلى النزول بالمثلث : قسنطينة - **الحضنة - الزاب،** والتحول إلى قبيلة غارمة[2].

قبيلة رياح : وهي في زمن الدولة الحفصية وبني مزني من أكبر القبائل التي استوطنت مجالات الزاب والأراضي التي يسيطر عليها المزنيون وظلت طوال عهدها تحارب الموحدين والحفصيين وأبت التحول إلى قبيلة مخزنية فقد بقيت على طول خطها من القبائل المحاربة النافرة، خاصة الذواودة منهم **وهم** أبناء داوود بن مرداس بن رياح، وكانت رياستهم زمن الموحدين في مسعود بن زمام وكان يلقب بالبلط لشدته وصلابته، ثم قام بأمره بعده ابنه محمد بن مسعود الذي استمر في محاربته للمخزن على الرغم من ضعف كل القبائل التي حالفته من الضحاك ولطيف الذين عجزوا وافترقوا في قرى **الزاب،** وبقي محمد بن مسعود يتقلب في رحلته، وصارت رياسته البدو في ضواحي إفريقية ما بين قسطيلية والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه. وأضحت رياح في عهد أبي زكريا منتجعة بين الصحراء والزاب شتاءً وقسنطينة وبجاية صيفا.

ونظرًا لتشدد المستنصر معهم فقد افترق جمعهم إلى قسمين : مال منهم بنو عساكر إلى السلطان وصارت زعامتهم في بني مهدي بن عساكر،أما بنو مسعود فقد فضّلوا مواجهة السلطان حين وقعت بينهم وبين أمير بجاية حروب قتل فيها رؤوسهم من بينهم زعيمهم شبل بن موسى، وفرّت ظواعن الذواودة إلى آخر الزاب، ثم وجدوا السبيل هو محالفة الزيانيين والمرينيين من أجل استرجاع أوطانهم بالزاب، فأولاد محمد لحقوا بيعقوب بن عبد الحق المريني، وأولاد سباع بن يحي لحقوا بيغمراسن بن زيان

---

[1] - ابن خلدون : نفسه، ج6، ص 31-32. محمد حسن : نفسه،ج 1 ، ص 98-99.

[2] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 34. محمد حسن : المدينة و البادية، ص 101.

بتلمسان، وبذلوا كل ما في وسعهم حتى غلبوا على أوطانهم على الزاب وورقلة وقصور وادي ريغ أين تم لهم التمكن من هذه المجالات إلى أواخر القرن الثامن الهجري.ثم كان تقدمهم إلى قرى الزاب ومدنها واحدة واحدة، فغلبوا في البداية عامل مقرة وقتلوه

واستولوا عليها، ثم تقدموا إلى جبل أوراس وانتزعوه من أيدي قبائله، وتم تقدمهم إلى التل، ولم يستطع **الحلف المكوّن من أولاد عساكر من الذواودة** وعياض من الأثبج وسدويكش من صد تقدم سائر الذواودة (برئاسة أولاد مسعود البلط)، للسيطرة على التلول الشمالية، ولم يكن في وسع الدولة الحفصية التغلب عليهم، فتلافتهم بالاصطناع والاستمالة مقطعةً إياهم الأراضي التي استولوا عليها، وخراج المدن التي بحوزتهم مثل : ة ونقاوس والمسيلة، لأنّها تعلم جيدًا أن مسالك التجارة الصحراوية النشيطة **والمتصلة بورجلان** -قسنطينة قد أصبحت تحت رقابتهم.ويتضح مما سبق أن قبيلة الذواودة انقسمت منذ بداية العهد الحفصي إلى قسمين : فبنو عساكر فضّلوا الاستقرار بالتل والخضوع للسلطة، فيما **استمر** بنو مسعود البلط في انتجاعهم واستقلاليتهم ومحاربتهم للحفصيين الذين غذّوا العداء بين الطرفين، حتى آل الأمر بينهم إلى النزاع، عندما حاول بنو مسعود التوسع في اتجاه التل، وانقسم هذا الفرع الأخير بدوره إلى قبيلتين متنافستين عند عودته إلى بلاد الزاب : أولاد **محمد بن مسعود البلط**، وأولاد سباع بن يحيى، وهو ما يفسر إضعافهم، وانتقال الرياسة في القرن الثامن إلى أولاد دريد بفرعيها : أولاد سباع بن يحيى وأولاد محمد بن مسعود.وقد أفرز على التطور المعقد بقبيلة عربية إلى تكوينها لإمارة **طرفية بقاعدة بلاد الزاب : بسكرة، على رأسها** يعقوب بن علي من أولاد محمد وله في قومه عزة وسلطان، وكانوا يتولون حماية هذا الوطن مقابل استخلاص الجباية من المزارعين والتجار. أما الزاب الغربي وقاعدته طولقة فهي إقطاع لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى، وكانت لأبي بكر بن مسعود، فلما ضعف بنوه ودثروا اشتراها منهم علي بن أحمد شيخ أولاد عمرُ وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع. واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت من مجالات أولاد سباع بن يحيى. أمّا الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة بما هو من مجالاتهم، وليس هو من مجالات رياح، **وتاخذ عمال** الزاب جبايته لأنّهم خاضعون له وأحيانًا خاضعون لقبيلة رياح وزعميهم يعقوب بن علي[1].

[1] - ابن خلدون : العبر، ج6، ص 42-47.
- مصطفى أبو ضيف أحمد عمر : القبائل العربية في المغرب، ص 112-113.
- محمد حسن : المدينة والبادية، ج1، ص 105-112.
- عبد الحميد خالدي : الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، الجزائر : دار هومة، 2007م، ص 184-185.

– **انتشار المذهب المالكي والأفكار الصوفية:**

شهدت منطقة الزاب على عهد بني مزني (678-804هـ/1279-1402م) **حركة علمية ساعد عليها العديد من العومل وأبرزها تشجيع الحكام للعلماء، وتحفيزهم** للعطاء العلمي، إضافة إلى موقعها الجغرافي الذي جعلها همزة وصل بين الشمال والجنوب، وبين المشرق والمغرب. كما تعتبر في الوقت ذاته إحدى المحطات البارزة في طريق القوافل التجارية وركب الحج، ومن ثم فهي نقطة التقاء أعلام دار الإسلام، الذي بدون شك ساهم في تكوين نخبة علمية في هذه المنطقة، وبالتالي ساهم في تنشيط الحركة العلمية في منطقة الزاب بصفة عامة وبمدينة بسكرة بصفة خاصة[1].

نت للحركة الثقافية التي شهدتها منطقة الزاب في تلك الحقبة ارتباطات بفترات سابقة وبمجهودات كبيرة من طرف أهل المنطقة وعلماءها وحكامها، وخاصة ما تحقق من نهضة فكرية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين لاسيما بناء المساجد والكتاتيب واستجلاب العلماء للتدريس والفتوى، ولا يمكن إغفال عامل الرحلة في طلب العلم والذي تخرج عن طريقه العديد من العلماء الذين حرّكوا الساحة الثقافية، مما أنتج أجيالاً من ورثة **العلم وجعل المدينة منارة للمذهب المالكي، يميزها الإرث** الثقافي، وتشجيع الطبقة الحاكمة للعلم ورعايته.

ساهمت جملة من العوامل في تنشيط الحركة العلمية بمنطقة الزاب، وبخاصة في مدينة بسكرة ومنها على وجه الخصوص :

–**أهمية الموقع الجغرافي لإقليم الزاب** : بحيث أن احتلالها لموقع هام نظرًا لوجودها في ملتقى **الطرق التجارية**، و بذلك كانت إحدى المحطات الرئيسية للقوافل التجارية الرابطة بين شمال وشرق صحراء وجنوبها أي بلاد السودان، إضافة إلى الطريق الرابط بين هذه المناطق والشمال، ومن ثم بلاد **أوروبا الواقعة على الضفة الجنوبية** للبحر الأبيض المتوسط، وكانت بذلك ممرا يتم اجتيازه في كثير من المرات من أجل التنقل في هذه الاتجاهات المختلفة، والاستفادة بما تجود به هذه المنطقة من منتجات **زراعية وصناعية، ويؤكد ذلك صاحب الاستبصار حيث يقول متحدثا عن بادس "وبالقرب منها قيطون** بياضة .. ومنه تفترق الطرق إلى بلاد السودان، وإلى القيروان وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها، وقيطون بياضة قرية كبيرة كثيرة النخل وفيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد وهي آخر بلاد الزاب"[2].

–**تشجيع الحكام للعلماء** : مما لاشك فيه ان حكام بني مزني قد استغلوا الرخاء الاقتصادي

[1] - عبد القادر بوباية : الحركة العلمية في منطقة الزاب على عهد بني مزني، مجلة الخلدونية ،الجزائر :09، 2011م، ص 87.

[2] - مجهول :الاستبصار ،ص 175 .

الذي عرفته إمارتهم من أجل تشجيع العلماء على الاستقرار بإقليمهم، وتحفيزهم على بذل الجهد من أجل نشر العلم والمعرفة في صفوف أهل هذه البلاد، وهو الأمر الذي سيكون له بالغ الأثر في تنشيط الحركة العلمية، ولعل مكوث العلامة عبد الرحمن بن خلدون لأزيد من خمس سنوات **ببسكرة أحسن** دليل على ذلك[1].

–**تواصل الرحلة العلمية** : استمرت فاعلية الرحلة إلى المشرق خلال هذه الفترة وذلك رغم مصاعب الطريق البري الرابط بين المجالين، إذ أصبحت غير آمنة منذ القرن السادس هجري، وظلت كذلك طيلة العهد الحفصي، حتى صار أهل الأندلس والمغرب وإفريقية **يتخوفون من استعمال هذا** المسلك الذي أهملت محطاته وغارت مياهه وطمست، وما تبقى منها بناحية برقة استحوذ عليها بعض البدو، و فرضوا دفع إتاوة للاستقاء، كما احتاج الجواز من هذا المجال إلى أداء القوافل لحق الخفارة وذلك **فضلاً عن غرامات أخرى أخذها الاعراب. على** أن العلاقة بين هذه القوافل والبدو لم تكن دوما سيئة كما يتضح من كتب الرحلة، فقد ذكر البرزلي أثناء حجه أن الوئام كان يسود الناجعة من الأعراب الذين اشتكوا الجوع والغلاء وركب الحجاج الذين لم يتوانوا في مساعدتهم وتقديم العون لهم. غير أن هذا **الطريق كان مرهقا لبعد** المسافة وإهمال البنية الأساسية للطرقات والمنشآت المائية والمحطات الضرورية لراحة القوافل، حتى أن كثيراً من الفقهاء الحضر تراخوا في الذهاب إلى الحجاز، وخاصة بعد بلوغهم سن الستين، واعتباراً لصعوبة الرحلة البرية، التجأ المغاربة إلى ركوب البحر منذ مطلع القرن السابع الهجري إلى الإسكندرية، غير أن الملاحة لم تكن بدورها ميسّرة[2]. ولكن على الرغم من كل هذه الصعوبات إلاّ أن الرحلة في طلب العلم (الرحلة العلمية) ظلت متواصلة بين المنطقة والمشرق والمغرب وكذا الأندلس، على الرغم من اقترانها بالأمن، إلاّ أنّها استمرت، وتواصل وفود **العلماء على المنطقة وخروجهم منها، والدليل** على هذا قدوم عبد الرحمن بن خلدون وغيره.

عرفت المنطقة حضورًا قويًا للمرابطين، والذين أنشئوا الزوايا والرباطات، ووجهوا نشاطاتهم نحو التدريس الديني والفقهي، وكذا محاربة الفساد والظلم **-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- خاصة إذا** تعلق الأمر بجور الحاكم، وقد أخذوا الشرعية لحركاتهم، واستمدُّوا الفاعلية لها من العامة الذين يعانون في أخير من الجبايات والشطط في جمعها، واستنزاف ثروات أراضيهم لأنهم هم الفئة الأقرب من أي ضرر **قد يقع سواء أضرار الحروب أو جور الحكام.**

---

[1] - عبد القادر بوباية : نفسه، ص 90.

[2] - محمد حسن : المدينة والبادية، ج2، ص 695-701. .

من علماء المدينة البارزين:

أول من يبتدئ به الذكر من علماء منطقة بسكرة هو العلامة العالم العارف المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون، إذ يعد من أبرز من علّم ودرّس في منطقة زاب بسكرة في الفترة المزنية. فقد مكث ما يقارب الست السنوات مدرّسًا ومعلّمًا ومفتيًا، مستفيدًا من الأمان الذي وصله به ومنحه إياه بنو مزني. ربما من الأسباب التي جعلت ابن خلدون يختار هذه المنطقة دون غيرها : الصداقة التي تجمعه بيت الحاكم في المنطقة، فابن مزني لم يكن يتوانى أي سبب من أسباب التشريف والعلو في المجتمع حينذاك، وقد رأينا أسلافه كيف وصولوا إلى البلاطات الحاكمة ومصاحبة أصحاب الشأن رغبة منهم في علوّ شأنهم وازدياد مراتبهم، ولذلك فالأمير المزني الراغب في تنشيط كل أسباب العلوم والمعارف في وقته بين أبناء بلده، وذيوع صيته في الأمصار قد حاول جلب أكبر عدد من العلماء الذين يقصدون في هذا الشأن. ومنها : طرفية منطقة بسكرة وبعدها نسبيًا عن الأحداث التي كانت تضطرب في العواصم الحفصية، الزيانية، والمرينية. لذلك فقد اختارها ابن خلدون كي تكون منعزلاً سياسيًا بالنسبة إليه. إضافة إلى هذا ثراء المنطقة اقتصاديًا، وثراء بني مزني مما يوفر له حياة كريمة.

استقر عبد الرحمن بن خلدون بسكرة ما بين سنة 769هـ إلى 774هـ/1364-1372م، مدرسًا ومتفرغًا للكتابة حيث يقول في شأن رحيله إليها "وكثرت السعاية عند السلطان أبي العباس فيَّ والتحذير من مكاني وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك. فأذن لي بعدما أبى وخرجت إلى العرب ونزلت على يعقوب بن علي، ثم بدا له الشأن في أمري، وقبض على أخي واعتقله ببونة، وكبس بيوتنا، فظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه، ثم رحلت من أحياء يعقوب بن علي وقصدت بسكرة لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني وبين أبيه، فأكرم وبرّ، وساهم في الحادث بماله وجاهه"[1].

استغل ابن خلدون هذه الفترة التي تنيف على الست سنوات في التفرغ للدراسة والكتابة وفي نفس الوقت نشر علمه ورواية تاريخ الأمم الغابرة التي ضمنها كتابه العبر، كما ساهم في عدة أحداث سياسية متعلقة بالزاب وكذا بالدول الكبرى خاصة الزيانية. إلى إن تم استدعاؤه من طرف السلطان عبد العزيز ملك المغرب "وأنا مقيم في بسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب وهم يرجعون إليه في كثير من أمورهم ... فكتب إليَّ ونزمار بن عريف ولي السلطان وصاحب شواره ... فاستدعاني لوقته وارتحلت من بسكرة

[1] - ابن خلدون : العبر، ج7، ص 561.

بالأهل والولد في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعمائة متوجهًا إلى السلطان[1].

–**أبو علي الفزاري البسكري** : وهو ناصر بن أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن أحمد بن حسن بن عبد المعطي بن الحسين بن علي بن المزني، **أبو زيان، ويقال أبو علي الفزاري البسكري، ولد** في المحرم من سنة إحدى وثمانين وسبعمائة للهجرة (أفريل 1379م)، وينتمي إلى أسرة كريمة من منتهى رئاسة الزاب، ومعقد آماله إذ كانت إمارة بسكرة وأرض الحضنة بيدها منذ تولاها جده **الفضل بن علي**.

اشتغل أبو علي بالعلم أولاً ببلده، فأخذ القراءات عن أبي الحسن علي بن عبد الرحمن التوزري، وكان يعظه كثيراً في هذا الفن، وأخذ الفقه عن أبي فارس عبد العزيز بن يحي الغساني البرجي ومحمد بن علي أبو إبراهيم الخطيب وأبي عبد الله بن عرفة وعيسى بن أحمد الغبريني وسمع عليه الصحيح.

قدم القاهرة سنة ثلاث وثمانمائة (1400هـ)فحج فيها وأصيب في كثير من ماله وكتبه في جملة ما وقع في ركب المغاربة من النهب، واتفق أن نكبت أسرته في هذه السنة أيضا ببسكرة، فعزل والده عن الإمارة، ونزل السلطان الحفصي ببسكرة فحطم بيت بني مزني، وبلغ ابنه ذلك فأقام بالقاهرة وكان بها يومئذ صديق آباءه عبد الرحمن ابن خلدون فعطف عليه وسعى له لدى من بيده الأمر حتى نزل بالشيخونية، ولازم الشيخ ابن حجر العسقلاني مدة طويلة، وقال عنه "استفدت منه وكتب لي ترجمة مطوّلة وفيها" واتصلت بخدمة سيدنا فلان، فآنس الغربة وأسنى الكربة، وأحسن المعونة وكفى **المئونة**، وعمّني خيره وبرُّه، ووسعني حلمه وصبره". قال السخاوي "شرع صاحب الترجمة في جمع تاريخ للرُّواة ،لو قدّر أن يُبيضه لكان مائة مجلدة، وكان قد مارس ذلك إلى أن صار أعرف الناس به، فإنّه جمع منه في مسوداته مالا يُعد ولا يدخل تحت حد، ولم يُقدّر له تبيضه، ومات **فتفرقت مسوداته شذر مذر، ولعل** كثرها عمل بطائن المجلدات".

وكان لهجًا بالتاريخ وأخبار الهواة جمّاعة لذلك، ضابطًا له مكثرًا منه، وأراد تبييض كتاب واسع في ذلك فأعجلته المنية، قال ابن حجر في المعجم : وكان قد تحوّل من الشيخونية، ونزل البرقوقية بين **القصرين، وضعف** في سنة اثنين وعشرين وثمانمائة، وطالت علته، وأفضت إلى رمد فقد منه بصره جملةً، وكان يترجى البرء فلم يتفق له ذلك إلى أن مات في العشرين من شعبان التي تليها. وتبعه المقريزي في عقوده وقال : إن صاحب الترجمة كان يتردد إليه وقال -رحمه الله- "ماذا فقدنا من فوائده عوّضه الله

[1] - نفسه ، ج7، ص 632-633.

بالجنة"[1].

–**الفقيه أحمد محمد بن أحمد البسكري** : على عكس الأول المترجم له سابقًا فإن هذا العالم البسكري لم يحظ بترجمة وافية، وكل ما نعرفه عنه ورد عند السخاوي الذي قال "كان حيًا خلال القرى التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) واشتغل بعلم الحديث ببلده، ثم ارتحل إلى المشرق، واستقر بالمدينة المنوّرة، وفي هذه الأخيرة أخذ عن السخاوي صاحب الضوء اللامع أثناء مجاورته بالمدينة"[2].

–**أبو محمد عبد الله بن عمر بن موسى البسكري** : كان حيًّا سنة 765هـ/ 1363 م ، **وهو** من علماء المالكية فضلاً على كونه أديبا شاعرًا، رحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج، واستقر بالمدينة المنوّرة. لقي الحافظ المحدّث المؤرخ عبد الله بن محمد البطوي (698-765هـ/1298-1363م) فأخذ عنه ولازمه، وكان الحافظ المطري كثيرًا ما ينشد قصائد البسكري ويحفظها لإعجابه بها، وفي كتاب "تحقيق النصرة" قصيدة طويلة للبسكري أنشدها المطري في المدينة المنوّرة. قال الحفناوي : ذكره أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري في رحلته، بقوله "العارف بالله الشيخ أبا محمد عبد الله البسكري، عاطفًا له بقوله" ويرحم الله العلامة الأندلسي أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي في قوله أبيات..، والقاضي عياض في قوله أبيات..، والعارف أبا محمد عبد الله البسكري في قوله :

دار الحبيب أحق أن تهواها ... وتحن من طرب إلى ذكراها

وعلى الجفون متى هممت بزورة ... يا ابن الكرام عليك أن تغشاها

فلأنت أنت إذا حللت بطيبة ... وظللت ترتع في ظلال رباها

معنى الجمال مُنى الخواطر والتي ... سلّت عقول العاشقين حُلاها

لا تحسب المسك الذكي كثُر بها ... هيهات أين المسك من ريّاها

---

[1] - السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة، ج2، ص 95.
- العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت : دار الكتب العلمية، ط1، 1986، ج7، ص 404.
- الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، بيروت : دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، ج2، ص 172.
- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ج13، ص 68.
- عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010م، ص 268.
- الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، 1994م، ج2، ص 93.

[2] - السخاوي : الضوء اللامع، ج2، ص 95. عبد القادر بوباية: الحركة العلمية في منطقة الزاب، ص87.

طابت فإن تبغ التطيب يا فتى فأدم على الساعات لثم ثراها[1].

–**عبد الله بن إبراهيم البسكري المالكي** : كان من كبار المقرئين، ومن فضلاء فقهاء المالكية، لد في بسكرة وبها نشأ وتعلم ثم رحل إلى المشرق، ونزل بيت المقدس بفلسطين، وتولى مشيخة دار القرآن بالمدرسة السلامية بها.

كان يقرئ الناس فيها على قاعدة إبراهيم الأموي الصوفي فانتفع به خلق، وكان يعرف بالقراءات وغيرها، ويستحضر كثيراً من المدوّنة، وللناس فيه اعتقاد كبير بحيث نقل عن التقي الحصني أنّه ذكر له في جماعة صالحين فقال : ما فيهم مثله. تحكى له مكاشفات وكرامات، قال : وجلست في قبة الصخرة خاليًا فسمعت ملكين يقولان "الشيخ عبد الله البسكري من الأولياء". و كانت وفاته بعدما قارب التسعين أو جاوزها حتى صار يحمل في بساط. توفي في جمادي الأول سنة 829هـ/1426م[2].

محمد بن منصور بن مزني : الفقيه، وقد ذكره ابن خلدون حيث قال "وسافرت إلى قفصة وأقمت بها أيامًا أترصَّد الطريق حتى قدم علينا الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مزني وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب، وكان هو بتونس"[3]، ولكنه لم يقدم لنا أكثر من هذه المعلومات.

محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن ثابر شمس الدين المغربي البسكري المالكي : مقرئ نحوي من أهل بسكرة، من فقهاء المالكية، كان حيًا خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). رحل من بلده فسكن المدينة المنوّرة، وأخذ عن علمائها وعلماء القاهرة حفظ الشاطبيتين وألفية بن مالك وغيرها. وانتفع في القراءات بالشمس الششتري المدني، وارتحل إلى القاهرة فتلا بعض القرآن بالعشر على الزين زكريا والزين جعفر والشهاب الصيرفي والشمس النوبي، وناصر الدين الأخميمي، وكتبوا له، قال السخاوي "ولقيني بالمدينة فسمع مني أشياء وكتبت له"[4].

أبو جعفر محمد بن عمر بن عنقة شمس الدين البسكري المدني : كان من كبار المحدثين وفقهاء المالكية، ولد ونشأ وتعلم في مدينة بسكرة، وعلى أيامه كانت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة

---

[1] - أبو القاسم محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1982، ج2، ص240-241. بوباية: نفسه، ص95.

[2] - السخاوي : الضوء اللامع، ج5، ص 04. عبد القادر بوباية: المرجع السابق، ص94-95.

[3] - ابن خلدون : العبر، ج7، ص 509.

[4] - السخاوي : المصدر السابق، ج9، ص 51. بوباية: نفسه، ص97.

الإسلامية في البلاد إلى جانب كل من بجاية وقسنطينة، كانت ولادته حسب السخاوي في سنة بضع وأربعين وسبعمائة الهجرية.

رحل أبو جعفر محمد البسكري في طلب الحديث، فدخل بلاد الشام والديار المصرية والحجاز وغيرها، ولقي أعلام المحدثين والفقهاء وسمع الكثير من العلماء بدمشق ومصر وغيرهما[1].

قرأ أحمد بن محمد بن عمر الشفا على محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الغني أبو عبد الله الشستري، ويقال له التستري المدني والذي ولد في ربيع الأول سنة 710هـ/1310 م بالمدينة، وكانت وفاته بها بعد العشاء من ليلة النصف من شعبان سنة 785هـ/1383م ودفن بالبقيع، ويحي بن موسى القسنطيني، والجمال الأميوطي، والجمال يوسف بن البناء، وصاهره على ابنته، والزين المراغي، وأجاز له القلانسي وغيره.

قال ابن حجر أنّه "كان يسكن المدينة ويطوف البلاد، وحصل الأجزاء وتعب كثيراً ولم ينجب. "قال السخاوي "سمعت منه يسيراً وكان متوددًا"[2] وقال ابن حجر في معجمه إنّه "تنبّه قليلاً، وكان شديد الحرص على تحصيل الأجزاء وتكثير الشيوخ والمسموع من غير عمل في الفن، سمعت من لفظه ترجمة عبد السلام الداهري من مشيخة الفخر بسماعه من أبي أميلة عنه، وحدثني من لفظه بأحاديث خرّجت بعضها في تخاريجي، وخرّجت عنه في التباينات حديثا". وحج من الإسكندرية إلى مصر أي القاهرة فمات بساحل بولاق في جمادي الآخرة سنة أربع وثمانمائة (1402هـ) غريبًا[3].

مما تشرفت به منطقة بسكرة في تلك الفترة و حاكمها المزني ،قول قاضي الجماعة الحاج أبو عبد الله محمد بن أحمد المقري مرتجلاً :

دخلت بلاد الشام شرقاً و مغربا فلم تر عيني مثل بسكرة يبسا.

فزاد عليها الملك ابو عنان :

و يا قبح ما اسودّ القتام بوجهها فمذ غشي الأبصار لم تبصر الشمسا . فخسراً و سحقاً ابن هاني لقد غوى بمدح بلاد الزاب إذ يعدم النحسا .

---

1 - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت : دار الآفاق الجديدة، ص 46.بواية: المرجع نفسه، ص96

2 - السخاوي : الضوء اللامع، ج9،ص 172.

3 - نفسه، ج9، ص 172. بواية: المرجع السابق، ص97.

ثمّ أمر ابن الحاج النميري أن يكمل الأبيات بأخرى يذكر فيها ابن مزني فقال :

و لكن به عبد لخير خليفة جواد ينيل الرفد أو يبذل الأنسا . فمهما شكت باليبس بسكرة حبا. فبعض عطايا فارس فزكت غرسا .

كأن ابن مزني يخلف المزن عندما يجود إمام لم يدع هديه لبسا . ومهما علا و اسودّ يوم قتامها فأشبه من أضحى بها حال من أمسى . جلا عدل مولانا الخليفة فارساً شموساًهدت أنوارها الجن و الإنسا .

و ما تشرف الأوطان ألا بمن حَوت و ما قدر جسم المرء أن يفصل النفسا. وكل بلاد الله طر بفارس ستسعد يوماً مثل ما سعدت أمسا .

ن بلاد الزاب بعد حلوله بها لحقيق أن تحبّ و لا تنسى . ولا خسر عندي بعد لابن هانىء بمدح لها ما صافح القلم الطرسا . وإن كان فيها جعفراً فقد جرت أنملا المولى بها أبحراً خمسا[1].

[1] - سليم كرّام :دولة بني مزني من خلال فيض العباب لابن الحاج النميري ،مجلة الخلدونية ،مرجع سابق ،ص 167 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن المتتبع للتاريخ المحلي؛ تاريخ المدن والحواضر المغربية بصفة عامة؛ الجزائرية على الخصوص، وإن لقي العناء في جمع الأشتات لقلة المكتوب ، فإنّه يجد تطوراً عمرانيا هائلاً، ويلمس تلك التطورات الجذرية التي لحقت بالمدن الرومانية من غير قطيعة أو إلغاء لموروثاتها القديمة،هذه الدراسة رصدت و لو جزئيا المثلث : القبيلة- الحكم- المجال ، ومدى تحكم هذه الثلاثية في تاريخ المدينة ، الذي أثر فيه بالدرجة الأولى : الاقتصاد، التركيبة السكانية بحيث أنها عرفت بالتنوع العرقي البربري-العربي ، ليزيد إليها الهلالي نضجا و من ناحية أخرى ارتباكا ثم انسجاما من أجل تكوين نسق اجتماعي فسيفسائي ميز المدينة ونواحيها.

ظلت بسكرة ومدنها محافظة على خصوصيتها كمدينة صحراوية سهبية، استطاعت التحول إلى النمط الإسلامي في العمران، والاندماج في النسق المديني الإسلامي، مع حفاظ شامل في كل الميادين على موروثها الروماني - الإفريقي الذي بدا جليًا في الزراعة والسقاية والحياة الاقتصادية وحتى الاجتماعية، وكذا في هيكلة المدن.

_بسكرة وزيبانها التي قاومت الوافد الجديد مسطّرة ملحمة عقبة والشهداء معه، حيث أرجعت سكانها وأحلافهم الفتح الإسلامي للمغرب إلى نقطة البداية؛ استطاعت فيما بعد بقليل الاندماج في التركيبة الإسلامية، بل كونت خصوصيتها بدءا من القرن الثاني للهجرة حين اصطبغت ن مدنها بصبغة الخارجية، والتي بقيت مؤيدة لها على مرّ تاريخها الوسيط، وبالمقابل محافظة المدن الأخرى على السنية بحيث وسمت بسكرة بمالكيتها وبأنّها دار علم للمذهب المالكي، والذي لم يؤثر فيه فرض المذهب الشيعي الذي طال المنطقة على غرار كل أرض المغرب.

_انضوت المدينة تحت حكم الشيعة الإسماعيليون ولكن هذا لم يكن يعني دخولها في المذهب ماعها له إيديولوجيا، فقد بقيت محافظة على سنيتها شديدة التمسك بها، مع التركيز على أهميتها الاقتصادية بحيث كان ملح بسكرة وتمورها الجيدة حكرا على الحكام الفاطميين.

_الإرث الروماني الإفريقي البسكري بدا أكثر جرأة وتطلعًا حيث استطاع البروز بدءاً من القرن لخامس الهجري متجليًا في الأسر المحلية التي حكمت بسكرة وزيبانها ، فأربعة قرون من تاريخ الوجود الإسلامي في المنطقة كان كفيلاً ببلورة الفكر السياسي وتطويره نحو تشكيل الكيانات السياسية، في طريقها إلى تحقيق حلم الإمارة ممثلة في أسرتي : بني رمان وبني سندي، واللتين تعاقبتا على حكم المنطقة لثلاثة قرون منضوية تحت حكم دولتين : الحمادية والموحدية، ومستقلة عنها في الوقت نفسه بإدارة شؤونها الداخلية بنفسها.

_**الجدير** بالتنويه أنّه في هذه الفترة عرفت المنطقة تطوراً اقتصاديا هائلاً، أفاض الجغرافيون وصفيون في مؤلفاتهم بالحديث عنه، كما عرفت المدينة التطور الشامل في تقنيات الري والسقاية وتنظيم المياه، ومن البديهي تنظيما مجاليا، عمرانيا وغراسيا زراعيا، ساعدت عليه تبادل الخبرات مع الشمال المتوسطي (الأندلس).

_تحت حكم السلطنة الحفصية استطاعت أسرة بني مزني الهلالية تحقيق حلم المدينة - **الدولة**، وفي نفس الوقت نفي الاعتقاد السائد بأن الهلالي ليس له أي دور سياسي سوى التخريب والحرابة، استطاعت هذه الأسرة حكم الزيبان وما انضم إلى ملكهم من مدن الحضنة ووادي ريغ ورقلة وأحياناً إلى سدويكش والتل في حدود لم تعرف الثبات أو الاستقرار، إلاّ أن الحكام من بني مزني بعد التجربتين لسابقتين لبني رمان وبني سندي قد عرفوا كيف يتحكمون في موارد هذه الزيبان وفي اقتصادياتها وفي السيطرة على المجالات الحضرية والريفية القروية، وإن عجزوا عن التحكم في المجالات البدوية الصحراوية المحيطة بالمدن والتي كانت خاضعة لبعض القبائل لبني الهلالية. **وجدنا لان إحكام السيطرة من قبل** الحكام المستقلون لهذه المنطقة الطرفية الواحية قد ارتبط خاصة بالضعف العام الذي عرفته القوى السياسية في المغرب ما شجع الخارجين على التأقطع، المهم أن بني مزني استطاعوا الرقي بمدينتهم إلى صاف الإمارات والكيانات السياسية التي بإمكانها التحكم بقدرة كبيرة في السيطرة على إمكانياتها ومجالاتها.

_موقع المدينة على خط التجارة وملتقى طرقها وطريق الحج أسهم في **جعلها مدينة ذات طابع** تجاري، كما ضاعف من أهميتها الاقتصادية كونها منطقة خصبة منتجة، كما ساهم هذا الموقع في جعلها مدينة علمية بالدرجة الأولى جمعت العديد من العلماء الأفذاذ على أرضها مع مساهمة الحكام أيضا في هذا التطور الثقافي والعلمي، وتكفي شهادة البكري بأنها **ودار علم للمذهب المالكي**.

قائمة المصادر والمراجع

1)- المصادر:

- **الإدريسي**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحسني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت : عالم الكتب ، ط1 ، 1961.
- **ابن الأبّار**، أبو عبد الله محمد: الحلة السّيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، **القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر**، ط1 ، 1963 .
- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم: المؤنس في أخبار إفريقية و**تونس**، لبنان : دار المسيرة ، ط2 ، 1993.
- ابن الأثير، **أبو الحسن علي**: الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله ، بيروت : دار **الكتب العلمية**، ط4 .
- ابن الحاج النميري : فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، دراسة : محمد بن شقرون ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1990 .
- ابن الخطيب السلماني، **لسان الدين**: تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب **أعمال الأعلام** ، تحقيق : أحمد مختار العبّادي وإبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء : دار الكتب العلمية
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت : دار الآفاق الجديدة .
- **ابن القطّان، المراكشي حسن بن علي: نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق :** محمد علي مكي ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1990 .
- ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر في أبناء العمر ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة .
- ابن حمّاد الصنهاجي، أبو عبد الله محمد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق : جلول أحمد بدوي ، الجزائر: المؤسسة الوطنية **للكتاب** ، 1984 .
- ابن حوقل النصيبي، **أبو القاسم** : صورة الأرض ، بيروت : دار مكتبة الحياة .
- ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مراجعة : سهيل زكار ، بيروت : دار الفكر ، 2000م .

- ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، بيروت : دار صادر ، ط1 ، 2000م .
- ابن سعيد المغربي، **أبو الحسن علي بن موسى: الجغرافيا، تحقيق**: إسماعيل العربي ، الجزائر : **ديوان المطبوعات الجامعية، ط2** ، 1982 .
- ابن **صاحب الصلاة، عبد الملك** : المنّ بالإمامة ، تحقيق : عبد الهادي التازي ، بيروت : دار الأندلس ، ط1 ، 1964 .
- ابن **عبد الحكم، أبو** القاسم عبد الرحمن: **فتوح إفريقية والمغرب ، تحقيق : عبد الله أنيس الطّباع** ، بيروت : مكتبة المدرسة ، 1980 .
- ابن عبد الحليم : كتاب الأنساب ، تحقيق : محمد يعلى ، مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي .
- **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب ، تحقيق : ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، بيروت : دار الثقافة ، ط2 ، 1980 .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب : القسم الموحّدي ، تحقيق : إبراهيم الكتاني وآخرون ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1990 .
- **أبو العرب تميم**، محمد بن أحمد القيرواني : طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق : علي الشابي ونعيم حسن اليافي ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ط2 ، 1985 .
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : إبراهيم علي طرفان ، مصر: **المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر** .
- **أبو زكريا** : سير الأئمة وأخبارهم، الجزائر: **المكتبة الوطنية** ، 1979 .
- **أبو** عبيد البكري : المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة ، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003 .
- أحمد بن القاضي، **أبو العباس: جذوة الاقتباس** في من حل من الأعلام بمدينة فاس، **الرباط : دار المنصور للطباعة** ، 1973 .
- الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، **تحقيق : إحسان عباس** ، بيروت : مكتبة لبنان، ط2، 1984.

- **الداعي القرشي، إدريس عماد الدين** : عيون الأخبار ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1 ، 1988 .
- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تصحيح : إبراهيم شبوح ، مصر : مطبعة السنّة المحمدية ، ط2 ، 1968 .
- الدرجيني أبو العباس أحمد : كتاب طبقات علماء المغرب ، تحقيق : إبراهيم الطلّاي ، قسنطينة : مطبعة البعث ، 1985 .
- الرقيق القيرواني، **أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم: تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق : عبد الله العلّي ، وعز الدين عمرو موسى**، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1990 .
- **الزركشي**، أبو عبد الله محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس : المطبعة الدولية التونسية ، ط1 ، 1972 .
- **السخاوي** : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة .
- الشماخي أحمد بن سعيد : كتاب السّيَر ، تحقيق : أحمد بن سعود السيابي ، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة ، ط2 ، 1992 .
- الشهرستاني : الملل والنّحَل ، تعديل وتحقيق : صدقي جمال العطّار ، بيروت : دار الفكر ، ط2 ، 2002 .
- الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998 .
- العزيزي الجوذري : سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق : محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، مصر : دار الفكر العربي .
- القاضي النعمان بن محمد: رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق : وداد القاضي ، بيروت : دار الثقافة ، ط1 ، 1980 .
- القاضي النعمان بن محمد : دعائم الإسلام ، تحقيق : آصف بن عليّ أصغر فيضي ، القاهرة: دار المعارف.
- **المالكي**، أبو بكر بن محمد: رياض النفوس ، تحقيق : بشير بكوش ، مراجعة : محمد العروسي

المطوي ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1981 .

- الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق : سمير مصطفى رباب ، بيروت : المكتبة العصرية ، 2001 .
- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : سعيد محمد اللحام ، بيروت : دار الفكر ، ط1 ، 2000 .
- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : حسين نصّار ، مراجعة : عبد العزيز الأهواني ، القاهرة : المكتبة العربية ، 1983 ، ج 24 .
- اليعقوبي : البلدان ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1992 .
- خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، رواية : بقيّ بن خالد ، تحقيق : سهيل زكار ، بيروت: دار الفكر، 1993 .
- صفي الدين البغدادي : مراصد الاطلاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، لبنان : دار الجيل، ط1 ، 1992 .
- عبد العزيز الثعالبي : تاريخ شمال إفريقيا ، جمع وتحقيق : أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس ، تقديم ومراجعة : حمادي الساحلي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1978 .
- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع .
- ليون الإفريقي الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد حجّي ومحمد الأخضر ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط2 ، 1983 .
- ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت : دار الفكر ، ط2 ، 1995 .
- يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق : عبد الحميد حاجيات ، الجزائر : المكتبة الوطنية ، 1980 .
- يحي بن عمر : النظر والأحكام في جميع أحوال السوق ، برواية : أبو جعفر أحمد القصوي القيرواني ، تونس : الشركة التونسية للتوزيع .
- مجهول من ق 6 : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد

: دار الشئون الثقافية العامة .

- مجهول : مفاخر البربر، تحقيق : محمد يعلى ، مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، 1996 .

2)- المراجع العربية :

- ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ، تحقيق : لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار ، 1976 .
- إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس ، بيروت : دار الطليعة ، ط1 ، 1998 .
- إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا ، بيروت : دار النهضة العربية ، 1980 .
- أبو القاسم الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1982 .
- أحمد مختار العبيدي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، 1997 .
- إسماعيل العربي : دولة بني حمّاد ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 .
- إسماعيل العربي : عواصم بن زيدي ، بيروت : دار الرائد العربي ، ط1 ، 1984 .
- الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، ط7 ، 1994 .
- أمير عبد العزيز : الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين، بيروت: دار ابن حزم ، ط1 ، 2003 .
- الحبيب الجنحاني : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت : دار الطليعة ، ط1 ، 1980 .
- السلاوي : الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفرالناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 .
- السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير في العصر الإسلامي ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الطمّار : تلمسان ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984 .
- المدينة الإسلامية : مجموعة باحثين ، ترجمة : أحمد محمد ثعلب ، مقالات عن كلية الدراسات الشرقية ، جامعة كمبردج ، اليونسكو ، 1983 .
- المطوي : السلطنة الحفصية ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1986 .
- الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، تعريب : حمادي الساحلي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1992 .
- امبريسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي للدولة الموحدية ، ترجمة : عبد الواحد أكمير ، الدار البيضاء : منشورات الزمن ، ط1 ، 2004 .
- بحّاز إبراهيم : الدولة الرستمية ، الجزائر : تراثنا ، 1993 .
- جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .
- جورج مارسي : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي ، ترجمة : محمود عبد الصمد هيكل ، الإسكندرية : مطبعة الانتصار .
- حركات إبراهيم : مدخل إلى تاريخ العلوم ، الدار البيضاء : دار الرشاد ، ط 1 ، 2000
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط3 ، 1993 .
- حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط دولة الخلافة ، القاهرة: دار الفكر ، ط1 .
- حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، مصر : مكتبة الخانجي ، ط1 ، 1980 .
- حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية .
- حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، بيروت : دار العصر الحديث ، 1992 .
- خالص الأشعب : المدينة العربية ، جامعة بغداد : قسم البحوث والدراسات الجغرافية ، كلية الأدب ، 1982 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- خليفة عبد الرحمن : في علم السياسة الإسلامي : الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .
- رشيد بورويبة : الدولة الحمّادية ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1977 .
- روبار برونشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ترجمة : حمادي الساحلي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1988 .
- سالم حميش : في سيمياء الاستبداد ، جدلية المجتمع والدولة بالمغرب ، الدار البيضاء : إفريقيا الشرق ، ط2 ، 1994 .
- سعد محمد رعد : العمران في مقدمة ابن خلدون ، دمشق : دار طلاس للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1985 .
- سعيد بن حمادة : الماء والإنسان في الأندلس ، بيروت : دار الطليعة ، ط1 ، 2007 .
- سليمان باشا الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، تحقيق : أحمد كروم وآخرون ، الجزائر : دار البعث ، 2002 .
- سليمان بن داود بن يوسف : حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي ، الجزائر : مطبعة أبو داوود ، 1993 .
- صبحي الصالح : النظم الإسلامية ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط1 ، 1965 .
- ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في الحضارة العربية ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982 .
- عادلة علي الحمد : قيام الدولة الفاطمية ، الإسكندرية : دار ومطابع المستقبل ، 1980 .
- عبد الجبار ناجي : دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .
- عبد الحميد خالدي : الوجود الهلالي السليمي في الجزائر ، الجزائر : دار هومة ، 2007 .
- عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ، الدار التونسية للنشر ، 1975 .
- عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط ، ترجمة : فضيلة الحكيم ، بيروت : دار الحداثة ، ط2 ، 1988 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- عبد الكريم غلاب : قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1 ، 1996 .
- عبد الله العروي : مفهوم الدولة ، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ط7 ، 2001 .
- عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ط2 ، 2000 .
- بد الله نعمة : فلاسفة الشيعة : حياتهم وآراؤهم ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة .
- عبد الواحد ذنون : دراسات في تاريخ حضارة المغرب الإسلامي ، بيروت : دار المدار الإسلامي ، ط1 ، 2004 .
- علاوة عمارة : دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية .
- علي حسن الخربوطلي : الإسلام والخلافة ، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، 1969.
- علي سعد الله : نظرية الدولة في الفكر الخلدوني ، الأردن : دار مجدلاوي ، ط1 ، 2003 .
- عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2 ، 2010 .
- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- فيلالي عبد العزيز : المظاهر الكبرى في عصر الولاة بالمغرب والأندلس ، سوسة : دار المعارف .
- فيلالي عبد العزيز : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب ، الجزائر : دار هومة ، 2007 .
- لويس ممفورد : المدينة على مرّ العصور : أصلها وتطوّرها ومستقبلها ، إشراف ومراجعة : إبراهيم نصحي ، مصر : مكتبة الأنجلو مصرية ، 1964 .
- ليوبولد تورّس بالباس : المدن الإسبانية الإسلامية ، ترجمة : إليو دو ري دي لابنيا ، مراجعة: محمد جمال وعبد الله إبراهيم العمير ، الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط1 ، 2003 .
- محمد أ حمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ، بيروت : دار الطليعة ، ط1 ، 1998 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- محمد الأمين بلغيث : دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي ، الجزائر : دار التنوير ، 2006
- محمد البشير شنيتي : الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.
- محمد الصغير غانم : مقالات حول تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية ، منشورات جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس ، باتنة : مطبعة قرفي .
- محمد الصالح مرمول : السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1983 .
- محمد الطالبي : الدولة الصنهاجية ، تعريب : المنجي الصيادي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، 1995 .
- محمد الميلي وعبد الله شريط : الجزائر في مرآة التاريخ ، قسنطينة : مكتبة البعث ، ط1 ، 1965 .
- محمد بن عميرة : دور زناتة في الحركة المذهبية بإفريقية، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984 .
- محمد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، تونس : جامعة تونس الأولى ، 1999 .
- محمد حسن : الجغرافيا التاريخية لإفريقيا ، ليبيا : دار الكتاب الوطنية ، ط1 ، 2004 .
- محمد حسن : القبائل والأرياف المغربية ، تونس : دار الرياح الأربعة ، 1986 .
- محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين ، بيروت : دار النفائس ، ط1 .
- محمد شقير : تطور الدولة في المغرب ، الدار البيضاء : إفريقيا الشرق ، 2002 .
- محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ط5 ، 1999 .
- محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1963 .
- محمد عيسى الحريري : مقدمات البناء السياسي بالمغرب ، الكويت : دار القلم ، ط2 ، 1983 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ، الدار البيضاء : دار الثقافة ، ط1 ، 1995 .
- مصطفى أبو الضيف أحمد : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982 .
- مصطفى الشكعة : الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ، القاهرة : الدار اللبنانية المصرية، ط3 ، 1992 .
- مصطفى بن سباع : السلطة بين التسنّن والتشيّع والتصوّف ، تطوان : مطابع الشويخ ، 1993 .
- موسى لقبال : المغرب الإسلامي ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط3 .
- موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1979 .
- نجم الدين الهنتاتي : المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي : تونس : منشورات تبر الزمان ، 2004 .
- هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة : حسان عباس وآخرون ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط3 ، 1979 .
- هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي القرن الأول والثاني الهجري ، بيروت: دار الطليعة، ط1، 2000 .
- هشام جعيط : تأسيس المدينة العربية الإسلامية : الكوفة ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط3 ، 2005 .
- يوسف أحمد حوّالة: الحياة العلمية في إفريقية، مكة المكرمة: جامعة أمّ القرى، ط1،2000 .

3)– المراجع الأجنبية :

- - Albertini : L'Afrique romaine , 1937 .
- - Baradez : Fossatume Afriquae , Paris : Art et métier graphique , 1949.
- - Cambozat Paul - louis : L'évolution des cité du tell en Afriquia , Alger : office de publication universitaires , 1986 .
- - Charles – Andrés julien : Histoire de l'Afrique du nord, Alger : S . N .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

E . d , 1975 .

- - Charles Tissot : La Provence romaine de l'Afrique, Paris : .1984
- Cristian Courtois: Les vandales et l'Afrique, Paris, Art et metier graphique, 1955.
- - Reriziat : Etude sur l'oasis de biskra , Paris : Art et métier graphique , 1955.
- - Salama Pierre : les vois romaine de l'Afrique du nord, Alger : imprimerie officielle, .1951
- - Stéphane G Sell : Atlas archéologique de l'Algérie, Edition spécial des cartes du service géographique de l'armé , reed osmabruck , 1972 .

4-الدوريات:

- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، ع10، 2009م.
- مجلة عصور، السنة الثانية، ع2، 2003م.
- مجلة الخلدونية، الجزائر، ع9، 2011م.

- Société archéologique du département de Constantine, 3ème volume, de la 5ème série, 1912.
- Société archéologique du département de Constantine, 34ème volume, de la 3ème série, 1888.

5-الرسائل الجامعية:

- سناء عطابي، الخطاب الفقهي والعمران، رسالة ماجستير مطبوعة غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2007.

فهرس الموضوعات

مقدمة 2

الفصل الأول: بسكرة في مرحلة التحولات (ق1–4هـ/ 7–10م)

1- العمق التاريخي لبسكرة وجهتها..... 8

2- بسكرة: ارتباط بالمتغيرات القيروانية..... 12

3- بسكرة: مصدر التمور ومعبر الطرق التجارية..... 36

4- التشكل الاجتماعي والثقافي 46

الفصل الثاني: الإرهاصات الأولى لميلاد المدينة –الدولة (ق5–6هـ/ 11–12م)

1- بسكرة بين بني رمان وبني سندي..... 57

- من بني رمان إلى بني سندي..... 57

- بسكرة في قلب الحركات المناوئة للموحدين..... 68

2- اقتصاديا..... 75

3- أرياف إباضية في مواجهة حواضر سنية..... 79

- اجتماعيا..... 79

- ثقافيا..... 86

الفصل الثالث: بسكرة المدينة –الدولة في زمن بني مزني

1- بنو مزني وميلاد المدينة- الدولة..... 90

2- ميلاد نظام ضريبي معقد..... 113

3- مجال اجتماعي متحرك وانتشار واسع للمذهب المالكي والتيارات الصوفية..... 121

الخاتمة..... 134

الملاحق..... 137

فهرس الأعلام..... 145

فهرس الأمم والقبائل 153

فهرس الأماكن..... 158
قائمة المصادر والمراجع..... 169
فهرس الموضوعات.....

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية